

نوافذ على الأحياء



محمد فقير



هذا الكتاب



لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتَ أَنْتِ وَهَنْ مِنْكَ أَوَاهِلُ

ليس مثل الأستاذ من يغيثك عند حوجة التعبير ، هو يوسوس لك فينذكك ، هو المتنبئ ، ويقول استشهد .. نعم ... أقفرت منازل قريتنا ... ديار حوت طفولتنا وصبانا ... شهدت محاولتنا الأولى ونحن نفك الحرف ... عاشت هكاوينا ... وعواطفنا الأولى ...

ولكنها أقفرت ... كما أقفر علي غيبيد من أهله ملحوب ... أراها من هنا ... من هذا البعد السحيق في ضواحي الإسكيمو... أراها مرة تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ... كما لاحت لطرفة ببرقة ثمهد ... أو كما لاحت للحارث ببرقة شماء ورياض القطا والإبلاء ... لا أري من عهدت فيها فابكي ... ولا يحير البكاء ... وأراها مرة أخرى كما أراها إمرو القيس يسقط اللوي بين الدخول فحومل .. وأراها مرة

ثالثة بعين زهير ... فتبدو كديار الرقمتين ... مراجيع وشم في نواشر معصم ... وأكاد أشكو إليها وأكلمها، كما فعل ذوالرمة بجرعاء حزوي.. أكاد أدع الدمع ينحدر ، لعله يعقب راحة ... ولكن ليست لي رواحل ... وليس لي خلان ... لأسوقهم الي هناك

: خليلي عوجا من صدور الرواحل == بجرعاء حزوي فابكيا في المنازل

لعل النصار الدمع يعقب راحة == من الوجد أو يشفي نجي البلابل

وأراها مرة رابعة كما رآها الشريف الرضي ... ومثلما فعل قلبه ... تلتفت قلبي .. وما زال يتلفت ... أقفرت ديارنا كما أقفرت ديار بالجواء علي عنقرة بعد أم الهيثم ... وعفت كما عفت ديار لبيد في مني بحمي ضرية ومدافع الريان ... وأقوت كما أقوت دار مية علي النابغة بالعلاء والسند ... وقفت منازلنا خاوية علي عروشها .. هاجر منها من هاجر شرقا ... وهاجر منها من هاجر غربا ... وهاجر منها من هاجر من الدنيا الفانية ... أقفرت تلك المنازل ... ولكن لها في قلوبنا منازل أهلة بذكراها ... مليئة بالشوق إليها ... طال بها الحنين ... وفاض بها الشجن ... وكيف لا .. فيها مسقط الرأس ... وذكريات الأمس ... رونق الشباب وموطن الأحباب ... مراتع الصبي ومرابع اللهو ... حين كان للحسان فينا إرب ... ولنا فيهن مثل الذي لهن ... وأكثر ... فيها دار أبي ... ومنازل قومي ... أغنام أمي ودجاجها ... مزرعة جدي التي أطعمتني ... وأزار جديتي التي روتني ... شجرة اللابوب التي ظلت طفولتي ... تل الرمل الذي إرتميت عليه في ليالي القرية المقمرة ... أشجار النخيل الباسقة التي تحف بيتنا الطيني الوديع ... مزارع القمح والفول والبرسيم .. الجدول وصوت البربخ ... الجامع والخلوة والمدرسة ... كان ذلك في سنين العمر الفرحة المرحلة ... المليئة بالتفائل ... كان ذلك قبل أن يماطلني زمني ما منيت نفسي به من آمال ... كما ماطل العباسي من قبل ... حين كان (العود أخضر ... والأيام مشرقة ... وحالة الأنس تفري بي وتفريني) ... حينئذ كانت الدنيا ممتدة أمامنا كسهل منبسط ... في ذلك الوقت لم تكن المدن البعيدة من أحلامي ... ولا المرافئ الغريبة من مقاصدي ... ولا كانت الهجرة من خواطري ... لم يكن المتنبئ من معارفي ... ولم يكن شعره من رفقائي ... ولم أكن (قلقا كان الريح تحتي) ... كانت البلدة مطمئنة ... والحالة رخيية ... والنفس راضية ... والروح مرحة ... تركت كل ذلك وهاجرت ... قملعت الصحاري وعبرت المحيطات ... فقط لاكتشف (أن ما جلث أبحث عنه هنا تركته ورائي هناك) ... فكانت العودة بهذا الكتاب ... لعل لي فيه بعض من عزاء ... وللقارئ بعض من متعة ... ذلك ما أتمنى .



نوافذ على الأمس

نوافذ على الأمس

محمد فقير



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووهلاء دور نشر

الكتاب : نوافذ على الأمس

المؤلف : محمد فقير

رقم الايداع: ٢٠١٥ / ٥٨٢٨

سنة الإصدار : ٢٠١٦

الطبعة الاولى

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة
ولا يسمح بإعادة نشر هذا العمل كاملا أو أي قسم من أقسامه. بأي شكل من ال أشكال إلا بإذن كتابي

الناشر: دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة: شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة

ت : 83787200 فاكس : 8379084 (+249-1)

للتوزيع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : 8378201

السودان - الخرطوم ص.ب : 12909

بريد إلكتروني : azzaph@yahoo.com

ردمك: 500 - 54 - 99942

إهداء:

- إلي والدي ووالدي وأختي وزوجتي في عالم الخلود ، في الظل الممدود ، عند الخالق المعبود.
- وإلي شقيقى عبد الله وشيخ طويل في عزيمتهما المجيدتين ، وعمرئيهما المدينتين.
- وإلي جدى الأمين ، مريينا النبيل ، فقد تعلمتُ منه ، فيما تعلمتُ، فضيلتي الصمت والقناعة.
- وإلي جدتي خديجة ، الملهمة الحقيقية لهذا الكتاب.
- وإلي إخوان لي لم تلدهم أُمى، أجدهم بجاني كلما إدلهم الطرف، ودمع الطرف، وعجز الحرف.
- وإلي أصدقائي الكثر النبلاء ، في أطراف الأرض وضواحيها، لهم مني السلام حفاً ، والحب نقياً.
- وإلي إنسانة عزيزة ، لها بين سطور الكتاب مخاين ، لعل كلماتي تصادفها وهي في تمام الصحة وكمال العافية.
- وإلي كل من تعلمتُ منه حرفاً أو معنى .

وفي البدء والمنتهى إلي أبنائى وفاء ، علي ، وأليسا ، الذين . رغم فرحتهم الكبيرة بهذا الكتاب . إلا أنهم لن يستطيعوا قراءته . فقد حُرِّموا ليس من النبوة فحسب ، بل حتى من العربية ، لهم حى في مداه إن كان للحب مدى.

شكر وتقدير :

خالص تقديري للأستاذ الكبير والكاتب المعروف جعفر عباس . الذي شجعتني على الكتابة . ثم تكرم بمراجعة الكتاب . ثم تفضل وأعطى الكتاب نكهة خاصة بتقديمه النفيس . فله منى الشكر الذي مهما أجزله لا أوفيه حقه. وقد استفدتُ من كتاباته الكثيرة عن العادات والتقاليد النوبية. خاصة سلسلة الكتابات التي عنوانها الأستاذ بـ (سيرة في مسيرة) . والتي تحدث فيها عن بدين كثيراً، والتي جَمَعْتُ جزء من حلقاتها من سَقَطَ لَقَط .

وشكري الجزيل وامتناني الكبير لموصول للكاتب الروائي البديع الأستاذ طه جعفر . صاحب رواية (فركة) الحائزة على جائزة الطيب صالح للإبداع الروائي في دورتها الثامنة 2009 – 2010 . وفركة رواية لا تقل في إفادتها وإمتاعها ولغتها وفنياتها وشجاعتها وطريقة تناولها للقضية المعنية بها. لا تقل عن روايات عالمية لكتاب عباقرة تناولوا بعض (المسكوت عنه) كلٌّ في بيئته . لا أقول هذا لأن الأستاذ طه برني وشرف الكتاب بتمهيد ضافي. ثم ساعدني في إعداد الكتاب للطباعة إنما لأن الرواية تستحق له صادق التقدير.

والشكر موصول لكل الذين شجعوني علي هذا العمل . وانتظروه كثيراً . كان منهم التشجيع . وكان منى التأخير . ولكن أليست الكتابة "كالصيد ... نحتاج إلي صبر". كما قال ماركيز . لهم اعتذارى . والحقيقة أن إصدار كتاب بهذه الصورة كان من أحلام الصبا . ولكنه حُلِمَ . كغالب أحلام الصبا . ظل مصلوباً على أبواب الرجاء والتمنى . إذ أخذتنا الحياة مناحى شتى . وتوهنتنا في طرقاتها المعوجة . وأخذنا أنفسنا بالإهمال مرة . وبالكسل مرات . وعلى كل . فهذا هو الكتاب يصدر . إن أسعدتْ به أحداً فذاك . وإلا فإني أكتفى بأجر المحاولة .

بالغ شكري وامتناني للآخ الشاب الرائع دكتور عاصم عبدون الذي لم اتعرف عليه شخصياً الا عبر الايميلات . ولكنه رغم ذلك بذل جهداً خارقاً ليرى هذا الكتاب النور ولولا له لقيع الكتاب في مكانه الذي كان فيه منذ سنوات عديدة. له تحية وتقدير مستحقين.

تصدير:

ليس هذا العمل سرداً لتاريخ جزيرة بدين ، ولا هو بحث إجتماعى عن أهلها ، ولا هو . بأي حال ، دراسة في التراث النوبي ، بل هو مجرد خواطر وذكريات ، بدأت كتابتها في شكل حلقات في الإنترنت . وبالتحديد في سودانيز أون لاين ، ثم ، وبتشجيع من الكثيرين ، تطورت الفكرة ، إلي جمعها وإصدارها في كتيب . فتوسعتُ فيها ، وضممتها بعض العادات والتقاليد التي عاش عليها الناس في المنطقة النوبية الكبيرة رداً من الزمان . ومازالوا يعيشون على بعضها ، وتطرفت إلي الحياة الإجتماعية ، والإقتصادية ، والمعيشية لإنسان المنطقة . وذكرت طرفاً من التاريخ النوبي ، مع بعض التفصيل في بعض هذا التاريخ ، وقمت بإلقاء بعض الضوء على اللغة النوبية ، والتي ، وبكل أسف ، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الإنقراض ، ثم حاولت إعطاء بعض شخصيات الجزيرة حقهم في التوثيق ، بذكر سيرة كل منهم ، وليس في الإمكان ذكر كل الشخصيات مستحقة الذكر ، فلمن فاتني ذكره العتيى إن كان حياً ، ولأمله إن إرتحل ، وجدير بالذكر أن بعض العادات والتقاليد التي سوف أسردها هنا ، لم تكن مشتركة (بفتح الراء) كلها في كل مناطق النوبة ، بل كانت هناك بعض الاختلافات ، وبعض العادات تختلف في تفاصيلها وأسمائها من منطقة إلي أخرى ، وحتى اللغة . كما هو موضح في ثنايا الكتاب . تختلف بعض مفرداتها وطريقة نطقها من منطقة إلي أخرى ، كما أن اللغة النوبية الثانية (نشكرين) أو (الأشكر) أو (الأنداندي)، أو الدنقلوبة ، تختلف إختلافاً كبيراً عن ال (نوبين) ، وهي لغة بقية النوبة في حلغا والسكوت والمحس . هذا وقد ختمتُ الكتاب بجزء تناولت فيه بإختصار مآزق الهجرة وتداعياتها في شكل رسالة إلي إبني علي.

أريد أن أنوه إلي أنني أكتب من منطلق قارئ مهتم ، وليس من منطلق باحث ولا موثق ولا مؤرخ ، ولذلك فلا تقسيم ولا تبويب للكتاب ، ولا يوجد في الكتاب قسم خاص بذكر المراجع . ولا إشارة إلي صياغات منقولة إلا قليلاً ، فانا أخذ المعلومة وأعيد صياغتها ، وأضيف المعلومات بعضها إلي بعض . إلا بعض الفقرات التي شارك بها بعض الإخوة ، فقد رأيت أن أعرضها كما هي ، وعلي كل حال فمراجعي تتلخص في ذاكرتي الخبرة . ثم أوراق قديمة كنت أسجل فيها بعض الخواطر ، والتي لا أنقلها كلها ، ثم المنتديات النوبية وغير النوبية في الإنترنت . وهذه المنتديات من الكثرة بحيث لا أستطيع ذكر أسمائها هنا . ولكنني أشير إلي منتدي واحد . هو (arkamani.org) . فقد أستفدت كثيراً من ترجمات الراحل ، الدكتور أسامة عبدالرحمن النور ، الذي أسدي إلي الحضارة النوبية خدمة لا تضاهي . الأ رحمه الله ، ثم أشير إلي كتاب (السودان . المآزق التاريخي وأفاق المستقبل) للمفكر للراحل محمد أبو القاسم حاج حمد . المجلد الأول . ثم كتاب لا إسم له . عن التراث النوبي واللغة النوبية . أصدره الكاتب النوبي محمد متولي بدر . وهو من أبناء تبج . ولكن مذكور في الكتاب أنه كُتب في عنيبة عام 1955 . ثم المعلومات التي جمعتها من هنا وهناك . في السودان وفي بلدان الشتات في الغربية ، والغربة في النوبية تسمى (باربا) . رد الله غربتنا وأعادنا من هذه الباربا إلي بلادنا سالمين . آمين . أما الصور داخل الكتاب فبعضها بكمرتي وبعضها من المنتديات المختلفة.

مقدمة:

بقلم جعفر عباس

اختار شاعرنا الضخم الراحل محمد عبد الحى البحث عن جذوره كسوداني بـ "العودة إلى سنار". وكان الله رحيمًا به فلم يمض عليه طويلاً ليشهد انهيار حلمه. وحلول عصر تهاقت المواطنين السودانيون للابتعاد عن سنار. والبحث عن أوطان بديلة، ولأن "النوى ترمي بالمقتربين المراميا"، فقد انتهى الأمر بصاحبتنا محمد فقير في كندا، التي لجأت إليها بعد دهر قضاه في المملكة العربية السعودية. فإذا بالبعد العاطفي والوجداني عن وطنه الصغير "جزيرة بدين"، يتضاءل ويتقاصر متحدياً البعد والمسافة الجغرافية. وسيكتشف كل من يقرأ هذا الكتاب، أن محمد يطل على بدين من نافذة الأسس القريب، ليس بحساب السنين ولكن بحساب مخزون الذاكرة. ورغم أنني شهدت مولد معظم فصول الكتاب هذا قبل سنوات من قرار مؤلفه إصدارها في كتاب. إلا أنه ما فتئ يدهشي بقدرته على اجتراح تفاصيل الحياة والناس وحتى الطقوس التي اندثر معظمها وكأنه ظل يدون يومياته منذ أن تعلم فك الخط، وكتب فصول هذا الكتاب كلها داخل بيت أو مسيد في "شبة". أو "فتي أرمنتو". وليس في تورنتو. وبين المؤلف قواسم مشتركة عديدة، لعل أقواها اعترازا الشديداً بالانتماء إلى بدين وحنينا الشديداً لها، وبدهي أن كل شخص ببلدته أو قريته أو مدينته معجب، ولكنني أقول بعد تسواح في أربع قارات، أنه لو كانت لدينا في السودان ديرة ودراية بفنون جذب السياح، لجلبت علينا بدين وصوحيباتها ذوات الأعناق المطوقة بعراجين النخل التي تغرد فوقها القماري، مثل ما كان يجلبه مشروع الجزيرة الزراعي قبل وأده مع سيق الإصرار والترصد، ورغم أن كلينا عاش بعيداً عن الوطنين الصغير والكبير دهرًا طويلاً قضيناه في المهاجر. فإن الغربة لم تزدنا إلا اقتراباً من بدين والسودان، فبدين شأنها شأن كل بلدات أراضي النوبة، يفوح منها عطر التاريخ، فينشأ عيالها وهم مدركين أنهم يعيشون في أراض ورثوها عن أسلاف رحلوا قبل مئات أو آلاف السنين، ويفسر هذا احتفاء النوبيين بالأرض والنيل، بسبب إدراكهم الغريزي بأنهم قوم راسخو الجذور في حوض النيل، خاصة وأن الشواهد على حضارتهم العريقة تبقى في مرمى أبصارهم في أي اتجاه حذقوا.

وكننت أحسب نفسي "موسوعي المعرفة" في كل ما يتعلق ببدين والثقافة والتراث النوبيين. ولكنني قرأت هذا الكتاب في شكله النهائي أكثر من مرة (ليس بهدف المراجعة والتصحيح والتنقيح - بدليل أن هناك أخطاء هنا وهناك تجاهلتها كي لا أفسد على نفسي متعة القراءة)، واكتشفت أنني "كبشة" كما نقول في العامية السودانية. عن الشخص الذي لا يجيد شيئاً ما، فأنت تقرأ عن طقوس الولادة في منطقتنا في ديار النوبة فتحسب أن محمد فقير كان داية (غير قانونية) دهرًا طويلاً، وتقرأ له عن الزراعة وتحسب أنه ما زال "إروتي" أي ذلك الصبي الذي يجلس على "كُكم" الساقية، وأنه لم يسمع بعد باختراع مضخات الماء التي تعمل بالكهرباء والمحركات. ويصطحبك إلى حفل عرس، فتخرج بانطباع بأنه كان في الجوقة الموسيقية لـ "تورين جافر" أي جعفر ابن تور إي. الذي كان معروفًا أيضًا باسم

جافربادي. وهكذا أدركت كم كان فقير أكثر قربا مني من تفاصيل الحياة في بدين. وكم هو أكثر "ثقافة" مني في الشأن النوبي عموما.

وأود تنبيه القارئ إلى أمر مهم للغاية، وهو أن الكتاب هذا ليس مجرد خواطر وذكريات، كما يقول صاحبه في التقديم له. بل هو سجل وثائقي اجتماعي لمجتمع ذو تاريخ عريق، وبالتالي فإنه كتاب ينبغي أن يحتفي به من هم من غير أهل بدين، قبل أهل بدين، لكونه ذا قيمة ثقافية عالية، وبه معلومات رفيعة مثبته بالرجوع إلى مصادر ثقاة. ورغم أن المؤلف نوبي أعجمي، وتعلم العربية بنفس الطريقة التي يتعلمها به أبناء - مثلا - نشاد أو بوركينا فاسو، إلا أنك تقرأ ما سطره يراعه (أو الكيبورد بالأحرى)، فلا تملك إلا تنتشي طريا لجمال ديباجته وعبارته الفصيحة الموسقة والمدونة، ولاستخدامه شواهد من جميل الشعر العربي كلما ناسب المقال المقام.

نعم يقر المؤلف أن بدين هي ملهمة فصول هذا الكتاب، ولكنك تقرأه فيأخذك إلى منابع النيل في وسط وشرق أفريقيا متتبعا مساره، والنيل هو الحبل السري الذي يربط معظم أهل السودان ببعضهم البعض، ولكنه عندنا في ديار النوبة ما زال محل تقديس وتبجيل، وستجد في الكتاب شواهد كثيرة على طقوس ذات طابع مسيحي ما زالت تمارس في حالات الزواج والولادة والختان. ليس فقط من قبل النوبيين القابضين على جمر نوبيتهم، بل أيضا النوبيين المستعربين في عموم السودان الأوسط، ومنها غمر الأطفال حديثي الولادة في ماء النيل (التعميد)، ومنها طقوس تعود إلى الديانات النوبية التي سبقت المسيحية، ومنها أن يغسل العريس والعروس وجههما بماء النيل طلبا للخصوبة، ومنها "الجرتي"، الذي صار في العامية السودانية "الجرتق"، لأن القاف غير المقلقلة والكاف في أواخر الأسماء تفيد التعريف والتوكيد في اللغة النوبية. وهذا الطقس يكون بتطويق عنقي العروسين بالخرز والتماثيل و"الجعارين" لدرء العين الحاسدة، كما كان يفعل قدماء النوبيين قبل آلاف السنين، وحتى "الجنبي الإنجليزي" الذي يحمل صورة الملك البريطاني جورج في أحد وجهيه، والذي ما زال يوضع على جبهة العروس السودانية، لا "يكنم سره"، في حمايتها من العين الحاسدة، إلا في الصليب الكبير الذي في الوجه الآخر من القطعة. وهذا من استمرار تأثير الثقافة النصرانية التي طبعت الكثير من جوانب الحياة يوم كانت مملكة النوبة تمتد من جنوب مصر إلى جنوب الخرطوم.. وبعد أن تقرأ هذا الكتاب ستعرف - مثلا - لماذا يتطير/ يتشاءم أهل السودان الشمالي والأوسط من يوم الأربعاء، فلا يتزوجون فيه، وستعرف منشأ عبارة "أربعاء وعقاب شهر"، وأن الأمر لا يتعلق بأن يصادف يوم الأربعاء "آخر الشهر" حيث تكون الجيوب خاوية، بل يكون العبارة مترجمة من أصلها النوبي "أزها أون أباقي"، وتعني أن أكثر أيام الأربعاء شؤما هو ذاك الذي يأتي بعد اكتمال دورة القمر، ولربما لا يعرف الكثيرون أن مسميات الشهور السائدة إلى يومنا هذا في أجزاء كثيرة من السودان ك"ذكريات أيام الأجداد والحبوبات": أمشير وكهك وبؤونة وأبيب، قبطية وما زال أهل النوبة يستخدمونها خاصة لتحديد تقلب فصول السنة، تماما كما ابتدعوا نظام ال"تتي" لتحديد المواعيد (الساعة) مستخدمين حركة الشمس خلال النهار. ومن طول ومسار ظل ال"تتي"، وهو وند خشبي

بغرس في الأرض بارتفاع متعارف عليه. كانوا يحددون به مواعيد فتح جداول الري وتوزيع المياه بين أحواض المزروعات.

ومدخل الكتاب لا يعطي فقط "الانطباع". بل يؤكد بصريح العبارة أنه عن بدين "بنت النيل وست الجيل.. عطر الأرض البكر والنوار". ولكنني ما زلت عند اعتقادي بأن من لا يعرفون بدين أو لم يسمعوها قط، سيجدون فيه متعة أكبر من تلك التي سيجدها أبناء وبنات بدين. فبالنسبة للأخيرين سيتعلق الأمر بالعودة إليها بالذاكرة والنوستالجيا، أو حتى التباهي بالانتماء لها. بينما هو بالنسبة لغيرهم وجبة دسمة من معلومات ذات قيمة وثائقية عالية. مصبوبة في قوالب لغوية شيقة، ومسنودة بلقطات فوتغرافية منتقاة بعناية لتضفي على المفردات الألوان والظلال وتكسر الضياء. فكانت النتيجة "أنشودة" الحب التي استهل بها المؤلف كتابه هذا.

هذا كتاب يسافر بك في عالم حقيقي تكاد معظم معالمه أن تندثر، فأركب قطار صفحاته لتستمع بأشياء هي خليط من الحاضر والغابر، وخالط أناسا حقيقيين. وقم بزيارة مواقع تشهد أحداث الولادة ووقائع الطفولة والصبا والشباب والرجولة والأنوثة، وستعجب في خاتمة المطاف كيف أن "تورنتو" بكل بهائها لم تهر محمد فقير، بل جعلته أكثر إحساسا واعتزازا بأنه ابن بلدة ريفية بهية رغم أنه عاش فيها قبل أن تعرف الكهرياء والهواتف والسيارات.. وستعرف معنى الوفاء للناس والأمكنة، وأن ما انغرس في جيناتك البيولوجية والعاطفية في سنوات نشوئك وارتقائك، وشم في الذاكرة لا يزول طالما النفس طالع ونازل، ونحن جميعا في السودان إما سلالة رعاة أو مزارعين، ولكن المدن بهرجها وطيلسانها تسرق كثيرين منا، وتسرق منا جنورنا، وبلغة "ابن حلال يفتح الباب"، فتح محمد فقير بابا أتمنى أن يلج منه غيره ليوثقوا للحياة في مختلف أصقاع السودان، وبإل أمة تحسب أنها تنتمي للقرن الحادي والعشرين وهي جاهلة بما كان عليه حالها حتى قبل أربعة عقود من الزمان.

جعفر عباس

تمهيد:

بقلم طه جعفر

لقد اهتم المؤلف بتسجيل الوقائع التي عاشها بين أقرانه ووسط أهله . و أجد ذلك ذهاب بعلم التاريخ الاكاديمي لمراق مهمة ، ألا وهي سيرة صناع التاريخ من الناس العاديين في جزيرة بدين ومناطق النوبيين بشمال السودان . و في تسجيله لتلك التفاصيل أورد المؤلف اوصافاً دقيقة للعادات المتبعة فيما يتعلق بالحمل و الانجاب و احتفالات تسمية المولود والزواج ، ثم وصفا دقيقا للمآتم و ما يسبقها من إعلان و ما يستتبع الموت من مراسم للدفن. لم يكن التسجيل تقريريا مبسطا او مسطحا بل كان عميقا يحاول إيجاد الصلات بالواقع المعاش في فترة ربما تمتد من الخمسينيات الي بداية الثمانيات من القرن العشرين بجزيرة بدين بالماضي النوبي العريق بطبقات تاريخه القديم المسيحي و الإسلامي. الكتاب شهادة علي الواقع و الحياة و تشبه كتابة الرحالة نوعا ما ، ورغم جزالة اللغة و شاعريتها إلا أن الكتاب مليء بالمعلومات المهمة و الضرورية لدراسي الفلكور و ربما لكل من يهتمون بدراسة السودانيات عموما في التاريخ و الثقافة. عند قراءة الكتاب ستجد متعة في المقاربات اللغوية التي بذلها الكاتب بين اللغة النوبية و العربية الدارجة وهناك اثبات لكل مفردة نوبية اوتعبير نوبي احتاجه السرد الممتع لتفاصيل الموضوع المحدد بالنطق السليم. تابع المؤلف مجري نهر النيل بأفرعه من المنابع للمصب ليناقد أهمية الماء في اقتصاد المنطقة الزراعي و ارتباط الري بالساقية و الشادوف: آلات الري الرزاعية النوبية العريقة مع اسماء اجزائها و المناطق التي انتقلت لها تلك التقنيات حتي خارج حدود الوطن بدول الجوار. بالكتاب ايضا تغطية لمشروعات التنمية الرزاعية و مجهودات الحكومات المتعاقبة في تغيير ملامح الحياة بادخال الانتاج الزراعي الكثيف. اورد المؤلف سردا لبعض الخرافات و الاساطير المرتبطة بالنهر مع محاولة لتحليلها .و صاغ الكاتب رأيا وجهاً حول موضوع استعراب و أسلمة النوبيين بنقاش المعتقدات الشعبية حول الاصول العرقية و المعتقدات الرانجة. ثم ناقش باستفاضة أهمية الرقم سبعة في اللاهوت النوبي و المسيحي و أهميته في الاسلام و أهميته حاليا عند سكان جزيرة بدين. يستعرض الكاتب كل ما يتعلق بالنخلة و أهميتها في حياة الناس مع تفصيل للكلمات النوبية المتعلقة بزراعتها و استغلالها و رعايتها و ارتباط العرب من غير النوبا بحصاد التمور و بالكتاب وصف دقيق لسوق بدين و سوق كرمة النزل و ما فيهما من طرافة في حقب زمنية مختلفة كانت هي فترات حياة المؤلف في تلك المنطقة. ثم سرد المؤلف وقائع حياة الداخليات و مراحل الدراسة .الإبتدائية في بدين بمدرسة "شَبَّة" و ذكريات المدرسة الثانوية العامة في البرقيق . لقددرس المؤلف المرحلة الثانوية في عبري وحينها كان قد اشتدعوده و انشجذت ذاكرته فلم ترك حتى الشوارد من التسجيل خاصة عندما كتب عن السفر باللواري عبر مناطق النوبة و شمل التوثيق تاريخ التعليم في بدين و سيرة حفظة القرآن و الخلاوي. و بالكتاب وصف دقيق للقباب في بدين مع تأريخ لسيرة ساكنها

من الأولياء الصالحين و تغطية مفصلة للعادات الاجتماعية المرتبطة بصيام رمضان والعبد. يتخلل السرد الممتع فاصل من الحنين ما ينفك يلاقيك وانت تنتقل في صفحات الكتاب . في سرده لتاريخ الممالك الكوشية (اعتراض المؤلف علي اطلاق لفظة "حضارة نوبية" لانها تغتزل تاريخ السودان جغرافيا وعرقيا، ببساطة لأن الامر عنده تاريخ وطن كامل ومترامي الأطراف). وسجل الكتاب شهادات عن لغة او قل لغات سكان جزيرة بدين . ومن اطرف ما في الكتاب سيرة الحمار ذلك الحيوان الذي رافق الانسان خادما له باخلاص و اهميته في حياة سكان جزيرة بدين . بالكتاب أيضا توثيق لمسير بعض الشخصيات المؤثرة في حياة الجزيرة خاصة الذين امتد تأثير بعضهم ليشمل كل السودان. وينهي الكاتب سيرته بكلام في الحنين و افتقاد الوطن في قالب سردي متماسك لا يترك فنانا او شاعر اصيلا صاغ جمالا في دواخل السودانيين .

طه جعفر

مدخل : — كنت وكنا

.....

أنتِ فدين وأنتِ بدين
كان الإسمُ وكنتِ وكنا
إسمِ نوبى ، نصرانى ، وثنى ، أو عربى
كلّ مقبول

فلكلّ فيك حديثٌ وعبرة
لكلّ فيك مقالٌ وإشارة
لكلّ فيك رموزٌ وحضارة ،
لكلّ فيك إماره ،
لكلّ فيك مزار
لكلّ اثرٌ منقوشٌ فيك
لكلّ تذكاز

.....

كنتِ هناك ، وكنتِ بدين
وكنتِ وكنا

منذ خرجتِ عروساً من جوفِ النيل

يا بنت النيل وست الجيل

يا لؤلؤة الوادي ، يا فاتنة سمراء

كنتِ هناك ، وكان الفصلُ ربيعاً

كان الطقسُ جميلاً

حين خرجتِ إلى الدنيا

مُشرقة ، الوجهِ وقاراً ونضار

حين خرجتِ إلى الدنيا طارثٌ نحوكِ كلّ ، الأطيّار

من كل بقاع الحسن . الأخضر . من كل . الأشجار

امتدت نحوكِ كلّ ، الأبصار

حين خرجت الي الدنيا فاح العطرُ العَطَّارُ
عِطْرُ الأرضِ البكرِ، عِطْرُ الأرضِ العذراءِ، عِطْرُ النَوَّارِ
حين خرجت الي الدنيا
غني القمرِي بلحن الحب
زغردت الأشجارُ
رقص الموج علي الضفة
وانتشت الأزهارُ
حين خرجت الي الدنيا
تجمعت السُحُبُ من الأفاق
اشتعل البرق ضياءً
احتفل الرعدُ فدوي
وابتلت أرضك بالأمطارِ
حين خرجت الي الدنيا
هبت نسمايك باردةً، نشوي
أسكرت الخُطَّاب علي طول الوادي
جاء العِرسان: رجالٌ سمرُّ أخيارِ
من مملكة النوبة جاءوا
من تلك الأديارِ
جاءوا يسعون الي أرض الخير المدرازِ
من كرمة جاءوا، جاءوا من كجبارِ
من أرقو، من دلقو، من عبري
من حلفا أرضُ الحجر الناطق بالأسرازِ
جاء بعانخي ، جاء القائد تمهراقا،
جاءت (كنداكة)* ، في (شُوقر) * عزَّ جَرَّازِ
جاءوا في (سِقِر) * نوبي الرِّيس والْبَحَّازِ
عبروا النيل إليك
والقوا فيك عصا التسيارِ

فِي سَاحَتِكَ الْخَضِرَاءِ
أَنَاخُوا قَافِلَةً الْأَحْرَازِ
قَافِلَةُ التَّارِيخِ الْمَوْغِلِ فِي الْأَطْوَالِ
قَافِلَةُ الْمَجْدِ الْعَابِقِ بِالْأَنَارِ
عِنْدَكَ نَامُوا، قَامُوا
عَبِدُوا (أَمُون) * الْجَبَازِ
عَبِدُوا النَّيْلَ خُرَاقِيَّ، الْمَجْرَى وَالتِّيَازِ
عِنْدَكَ جَاءَ كِتَابُ التَّوْرَةِ وَجَاءَ الْإِنْجِيلِ
عِنْدَكَ جَاءَ الْفَرَقَانُ
شَمِلَتْهُمْ رَحْمَاتُ الرَّحْمَنِ
فَصَامُوا، قَامُوا بِاللَّيْلِ، وَصَلُوا فِي الْأَسْحَارِ
فَكُنْتُ بَدِينٍ وَأَنْتَ فَدِينِ
أَنْتَ الْأَصْلُ وَأَنْتَ الْفَصْلُ
أَنْتَ الدَّازِ
أَنْتَ الْقِيَمَةُ وَالْمَقْدَارُ
أَنْتَ بَدِينٍ وَكُنْتُ فَدِينِ
وَكُنْتُ وَكُنَّا

.....

* (كَنْدَاكَةُ) لِقَبِ مَلَكَاتِ النُّبُوَّةِ.
* (شُوقَزُ) يَعْنِي سَيْرَةُ (سَيْرَةُ الْعَرِيسِ).
* (سِقِرُ) بِكَسْرِ السِّينِ وَالْقَافِ يَعْنِي مُرَكَّبُ شَرَاعِي.
* (أَمُون) اسْمُ إِلَهِ النُّبُوَّةِ وَالْمَصْرِيِّينَ الْقَدِيمِ.

١ .

بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرَّيُّ :::: وما أَحْسَنَ الْمُصْطَلَفَ وَالْمُتَرَبِّعَا
وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْجَمَى ثُمَّ أَتُنْفِي :::: عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصُدَّعَا
فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْجَمَى بِزَوَاجِعٍ :::: عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنَيْكَ تَذَمُّعَا
سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا فَمَا هِيَ رَاحَةٌ :::: إِذَا لَمْ يَكُنْ شَمْلِي وَشَمْلُكُمْ مَعَا
الصُّمَّةُ الْقَشِيرَى

نعم، هكذا تركتُ عيني تدمع، وتركت قلبي يدمع، وتركت قلبي يدمع، علي تلك الأرض، ما أطيبها ربي، وما أحسنها مصطافا، جزيرة بدين، مسقط الرأس، ملاعب الطفولة ومراتع الصبا، غبت عنها، وعدت إليها بعد عشرين عاماً . ولما وطنت قدمي أرضها أحسست وكأنني ولدتُ للتو، غمرني دفي العشيرة، وطاف في ذهني ذكريات الطفولة والصبا . إستعدت مع بعض أندادي أيام الخلوة ومراحل التعليم الأولى، في فرحة طفولية جلسنا نحكي . خرجتُ أصواتنا مشحونة بالشجن والحنين . كان كل واحد منا يجد نفسه في حديث الآخر . طففتُ بالبلدة أتحمس أماكن عزيزة . وقفتُ علي شاطئ النيل كما كنتُ أفعل . سيطر علي شعور حزين ومؤنب . كم كنت قاسياً عندما غبتُ كل هذه المدة عن بدين وأهلها . تغير الكثير من معالم البلدة . عشرون عاماً . لم يعد المكان هو المكان ولا الزمان هو الزمان . ولكن بدين هي بدين . يارضها وسمائها . بليها ونهارها . بشمسها وقمرها . بأهلها الثابتون كالنخيل . كانت بدين هناك، دائما كانت هناك، حيث هي . منذ أن خرجتُ من جوف النيل . متى؟؟ مالنا ومتى . كيف جاء إسمها؟ لا ندرى، المهم جاء إسمها وكان فدين أو بدين، وكانت وكنا، هناك خرجتُ من جوف النيل . عروسا كاملة الزينة، حورية شاملة الجمال، زينتُها الطبيعة . زفهاً ملائكة النيل بالعديل والزين، في ثوب زفاف أخضر طيب، ثم تركوها في حضن النيل، وأي حضن كحضن النيل. تمددت هناك محاطة بالماء من كل جانب، وأي نعمة كالماء . توسدت صخور الشلال الثالث شمالاً وتمددت نحو الجنوب بضعة أميال. إستلقت هناك علي بعد حوالي خمسة وثلاثون ميلاً شمال مدينة دنقلا. إكتملت أنثي خصبة، بكرا، ولودا، ترنو بعين حسناء الي أبوقاطمة وكبرنارتي وكرمة ووادي خليل شرقاً، وتنظر إلي مقجور وأكد والحفير غرباً، وهم يتغزلون في جمالها الخلاب، دخل عليها إخوان بيا (بعانخي) وتبارقا، وألقوا رجالهم في ساحتها الخضراء. حضنتهم بصدر أم رؤوم، أعطتهم الأمن ووهبتهم الأمان، أرضعتهم الطبيعة وسقتهم الحنان، فسكنوا في مودة ورحمة، وتوالدوا عندها، عاشوا مطمئنين سعداء، مارسوا حياتهم في ظل وثنية أو حنيفية، من يدري!! جاءهم دين موسى فقبلوه، جاءهم دين عيسى فعاشوا عليه دهوراً، حتي جاءهم الإسلام فاهتدوا به بعد أن عقدوا مصالحة بينه وبين عاداتهم وتقاليدهم القديمة، وما تزال بعض تلك العادات الهجين سارية وقيد الممارسة إلى يومنا هذا، وما زلنا نذكر طقوس الولادة والسماية والختان والزواج، ميراث أجيال وأجيال، منذ فجر التاريخ، طقوس عبادات متراكمة، حضارة إنسانية تعايشت فيها الوثنية والنصرانية والإسلام.

سارت عملية التكاثر علي فطرتها السهلة. تحمل النساء وتلدن في بساطة. لم يكن هناك طبيب ولا جدول شهري ولا أسبوعي للمراجعة. لا أجهزة ولا سقاعات ولا موجات صوتية ولا بصرية. لا بنج ولا تعقيم ولا مضادات حيوية ولا يعززون. عندما يحين موعد الولادة تصرخ المرأة وتولول بطريقة معينة فتجتمع حكيماات الحي قرب سريرها مع الداية البلدية. التي تعرف ما عليها. وعلي دراية فطرية تامة بكل تعقيدات العملية. ورغم الصعوبة في التوليد بسبب خضوع نساء أجيال متتالية للطهارة (الختان) الفرعونية اللعينة. إلا أن العملية كانت تتم بدون نتائج كارثية في الغالب. فيخرج الطفل إلي الدنيا صارخاً في وجهها ووجه من فيها. يحدث ذلك دون الخضوع لكل الإجراءات الطبية المعقدة التي رأيناها لاحقاً في بلاد الله. والتي توصف ب "المتحضرة". أثناء الولادة كانت الأم تمسك بحيلين أو فرعين من السعف (جريد النخل) تعلق في السقف فوقها. كانت الولادة تتم بطريقة بدائية في غرفة بلدية بأدوات بلدية. هكذا ولدنا. أما أبنائنا الأعزاء فقد ولدوا بطريقة أخرى. في مستشفيات عالمية من الدرجة الأولى. في غرف فيها من الأجهزة الحديثة ما لوراها أجدادنا وجداتنا لأصيبوا بالذهول الدائم. وهنا يحضرني موقف طريف. فأحد هؤلاء الأبناء هو (طلب) أو طلوبي كما يحلو للأسرة أن تناديه. وهو ابن أختنا وصديقنا العزيز الصادق فرحان. وقد ولد طلوبي في إحدى مستشفيات تورنتو الراقية. ونشأ في هذه المدينة الساحرة مستمتعاً بترف الحياة فيها. وفي سنواته الأولى أصبح مولعاً بالحيوانات حد الهوس. فما أن يرى حيواناً في التلفزيون أو في أفلام الأطفال حتى يقفز ويتقلد شخصية الحيوان. ومن كثرة مشاهدته للحيوانات أصبح يجيد تقليدها بصورة مذهلة وطريفة. ثم تطور موهبته في التقليد فيما بعد فأصبح يقلد الناس بنفس الطريقة. وكان للفيل نصيب الأسد من إعجاب طلوبي. ثم لما علم أن كل أنواع هذه الحيوانات موجودة في أفريقيا فقد ترسخ في ذهنه أن أفريقيا ليست إلا غابة كبيرة يسرح فيها الحيوانات في الشوارع جنباً إلي جنب مع النبي آدم الأفريقي المتخلف. وحينما بلغ طلوبي من العمر الخامسة عشرة قررت الأسرة السفر إلي السودان. وما أن علم طلوبي بذلك حتى هلل صانحاً بمجموعة من أصوات الحيوانات. معبراً عن فرحته الغامرة بغزو أفريقيا واكتشاف مجاهلها المثيرة. وهكذا أخذ طلوبي في تهينة نفسه لرحلة العجائب والغرائب. وفي اليوم التالي من معرفته بالسفر ذهب إلي المدرسة وتبغثر بين أصحابه ناشراً للخبر بإنجليزية فصيحة لا تأتيا العربية ولا الرطانة من بين يديها ولا من خلفها. وأصحابه يتساءلون في دهشة :

(Really ? You are going to Africa? WOW!! That is cool)

وطلوبي كغيره من أبناء المهاجرين لا يعرف عن أفريقيا إلا ما يشاهده في برامج التلفزيون. والتلفزيون لا يعرض من أفريقيا إلا الحيوانات ومناظر الكوارث والجفاف والتصحر والناس الذين يموتون جوعاً. ذهب طلوبي إلي السودان. وبعد أيام قضائها في الخرطوم سافر إلي البلد. إلي الحفير. وهناك طاف به عمه معرقاً إياه بأهل البلد ومعالمها. من هذه المعالم بيت عتيق مهتمد مهجور. كان يوماً ما عرين أسد حصور. يحابه الغادي والرائح. وقف طلوبي على أطلال قصر جده متعجباً. فقال له عمه يا طلوبي : أبوك مولود هنا. في البيت ده. فقال طلوبي على الفور:

(دا كان Hospital؟) . جزاك الله عنا يا طلوبي . (ده ما كان هسبتال) . كان بيتاً عامراً لرجل كريم مضيف . بيت وُلد فيه رجال ونساء . نشؤوا وتربوا وتعلموا ، ولما ضاقت بهم الحياة ، ولما كانت أرض الله واسعة ساروا في مناكها ياكلون من رزقه . هكذا رمت الأقدار بوالديك في تورنتو . فوُلدت ولادة (محنكشة) . أما عندنا فقد كان الأطفال يولدون (ولادة حبل) . ورغم بدائية العملية كان الطفل يولد ويستمر في النمو سليماً معافى . لا سميلاك ولا سيريلاك ولا داير . لا تايلنول ولا تطعيم ضد الشلل او التايڤويد أو ... أي شئ . كل الذي كان متوفراً من مستحضرات الطب الحديث شئ يسمى (ماء غريب) وكان غريباً فعلاً . علاج سحري لكل أمراض الأطفال ، رغم إنتهاء صلاحيته قبل زواج الأب والأم بكثير.

أشرتُ في المقدمة وأعيد الإشارة هنا إلي أن بعض الفقرات منقولة من عدة منتديات نوبية بتصرف . وذكر هذه المنتديات أو الإشارة إليها بإسمها صعب لسببين . أولاً لكثرتها . وثانياً لأن المعلومات متفرقة فقامت بإضافة بعضها إلي بعض . وهي في النهاية لا تخرج عن كونها معلومات شعبية متداولة بين الناس . منها ما عايشناه ومنها ما كان قد انقرض قبل جيلنا . وهذه الإشارة لتثبيت الحق الأدبي لمن نقلتُ عنهم وأخذتُ منهم.

أكثر ما كانت تقوم به المرأة النوبية قديماً . أثناء فترة الحمل . والحامل تسمى (جُنْتي) (Junty) . هي الزيارات الدائمة لنهر النيل . للتبرك بمائه المقدس . ولإلقاء بعض الهدايا للآنكة النهر (أنقلسرى Angelesry) ... هل تسمع ثمة صدئ لكلمة angel التي تعني "الملاك" في العديد من اللغات الأوروبية؟ وتذكر أن ديار النوبة ظلت مسيحية لفترة طويلة بعد دخول الإسلام . وكانت هذه الزيارات تتقارب وتكثر في الشهر الأخير من الحمل . وكانت تلك الهدايا تتمثل بصورة أساسية في العصيدة ال (قري) تحملها الى النهر مع الصباح الباكر . وتلقاها فيه . متمنية أن يحقق لها ذلك ولادة سهلة ميسرة . أما إذا تعثرت الولادة فكانت النساء تستغيث بـ (ماريا) (السيدة العذراء) في إبتها بالغة النوبة . وكان يُطلب من الزوج الابتعاد من البيت . ومن الإعتقادات التي كانت تسود عالم الحمل والولادة قضية طائر الشؤم (البومة) والتي كانت تمثل خطراً كبيراً على الحامل وطفلها . إذ كانوا يعتقدون أن في مقدور البومة إسقاط الجنين بالتحليق فوق رأس الأم . ولتحتفظ المرأة نفسها كان عليها أن تضع قطعة معدنية (إبرة أو دبوس) في شعر رأسها ليكون حاجباً بينها وبين البومة ، ولهذا الحقد الذي تكنه البومة على المرأة الحامل جذور في الأساطير النوبية إذ يقال إن البومة كانت في الأصل بنتاً إسمها (فانة) ولم يتقدم لها أى شاب حتى فاتها الركب . وذات مرة . وهي في حزنها من عدم تقدم الخطاب لها ضربتها أمها بعود . فإنقلبت في الحال الى طائر (البومة) الذي نراه اليوم . ومنذ ذلك الوقت تكره البومة عنصر الرجال . لأنهم لم يتزوجوا . ولذلك فإنها تحاول إسقاط الجنين من الأرحام حتى لا يرزق أحد بولد . وكان يُعتقد أنها تتحين الفرص لإرضاع الطفل الذكر في غياب أمه . لذا اعتاد الناس على تعليق أوراق العُشر في سقف الحجرة . ولا أدري ماذا كانت الحكمة من وراء ذلك . فالبومة تعيش أصلاً فوق أغصان أشجار العُشر . ولا تخرج إلا بعد صلاة العشاء . وكانوا يسمون الإنسان الغشيم الذي لا يعرف الوقت بـ (بومة العشي).

بعد الولادة مباشرة كانت الداية وبعض النساء اللاتي تواجدن اثناء الولادة، يذهبن الى النهر. وتحمل احدى القربيات الحجارة التي جلست عليها الأم (كانت الولادة تتم في وضع الجلوس على قطع حجرية ملساء كبيرة نوعا ما) والرمال التي سقطت عليها دماء الولادة وسبع تمرات والمشيمة، ثم يلقين تلك الأشياء في النهر. وكان الغرض من إلقاء الحبل السرى (المشيمة) في النيل في حضور نساء القرية اللاتي يشهدن الحدث هو منع أى امرأة تعاني من العقم من سرقة الحبل السرى واستعماله في تعويذة تعيد لها الخصوبة وتحرم الأم منها . وفي بعض الحالات كان الأب يأخذ المشيمة وهي في النوبة تسمى (سين) كان يأخذها ويدفنها في المزرعة . إذا كان المولود ولداً، أما إذا كانت بنتاً ، فتدفنها الأم في المطبخ (التكل) (إيقن شا) . وفي مرحلة متقدمة أصبحت المشيمة تدفن في المسجد تفاولاً بأن يتعلق الطفل بالمسجد.

كانت الأم ترقد في المنزل (في غرفة خاصة) مع مولودها ولا تخرج منها ، كانت تلك الغرفة تسمى (مارين نوق) يعني بيت ماريا ، في إشارة إلى مريم (العذراء) ، والتسمية فيما تخوف ضمني. إذ توحى بـ "قدسية المكان". لتخوف النساء من ممارسة أي من (أعمال) الشر التي تضر بالأم أو المولود. وكانت هناك أشياء خاصة بهذه المناسبة توضع بجوارها وتحفظ في إناء نحاسي كبير يوضع بالقرب من سرير الأم. كانوا يضعون في هذا الإناء روائح وحنة . وكحلا . وسكرا. وماء . وسكينا وشينا من البلع والقمح والقرظ (القرض). وهو ثمرة شجر السنط. وقطعة حديدية. كما يوضع إناء به زيت وقطن مشتعل. وعند إرضاع الطفل كانت الأم تضرب ذلك الصحن النحاسي بالمكحل حتى يصدر رنيناً ثم بعد ذلك تعطى ثديها للطفل ليرضع. وهذه الأشياء لم تكن تزاح عن مكان رقاد الأم النفساء إلا بعد الأربعين. أي مرور 40 يوما على الولادة . وعادة ما كان الإحتفال بالاسبوع. أي إكمال المولود لسبعة أيام – وهو اليوم الذي يتم فيه اختيار اسم للمولود – حافلا بالطقوس والمراسيم. إذ تذبح الذبائح وتقام الولائم. ويسمى ذلك اليوم في السودان الأوسط "السماية" ويسميه النوبيون (كُلْدن أُنْ) وكلد colod في النوبة تعني "سبعة". و(أُنْ) يعني يوم. ك (بلين أُنْ) يعني يوم العرس. (قوشن أُنْ) يوم الثلاثاء. ولكن عند النطق يدمج النون والألف فيبيقي (كُلْدنق) وأسماء الأيام عند النوبيين هي :-

السبت : سَنِي . Sante (هل تسمع صدى لكلمة سينت "القديس" اللاتينية؟)

الأحد : كِرْزِي . Kirege (وباليونانية كركاي ويجدر بالذكر ان الكنيسة النوبية كانت قبطية وان اللغة النوبية كانت تكتب بالحروف القبطية أي اليونانية القديمة)

الاثنين: فوش . Foosh

الثلاثاء: فوشنوقو . Foosh nugu

الأربعاء: فوشنباقي . Foosh nabag

الخميس: ميسقو دب . Missogo dip

الجمعة: ميسغو. Missogo (ميسي في اللهجة النوبية الشمالية هو "الصوم" ويوم الجمعة هو يوم الصوم عند الأقباط)

كان النوبيون يعتقدون ان يوم الأربعاء يوم نحس . وكان هناك يوم في السنة يسمى (أربها مَري) يكون يوم أربعاء. كان يوماً غير محبوب، يتشاءمون منه كما يتشاءم الأفرنج من الرقم (13). وكانوا يمنعون الأعراس في هذا اليوم. ولا يمنعون الحليب أو أي من مشتقاته ، ولا يتداولون الأشياء بينهم . ولا يغسلون الملابس، ولا يمارسون الزراعة ولا الحصاد. والـ (مَري) هو الكعب أو السئ. و(كديس مَري) هو الكديس الذي يعض أو يؤذي. وأكثر أيام الأربعاء شؤماً كان ذلك الذي يأتي بعد اكتمال دورة القمر ويسمى "أربها أون أباق" Oon abag

، كما أن يوم السبت يسمى (سبت جز مري) ومعناه اليوم الذي يقطع الظهر (جر)، والغريب أن يوم الأربعاء كان يوم شؤم عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . وهو أيضاً يوم شؤم عند بعض الشعوب الأوروبية.

كانوا يفضلون يوم السبت لبداية إرضاع الطفل. وبعد الإحتفال بالسيوع. ومع بداية أول هلال من الولادة كانت الأم تحمل المولود وتقفز فوق النار سبع مرات. وتخرج لمشاهد الهلال. وتنثر الماء نحوه مع الدعوات والإبهالات، ثم تتخطى بخوراً يتكون من سبعة رؤوس من الشوك. وقليلاً من القرظ/القرض. وورق البصل. وقليلاً من الملح. وتتخطى هذا البخور سبع مرات وهي تحمل المولود. وفي حالة عجزها عن ذلك. تقوم امرأة أخرى بتلك الطقوس نيابة عنها تجنباً (للمشاهدة). وأول هلال من الولادة هو الهلال الذي كان يتعلق به مفهوم

(المشاهدة). ولا أعرف ما إذا كانت هذه الكلمة نوبية المنشأ أم لا لكونها مستخدمة في أنحاء السودان الناطقة بالعربية. والإصابة بالمشاهدة هي أن تصاب العروس (نُقدو) أو البنت المختونة/المطهرة (برؤ مَري) أو المرأة النفساء (إدين أنادافي) وطفلها (يتان) أو (أسر) الي الأذي الذي يلحقهم نتيجة الإخلال ببعض الطقوس التي يجب مراعاتها، وهذه الطقوس هي أن لا تتعامل أو ترى أيًا من هؤلاء .:

1. من رأي جنازة 2. من رأي دماً 3. من قتل عقرباً

وإذا كانت هناك وفاة . كانوا يصرون على العريس الذهاب ورؤية الجنازة . وبذلك يمنع الباقين من "مشاهدة" عروسه . وكان من غير المسموح لمن رأى دماً أو جنازة. أن يدخل على العريس أو العروس. ومن نتائج الإصابة بالمشاهدة حدوث نزيف للمرأة النفساء. أو جفاف لبنها. أو إصابتها بالعقم بعد ذلك. أو إصابة الطفل بأمراض خطيرة. أو إصابة العروس بالعقم. أو الجنون. أو حدوث عدم وفاق في الزواج. أو إصابة البنت المطهرة بالتهاب الجرح. وكان علاج المشاهدة يتم بالآتي:

وكما في كل المعتقدات البشرية عبر التاريخ الإنساني. يتعلق الأذى بكانتات شريرة، وتنوع وتداخل طقوس إرضاء هذه الكائنات والفكاك من أذاها حسب تقييم الجماعة الشعبية المعنية للأذى وطريقة العلاج. وفي المشاهدة إذا كان المتسبب ممن رأى جنازة. يأتون بتراب من فوق القبر الذي دفن فيه الميت. ويناد هذا التراب في ماء ثم تستحم به المصابة. أو تغسل المصابة بالصابون الذي تم غسل الميت به. وإن لم يُعثر على نفس الصابون. فبصابون متوفٍ

أخريتم تسريبه من وراء ظهور أهل المتولي، ولذا كانت المشاهدة لسبب آخر تنزل المصابة في الصباح الباكر. أو بعد أذان المغرب. إلى النيل. ترافقها امرأة كبيرة السن. تحمل مبخراً وسبعة رؤوس من مسوح. وتقف المصابة بالمشاهدة فوق المبخر. وتستنشق الدخان المتصاعد. وحبوب ذرة. ثم تشعل المرأة النار في المبخر. وتأخذ من مائه بإناء. وتقسل وجهها فوق المبخر. بشرط أن تتساقط ذرات الماء من وجهها على المبخر حتى تنطفئ النار. وتعالج المشاهدة أيضاً بتخطي ثعبان يتم قتله وبالإستحمام في البيت مع وضع قطعة ذهب تحت القدم، وبعد إحتفالات السبعون تتوجه الأم وبصحبتها الفتيات الصغيرات والداية وبعض القربيات إلى النهر. وتقوم الأم بالقاء سبعة قطرات من العطر/الريحة. وكمية من الحنة في النهر. وبعدها يتم وضع الكحل في عيون المولود. وعند العودة إلى المنزل تملأ بعض الأواني بماء النهر. ليسكب هذا الماء في حجرة الوليد لكي تباركه وتصاحبه ملائكة النهر طيلة الأربعين يوماً التي تمكث الأم فيها في المنزل. وبنهاية "الأربعين". تتم زيارة النهر مرة أخرى فتغسل الأم وجه الطفل وبنيده ورجليه بماء النهر (هل تسمع هنا صدى التعميد الكنسي؟) ثم تملأ سبعة جرادل من الماء لتأخذ الأم (حمام الأربعين) وكانت الأم تسكب الماء أربعين مرة فوق جسدها لكي تنظف. وكانت تتلقى بعض النساء، اللاتي لم يحالفهن الحظ في الحمل. بعض من هذا الماء. كهدية من الأم. على أمل أن يحالفهن الحظ بعد ذلك. وفي بعض القرى كانوا يستدعون طفلاً حسن الأخلاق. ويطلبون منه أن يمضغ بعض التمر ثم يمس شفة الوليد بلسانه. أملاً في أن تنتقل إليه الأخلاق الحميدة مع حلالة البلع. ويقال أن هذه العادة في الأصل سنة فعله الرسول (ص). وفي اليوم الأربعين كانوا يذهبون إلى قبة/ضريح "الشيخ" وهم يحملن الطفل وقراصة (قرص سميك يصنع من عجينة دقيق القمح بالسمنة) لها سبعة قرون. يسمونها "كرامة أو نذر". ويتركون بتراب القبر ويتوسلون بالشيخ أن يحفظ طفلهم من شرور الإنس والجن. ودائماً ما كانت هذه الإحتفالات تنحصر على النساء والأطفال. ولا يشارك الرجال فيها. أما الأم فكانت لفترة طويلة تتمتع بعناية جميع نساء الحي. ومن ناحية غذائية كانت الأم تعتمد على الـ (فنتي قري) وهي عصيدة مركزة من البلع. أو الـ (كزمن قري) وهي عصيدة الحلبة. أما الزوار فكان يقدم لهم شئ يسمى (الأسلي) يتكون من بلع مع قمح و(كوشي) مقلين علي النار. ولا أعرف للكوشي اسماً بالعربية وهي من الحبوب التي تنتمي إلى عائلة الشعير.

والغباء، ويشتمها بأقذع الألفاظ ، ويضربها ضرب غرائب الإبل، كان يفعل ذلك رغم أنه لم يكن بليداً ولم يكن يجلد (كثيراً) . والجلد المؤذي كان شائعاً في المدارس ، وكان هناك من المدرسين من يمارس الجلد كعقوبة ، ليس لأن التلميذ يستحق الجلد إنما لأن المدرس كان يستطيع أن يجلد ، فلا معنى إطلاقاً لجلد التلميذ 20 و30 و40 جلدة ، هذه الطريقة العبيطة في العقاب كانت من الأسباب المباشرة التي دعت الكثير من التلاميذ لترك المدرسة والهروب من البلد ، ولا أدري ما إذا كان أسلوب الجلد هذا متبعاً حتى الآن ، أتمنى أن يكون قد إنتهى.

وعلى كل ففاروق أيضاً لم يغترب، إستقر في الخرطوم، منتقلاً من عمل الي آخر، إكتفى من الدنيا بالقليل، فعاش في هدوء وقناعة ، أما الصديق الأقرب فقد كان الأخ فضل عبدالمطلب فضل، أخ لم تلده أمي ، كان يأتي في البيت فأقوم بتوصيله إلي بيتهم، فيقوم هو بتوصيلي إلي بيتنا، وهكذا حتي ينتصف الليل، إفترقنا بعد مرحلة الثانوية العامة، ولكن إستمرت صداقتنا، سافر إلي العراق حيث درس المرحلة الجامعية، ثم إجتمعنا في السعودية، وتركناه هناك وهاجرنا، وهو رجل يحمل قلباً كبيراً، ثم أذكر علي محمد إبراهيم، كان صديقاً مقرباً، إفترقنا بعد البريق، ولم أقابله بعد ذلك إلا مرة أو اثنتين، أين أنت الآن يا علي؟ كلهم تزوجوا وخلفوا وعاشوا في أمان، أبقاهم الله حتي يكملوا مشوار التربية الصعيب.

أعود الآن الي مراسم الزواج وما كان يتبعها من أمور، كان هناك نوع من الأعراس طريف، كان اسمه (تُوقِنْ بلي) والترجمة الحرفية (عرس الريح)، وكان عرساً كاذباً، بدون عريس ولا عروسة، إحتفال تقوم به امرأة ليست لديها أولاد أصلاً، أو ليست لديها أولاد في سن الزواج، وهي تقوم بهذا إحتفال لتجمع من الناس مقابل عطاياها التي شاركت بها في مناسباتهم.



لتجمع ما دفعته في الكشوفات، وتسمي تلك المساهمات (كسي) بفتح الكاف، أو (كري) والكسي نادراً ما كان يكون في شكل مبلغ كاش، فقد كانت المساهمات عينية، ديك او دجاجة او ملووة قمح مع زجاجة سمن بلدي(مسلي) ، تحمله المرأة في (كُنْثِي) وهو طبق عميق او مسطح منسوج من سعف النخيل، ومقابل هذه المساهمة تعود المرأة إلي بيتها بقدر بسيط من اللحم يسمي (أود) ، ومن العجائب ان كل امرأة كانت تحفظ تماماً كل (الكسيهات) التي اعطتها

للأخريات، واذا تأخرت واحدة عن الحضور، أو لم تحضر الكسي تقوم ملاسنة أعجمية نوبية رهيبة، تسمع فيها العجب العجائب، ولم يكن الزواج مكلفاً، كان المهر (الشيلة) تتمثل في أشياء محلية بسيطة، ويوم العقد كان يتم تقديم التمر والكعك للضيوف علي صحون نحاسية تسمي (السلم).

وقديماً وقبل وصول الطاحونات الحديثة ، كانوا يطحنون الحبوب يدوياً، في عملية مضنية وطويلة ، ولك أن تتخيل الكمية التي كان



و(بوشى) و(قرى) و(دكشو) و(تنقى) و(أفلخ) وهذا الأقل هو أكثر انهاء الاسماك قابلة للمدقوع في السنارة، وهي سمكة صغيرة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فكنا نعيدها إلى الماء . وكان لمحي الدين مواهب عديده، فقد كان عدداً وكان يجيد (نط الحبل) وكان بارعا في صناعة عربات الصفيح . ومن خلال نظارته الطبية التي إضطر اليها منذ الصغر، كان (يشربك) نفسه في أعمال دقيقة، وعندما كبر أخذ يعمل في تصليح الساعات وأجهزة الراديو والمسجلات، ثم كان من أوائل من إفتتحوا أستديو للتصوير في بدين. رجل نبيل ووديع. صبور علي الدنيا، فنوع بما تجود به عليه، إستقر به المقام في البلد، ولم يحاول الإغتراب الذي كان هاجس الجميع، والذي أضعنا فيه عمراً كان جديراً أن نقضيه في البلد، ولكن أراد الله غير ذلك، وما زال يكافح وينافح في البلد، تاجر ومزارع، يتدبر أمر نفسه وأسرته في صبر جميل، ومن دفعني في العي، وزملائي في المدرسة أيضاً، أخي محمود محمد طه، كان عاقلاً بالميلاد، فيه من حكمة والده الكثير. قضى جل وقت الطفولة مع والده الشيخ محمد طه، وفي عمر مبكر تعلم أصول الحساب ومسك الدفاتر، ووالده كان من تجار البلد المعترين، ومن حفظة القرآن، مؤتمناً من جميع أهل البلد، كانت الأسر تأخذ حوجتها من دكانه بالدين، "تحت" الحساب، وكان له طريقة معينة في تسجيل هذه الديون، طريقة فيها دقة كبيرة وأمانة بالغة، وكان يكتب ويوقع بخط مميز، وكنا نتعجب كيف أن محموداً تعلم طريقة والده في الكتابة والتوقيع بذلك التشابه، إغترب في السعودية وما زال، ومنهم أخي تاج السر عكاشة، الذي كان يهوى السباحة، ويعشق كرة القدم، أما في الكشيتية، فلم يكن يقبل الهزيمة، إذا غلب يلخبط ويخبط ويخرخر، يكسب الجولة ويستمر في اللعب، حتي لو إستبدل زميله، وربما لم يكن من قبيل الصدف أن يتخرج من كلية الحقوق، ويحاول مهنة المحاماة، لم يغترب، إستقر في الخرطوم، حياه الله عقلاً راجحاً ونفساً مطمئنة، يمد يد العون لهذا وذاك، يسعى في مصالح الناس بماله ووقته، ومنهم أخي الجزولي سعدالدين، الذي زاملني من الخلوة الي الثانوي، كان من ظرفاء الشلة، ذوروح مرحة ، ساخر أحياناً ، لم يكن مشاعياً، كان حريصاً علي سلامته الشخصية ولم يدخل نفسه في متاعب الأطفال الكثيرة، كان يلزم البيت بعد الغروب ، دخل الحياة العملية تاجراً، كافح في التجارة كفاحاً مستميتاً، ينتقل بين بدين والخرطوم، وبدين ووادي حلفا، عمل شاق وممل، حالفه الحظ مرات وخذله مرات أخرى، إغترب لمدة قصيرة نسبياً، ثم عاد، وأخذ سيرته الأولى، والعود أحمد يا صاحبي، ومنهم أخي فاروق عبد القادر، الذي كان أطولنا، ورغم أن الطول عز كما يقولون، إلا أننا كنا نلندر بطوله، كان حريفاً في الكشيتية، يدمن التبغ المعروف عند النوبة بالقامشة، كان يأتي بالقامشة ويصفها من الشوانب، ويحتفظ بالشوانب، وعندما لا يجد شيئاً من القامشة يعود الي تلك الشوانب ويطحنها في ال (جُو) بتلك الطريقة البدائية، ثم يرميها برمة محترق حريف، يشعلها بولاعة أو كبريت أو جمره، كما إتفق، وينفث دخانها في السماء وكأنها بنسون أو روثمانز أو برنجي، وكانت له هواية غريبة، وهي (جلد) المساطب والأشجار، بين المدرسة والبيت كان يحمل عصا طويلة يجلد بها المساطب أمام البيوت، وكانت مسطبتها المفضلة في بيت مهجور غرب الجدول، قرب كبري قبة، بين (قبة) و(تورن مار)، هناك كان يقف شامخاً كالمدرسين، يلقي الدرس علي المسطبة المسكينة، ثم يقرر أن المسطبة لم تفهم الدرس، ويتهمها بالبلادة

والغباء، ويشتمها بأقذع الألفاظ ، ويضربها ضرب غرائب الإبل، كان يفعل ذلك رغم أنه لم يكن بليداً ولم يكن يجلد (كثيراً) . والجلد المؤذي كان شائعاً في المدارس ، وكان هناك من المدرسين من يمارس الجلد كعقوبة ، ليس لأن التلميذ يستحق الجلد إنما لأن المدرس كان يستطيع أن يجلد ، فلا معنى إطلاقاً لجلد التلميذ 20 و30 و40 جلدة ، هذه الطريقة العبيطة في العقاب كانت من الأسباب المباشرة التي دعت الكثير من التلاميذ لترك المدرسة والهروب من البلد ، ولا أدري ما إذا كان أسلوب الجلد هذا متبعاً حتى الآن ، أتمنى أن يكون قد إنتهى.

وعلى كل ففاروق أيضاً لم يغترب، إستقر في الخرطوم، منتقلاً من عمل الي آخر، إكتفى من الدنيا بالقليل، فعاش في هدوء وقناعة ، أما الصديق الأقرب فقد كان الأخ فضل عبدالمطلب فضل، أخ لم تلده أمي ، كان يأتي في البيت فأقوم بتوصيله إلي بيتهم، فيقوم هو بتوصيلي إلي بيتنا، وهكذا حتي ينتصف الليل، إفترقنا بعد مرحلة الثانوية العامة، ولكن إستمرت صداقتنا، سافر إلي العراق حيث درس المرحلة الجامعية، ثم إجتمعنا في السعودية، وتركناه هناك وهاجرنا، وهو رجل يحمل قلباً كبيراً، ثم أذكر علي محمد إبراهيم، كان صديقاً مقرباً، إفترقنا بعد البريق، ولم أقابله بعد ذلك إلا مرة أو اثنتين، أين أنت الآن يا علي؟ كلهم تزوجوا وخلفوا وعاشوا في أمان، أبقاهم الله حتي يكملوا مشوار التربية الصعيب.

أعود الآن الي مراسم الزواج وما كان يتبعها من أمور، كان هناك نوع من الأعراس طريف، كان اسمه (تُوقِنْ بلي) والترجمة الحرفية (عرس الريح)، وكان عرساً كاذباً، بدون عريس ولا عروسة، إحتفال تقوم به امرأة ليست لديها أولاد أصلاً، أو ليست لديها أولاد في سن الزواج، وهي تقوم بهذا إحتفال لتجمع من الناس مقابل عطاياها التي شاركت بها في مناسباتهم.



لتجمع ما دفعته في الكشوفات، وتسمي تلك المساهمات (كسي) بفتح الكاف، أو (كري) والكسي نادراً ما كان يكون في شكل مبلغ كاش، فقد كانت المساهمات عينية، ديك او دجاجة او ملووة قمح مع زجاجة سمن بلدي(مسلي) ، تحمله المرأة في (كُنْثِي) وهو طبق عميق او مسطح منسوج من سعف النخيل، ومقابل هذه المساهمة تعود المرأة إلي بيتها بقدر بسيط من اللحم يسمي (أود) ، ومن العجائب ان كل امرأة كانت تحفظ تماماً كل (الكسيهات) التي اعطتها

للأخريات، واذا تأخرت واحدة عن الحضور، أو لم تحضر الكسي تقوم ملاسنة أعجمية نوبية رهيبة، تسمع فيها العجب العجائب، ولم يكن الزواج مكلفاً، كان المهر (الشيلة) تتمثل في أشياء محلية بسيطة، ويوم العقد كان يتم تقديم التمر والكعك للضيوف علي صحون نحاسية تسمي (السلم).

وقديماً وقبل وصول الطاحونات الحديثة ، كانوا يطحنون الحبوب يدوياً، في عملية مضنية وطويلة ، ولك أن تتخيل الكمية التي كان



يجب طحنها لتكفي مناسبة زواج. كانوا يستعملون آلة حجرية تسمى (أرشي) أو (رحي) والرحاية كما هي واضحة في الصورة السابقة (من متحف كرمه) فكرتها بسيطة. يؤتي بحجرين كبيرين مدورين. واحد أصم والآخر به فتحة نافذة في المنتصف. تثبت خشبة صغيرة في وسط الحجر الأصم ويوضع فوقها الحجر الآخر الذي به فتحة في المنتصف فتخرج الخشبة الصغيرة بتلك الفتحة. تم تثبت خشبة طويلة بعض الشيء في طرف الحجر العلوي. وتوضع الحبوب المراد طحنها في تلك الفتحة ثم يدار الحجر الأعلى باستمرار عن طريق الخشبة الفوقية. فيتم طحن الحبوب. وبعد وصول المطاحن الحديثة كانت الرحاية تستعمل في طحن الحبوب الأخرى غير الذرة والقمح. وكانت هناك طريقة أخرى لطحن الحبوب بدرجة ناعمة. وهي طريقة إستعمال (الجو)، الذي كان يسمى في السودان الأوسط "المراكة". وهي حجر كبير مقعر توضع عليه الحبوب ويستعمل حجر أملس صغير لهرس الحبوب وطحنها



وصولاً إلى النعومة المطلوبة، والحجر الصغير تسمى الـ (جون تود) أي الجو الصغير، تظهر في الصورة الرحاية والجو والجونتود والعنقريب والكبي الصغير المعلق في الشجرة.

والذهاب إلى الطاحونة لطحن الحبوب كان برنامجاً مملأً لا يحبه الصبية. وكان يمكن لأي امرأة في الحي أن تكلف

أي صبي للذهاب إلى الطاحونة. وكان هناك نظام دقيق متبع في طاحونة "مشروع شبة وتشي". قام عليه لفترة طويلة عمنا سعيد هاشم رحمه الله. فكان يحمل دفتره ويجلس تحت شجرة نيم قرب الجدول الرئيسي بجانب الطاحونة. ويسجل أسماء الواردين حسب وصولهم. ثم تبدأ الطاحونة بطحن القمح أولاً، أما من يريد طحن الذرة فكان عليه الانتظار حتى النهاية. وكان الناس يتسابقون إلى طحن ذرتهم بعد آخر كيس قمح مباشرة، لأن باقي القمح في الطاحونة يختلط بالذرة فيعطي دقيقاً أفضل طعماً ونعومة. والعكس تماماً، فإذا حدث أن جاء دور القمح بعد الذرة يتجنب الناس طحن قمحهم بعد الذرة مباشرة. وعندما تصل ومعك ذرة كان عمنا سعيد يقول لك (بابور أليل منجي) وذلك يعني أن عليك الانتظار لأن الطاحونة مشغولة بالقمح، وكان لحديث عمنا سعيد نكهة خاصة متأثرة باللهجة المصرية. فقد قضى سني شبابه بأرض الكنانة. أما إذا حدث عطل في طاحونة شبة فكان الصبية



يتحمسون للذهاب إلى بابور (تفي) في تُشي، الذي يقع على مسافة بعيدة من شبة. فالمشوار ذهاباً وإياباً بالحمير في مجموعة. كان فيه نوع كبير من التغيير وزيارة منطقة أخرى في الجزيرة.

كان هناك الـ (نافرنتوق) وهو البيت الذي يخفون فيه العروس فتخضع هناك لترميمات كثيرة. يصلحون بالعطارة ما أفسد الدهر، كانوا يجتمعون صغاراً وكباراً في بيت العرس (بلين نوق) ، يأكلون ويشربون هناك لأيام.

تجلس البنات مع العروس في ال (تقون تَوّ) وكنت أعتقد أن التقو هو البرش. ولكن صححني البعض بأن التقو هي المصطبة التي تكون أمام البيت، أما البرش فهو ال (نِيذ). بروش طويلة منسوجة من سعف النخيل وال (هسد) وهي عيدان القمح، ومصبوغة بألوان مختلفة من (التفتة)، تفتة (دسي) يعني أخضر وتفتة (قيل) يعني أحمر و(هندبوسا) وهذا إسم غريب كان يطلق علي التفتة البنفسجية. تسمى هذه البروش بال (قَجْري) أو (القجلي)، يعلقون هذه البروش في غرفة تسمى الكجرة يكسون بها الجدران الأربعة مع الأرضية. ويفصلون بين البروش الملونة ببرش أبيض، تجلس البنات هناك ويغنين طوال النهار. وتتحول هذه الغرفة الي غرفة النوم حيث يقضى العرسان شهر العسل. وكانت هناك فتحة مابين الحائط والسقف تسمى ال (ناشي) وفي ليلة الدخلة كان الشباب وبالنات أصدقاء العريس يحاولون المتأوقة (البصبصة) عبر تلك الفتحة، وبعد إنتهاء طقوس العرس تلف هذه البروش داخل بعض وتعلق في (الكبس) أو تعلق في شئ كالمشلعيب (ألر) ودائما ما تعلق هذه البروش في (تنون نوق)، أي الغرفة الغربية. وهي عادة المخزن المجاور لل (إيقن شأ) أو (ديون نوق) أي المطبخ ويفصل بينهما ال (أسمون نوق) وهي بمثابة صالون نسائي، وكان هناك ال (بتن نوق)، والبي هو أو هي الند أو الدفعة في العمر (لا يوجد تأنيث وتذكير في النوبة، وذلك ما يفسر عدم إجادة النوبة للتذكير والتأنيث عندما يتحدثون العربية كما ذكرت في موضع آخر)، وكان هناك ال (إسكرين نوق) أو (إسكرين أوده) وهو البيت الذي ينزل فيه الضيوف القادمون من بعيد، وال (تقون تَوّ) هي الغرفة التي كانت تتحول الي غرفة النوم، ويقضي فيها العرسان أسابيع شهر العسل، وقد تطورت العادات الآن وتغيرت، فما أن ينقضي الزواج حتي يختفي العرسان، فلا تجد لهم أثراً، وإذا سألت عنهم يقولون لك إما أنهم سافروا أو أنهم في اللفة، أي لفة؟، اللفة، يعني شنو؟؟ يعني ما تسأل، وهي فكرة إبتدعوها أو (أبدعوها) عندنا في البلد، اذ يخصصون بيتاً سرياً لا يعرفه غير المقربين، يقضي فيه العرسان بعض الوقت الهادئ، ويطلقون علي هذا البيت مصطلح اللفة. أي لفة يا هداكم الله والبلد كلها لفات.

في الصباح الباكر من يوم العرس يذبح تور كبير، وتكون النساء كبيرات السن قد قمن بتقطيع كمية ضخمة من البصل، ثم تقوم نساء مشهود لهن بالمهارة بمهمة الطبخ، فيطبخن ال (أوي سما) ويكة، التي هي البامية المجففة، بكميات كبيرة من البصل واللحم، فيأتي بطعم خرافي لا يقاوم، لا تجده إلا في بيوت الأعراس. ياكله الناس بذلك



الأنجويد أو الأدارا البانت فلا يشبعون. ومن العادات التي نذكرها أنه عندما ينتهي المأذون من عقد القران كانت النساء يقمن بما كان يسمى (أجلن كفري) أو (اجلقا كفينان)، وفيها تقوم امرأة بقفل ال (أجل) وهو وعاء خشبي زاهي الألوان من قطعتين مجوفتين، توضع فيه عادة مكونات العطور الشرقية. وكان الأطفال يستخدمون ماكينة الحلاقة القديمة وأعواد الكبريت لعمل بعض التفجيرات التي تصدر صوتاً كصوت

البندقية. في مساء يوم الزواج يخرج الجميع رجالا ونساء إلى الساحة . يشعلون الرتائن . والرتينة هي أداة الإضاءة أيام زمان . كانت بمثابة الكشافات الحالية في الحفلات. وهي أكبر حجما من الفانوس. ومن شدة إضاءتها وجمالها سميت بها البنات . كما في حكاية الرتينة يت سالم. الرتينة كان لها شريط أبيض ناعم جدا ومقاوم للحرارة فلا يحترق. يربط في مكان الإضاءة. وكانت تعمل بالسيريتو الأبيض. والسيريتو كما واضح من لفظه جاء من الأصل الإفرنجي لذلك السائل سريع الاشتعال (والكحول). سيريت spirit وليس بالجاز كما الفانوس. ثم عرفنا فيما بعد ان ذلك الشريط او الشاش الأبيض نسيج مشبع بأكسيد السربوم. وهو الذي يولد ذلك الضوء الساطع. يخرجون الي الساحة ويبدعون ال (الأرقيد) وهو الرقص. يصطف الرجال في نصف دائرة والنساء في النصف الآخر. ثم تبدأ الحفلة بأن تنزل إلى الساحة فرقة مكونة من خمسة أو ستة رجال. يدخلون الحلبة وهم يصفقون بكفوفهم صفقة متقطعة مصحوبة بجمجمة منغممة من الحلق. يسمى (الهمي) وفي المقابل سرعان ما تنزل إلى الساحة فرقة من النساء كاشفات الرأس مستعرضات بشعر منسوج طويل. ضفائر رقيقة طويلة غزيرة منسوجة من شعر صناعي يسمى (الجورسي). ترقص النساء وبضرب الأرض بأقدام حافية في تناغم مع صفقة الرجال. ثم تبدأ المجموعتان في الإقتراب من بعض. فتشتد الصفقة وتتسارع. ويرتفع صوت الهمي. وتشتد ضربات النساء للأرض. وفي إلتهام سريع وخاطف يتم أخذ الشبال. وهو ان تنثر المرأة شعرها على أحد الرجال "المصفقين". وتنتهي (عشرة) الفرقتين لتدخل إلى الساحة فرقتان جديدتان. كانت هذه الفرق تسمى الواحدة منها (قرية) ولا أدري من أين جاء الاسم. وعندما تدخل الساحة فرقة معينة من الرجال. تدخل في المقابل فرقة معينة من النساء. باتفاق غير معلن تنتهي مقاصده بإنهاء الحفلة. ولم يكن هناك فنان يغني ولا آلة تعزف. بل صوت الهمي كان هو الموسيقى والإيقاع. ولاحقا صار الرقص في الحفلات مصحوبا بالأغاني والطبوبر.

وكانت إحدى النساء تغني (كلكية) وهي طريقة للإلقاء نوع من القصائد الطويلة في وصف العريس وأهله وأهل العروس بصفات الفخر والإعزاز. وإيراد التسلسل الخاص بالنسب. وكان من الذين يجيدون هذا الفن عمنا جعفر مرجان (جعفر بادي). فقد كان موسوعة في الأنساب. توفي رحمه الله دون أن يوثق منه أحد كل تلك المعلومات الهامة . والكلكية يعني الذي جاء من الشمال (كلو) فهي في الأصل حلقات المنشا ثم إنتقلت جنوباً . والكلمة كانت تطلق أيضاً علي المجادعات التي كانت تتم بين الندامى في قعدات الشراب . وهي مجادعات لحظية التأليف . وايضاً كانت هناك كلكيات في مناسبات الوفاة. رثاء منظوم في شكل مناحة . وكانت هناك في كل أسرة امرأة تجيد هذا الرثاء وتقوم به. وعند أهل الجنوب النوبي (الدناقلة) حُرقت الكلمة قليلاً فأصبحت (كلقية). وفي هذه الحفلات كان الرجال بصحبة العريس يمرون من أمام صف النساء وهم (ييشرون) (ويرشون) الريحه. يحمل كل واحد منهم (فتيلة) أو قارورة عطر يفرغها فوق رؤوس النساء . كما كانوا في هذه الإحتفالات يتبارون في توفير كميات كبيرة من شراب ال (دكّا) أي الدكاكي. الذي يصنع بنقع التمر في الماء لعدة أيام. ويصبح مسكرا كلما مر وقت طويل عليه. وهناك ملحمة نوبية طويلة وقديمة (سمها (سرقدن دكّا) . سمعتها مسجلة بصوت الأخ محمد الهادي حسن من

جزيرة صاي، كما أن العبقري محمد وردي تحدث عن الدكاي بصورة شاملة في ملحمة (صواردن شو)، وكان الناس يحتسون الدكاي دون حساسية، كالنبيذ الحلال، أو كأنه فرض من فروض الإحتفال، ربما كان جزءاً من أدبيات إتفاقية البُقْط أو (البُقْد) الشهيرة، التي عقدت بين العرب الغزاة، وبين النوبة، الذين تمسكوا بحقهم في تناول الخمور، فسمحت الإتفاقية بذلك، وقد كانت جزيرة بدين جزءاً من الممالك النوبية المسيحية القديمة التي سادت قبل الإسلام، إذ كانت تابعة لمملكة كرمة الكوشية، ثم لمملكة مروي، ثم أصبحت جزءاً من مملكة المقررة النوبية المسيحية. كانوا يصنعون الدكاي في أواني فخارية (أزيار صغيرة تسمى الواحدة بـ (كُي) يضعون في هذا الكُي كمية من البلح مع ماء مغلي، ثم يحكمون قفلها تماماً، ويتركونها لأيام، فيختمر البلح هناك ويتحول الي نبيذ، وكما قال الحسن بن هاني ::

إستودعوها رواقيداً مزفتة — من أغبر قاتم منها وغبراء

وكُم افواؤها دهرأ علي ورق — من حَظينة أرضٍ غير ميثاء

حتي اذا سكنت في دنها وهدت — من بعد دمدمة منها وضوضاء

حتي إذا سكنت وهداث، جاؤوا بهذه (الدناني) أو (الكبيبات) وفتحوها، ثم جاؤوا ببعض (الأشميق) وهو ليف شجر النخيل ، وغسلوها ووضعوها فوق الدكاي داخل الكُي ، ثم أتوا بإناء مصنوع من (الكُي) أي القرعة ، (والنطق هنا يختلف عن الكُي الذي سبق ذكره) ، وهو قدح أو مغرفة (بمثابة الكأس) ، يدخلها السافي في الكُي ويضغط على الأشميق فيرتفع الدكاي وبملا المغرفة ، وفي هذه الحالة يكون الدكاي مصفى من الشوائب ، ثم تبدأ عملية السُقيا (ومجرأها اليمين) ، أو في بعض الحالات كانوا يفرغون الدكاي في أواني كبيرة، يغرفون منها النبيذ بأقداح (الكُي) فيستقي القوم وينتشون، وتعم البهجة، ويكثر الهرج والمرج (ما هو المرج ؟)، ويببدو انهم في هذه المسألة أخذوا بفقه ابو حنيفة، وإستشهدوا بقول ابن الرومي ::

أحلّ العراقيّ النبيذ، وشُرِبَه — وقال الحرامان المدامة والخمر

وقال الحجازيّ الشرابان واحدٌ — فحلّت لنا بين اختلافهما السكر

سأخذ من قولهما طرفيهما — واشربها لا فارّق الوازر الوزر

أوربما بقول الآخر:

وأبو حنيفة قال وهو مُصدّقٌ — فيما يُبلّغه من الأحكام

شُرِبَ المثلث والمنصف جائز — فاشرب علي طرب من الأيام

فشرّبوه علي طرب من الأيام وحبور، ودون أن يثلثوه أو ينصفوه ، وربك الغفور، وكان هناك شراب آخر يسمى بالخسوة يصنع من الدرة أو الدخن، المعجونة بالتمر، تطبخ عجبتها في قدور مفلطحة (مفردها صاج في العامية السودانية)، ثم يتم تقسيم العجينة تلك الى قطع مضغوطة ومكورة، بما يسمح باستخدامها لفترة طويلة دون ان

تتعفن او تتلف، وكانت الحسوة تسمى بـ "شراب الفقرا" أي شراب علماء الدين لخلوها من الكحول، وكانت وجبة غذائية كاملة تعطي من يتناولها بعد تذويبها في الماء طاقة جسدية عالية .

من ضمن طقوس الزواج، كان علي العريس أن يذهب في سيرة إلى قبة الشيخ، وأن يطوف بالقبة جرياً سبعة أشواط وخلفه الـ (دشاً) أي وزير العريس، يلهب ظهره بالسوط حتي يكمل الأشواط السبع، ثم تنزل السيرة . والسيرة تسمى (إرمر) . إلى النيل كجزء أساسي من إحتفالات الزواج. وكان العريس يحمل سيفاً يضرب به الماء في شكل صليب، أما في اليوم السابع من الزواج، ومع نهاية الإحتفالات كان تتم فعاليات الـ (كُلدن كاشي) وكلد هو العدد سبعة وكاشي يعني يمزج ويخلط ويسوط، وكان ذلك الطقس يقام في غرفة العريس (الكُجرة)، وهي غرفة تزدان حوائطها وأرضيتها بالبروش الملونة، وفي هذا الطقس كانوا يأتون بذبيحة يذبحونها عند باب غرفة العريس فيسيل الدم، ويأتي العريس والعروسة ويقفزان أو ينطان (تلاشا) فوق الذبيحة سبع مرات، بعد ذلك تدخل العروس الغرفة فيلتقاها العريس ويحملها ثم (يرمها) برفق وحتية على كومة من البروش، ثم يجلسان متقابلين وتضع إحدى السيدات خليطاً من القمح والكوشيه في يد أحد الطرفين فيتبادل العريس والعروس ذلك الخليط لسبع مرات، والذي تنتهي عنده الجولة يضرب الآخر في وجهه بتلك الحبوب، وبعدها تشتعل معركة يتبادل فيها الجميع الضرب بالحبوب المخلوطة ويرشون بعضهم بالحليب، متفائلين بالبركة والخصب والنماء، وعند زيارة سيرة العريس للنيل كان من التقاليد المتبعة أن يرموا بسبعة تمرات في جوف النيل، إرضاءً له، خوفاً من غضبه ورغبة في بركته، وربما كان هذا بديلاً عن التقليد الفرعوني الذي كان يمارس في مصر بإلقاء أجمل فتاة في جوف النيل كل عام في إحتفال كالعرس يشارك فيه الجميع كما عبّر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقي:

ونجيبه بين الطفولة والصبا - عذراء تشرها القلوب وتعلق

كان الزفاف إليك غاية حظها - والحظ إن بلغ النهاية موبق

وكما كانت مناسبات الزواج تتم بمشاركة جماعية من جميع أهل الحي فقد كانت حالات الوفيات كذلك ، وكان في

الماضي عندما يتوفي أحدهم يخرج الـ (كُبْدَر) وهو شخص حافي الرأس والقدمين ويربط وسطه بعمامته يركب على الحمار ويطوف البلد وهو يصيح معلناً وفاة (فلان او فلانة) وكان يقول مثلاً (أحمد ميمدنتو قايبفين هُوي) أو (فاطنة ميمد قايبفين هُوي) ، يذهب الكبدرب (دورن ذوو) أي الطريق الذي يعتبر فوق الحلة، ويعود بـ (تون ذوو) أي الطريق تحت الحلة، وفوق وتحت دائماً يقاس ببعد الطريق عن النيل، فكلما كانت أبعد تسمى (فوق)، يطوف الكبدرب معلناً الخبر وكل



من يسمع الخبر ينقله للآخرين، كان هذا في زمان ولي، قبل إنتشار السلكي واللاسلكي من أدوات الإتصال ونقل

المعلومات. وعند سماع الخبر يترك كل فرد عمله ويتوجه في الحال الى مكان الوفاة أو المقابر. وفور وصوله يشارك الآخرين في العمل. وينشاط وبسرعة ينتهون من تجهيز القبر ودفن الميت، في نفس الوقت تكون النساء كل واحدة في بيتها قد جهزت ما تيسر من الطعام ويذهب الرجال إلي بيوتهم بعد الدفن ويحملون صواني الأكل إلى المسجد حيث يجتمع الناس ، وقبل وصول الطعام يقوم الشباب بإحضار شوال بلح ثم يقومون بتوزيع البلح على أواني نحاسية تسمى (السلم) ويجلس الناس في مجموعات حول هذه الأواني النحاسية ويقضون البلح إلى حين وصول الطعام . وفي الأربعين يقام تأبين الميت وتوضع ألف قطعة حصى ملساء (كدا) في كوم يبدأ الصغار في الأخذ منه واحداً واحداً مع ترديد عبارة (لا اله إلا الله) وكلما انتهوا من الألف توضع علامة في الحائط ، يهبون هذا التسبيح لروح المتوفى. وخلال ذلك، يقرأ من يعرف القراءة ما تيسر من القرآن، ويبدون ثوابه لروح المتوفى، ثم يذهبون إلى القبر ويساوون كوم التراب، ويفرزون جريد النخل الأخضر علي طرفي القبر، ويضعون الشاهد، وينثرون تلك الحصى فوق القبر.

أما إتفاقية (البقط) التي ورد ذكرها ، أو معاهدة (البقط) كما تُعرف في التاريخ، فهي المعاهدة التي تمت بين المسلمين العرب في مصر من جانب ودولة النوبة من الجانب الآخر. وتعرف الإتفاقية أيضاً (بعهد النوبة)، وهناك خلاف كبير بين العلماء والباحثين والمؤرخين العرب والمستشرقين والسودانيين، حول كلمة (البقط) ومعناها، يرجح البعض أن تكون كلمة (بقط) مشتقة من الكلمة اللاتينية (Pactum)، كما ذهب إلى ذلك البروفيسور يوسف فضل. ويقول آخرون أنها ربما تعود إلى كلمة قبطية أو يونانية، ويعتقد الكثيرون بأنها لفظة نوبية من "البَقد" وتعني (البعض) أو القسمة. وقد ذكر ذلك الأستاذ الطيب محمد الطيب في كتابه "المسيد". كما ذهب الأستاذ محمد إبراهيم نقد إلى نفس الترجيح في كتابه (علاقات الرق في المجتمع السوداني)، فالنوبة ينطقون البقط بطريقتين، (بقد) و (بقت) . ولا توجد (ط) في اللغة النوبية . وقد قصدت المعاهدة أن تُسمى بكلمة يعرفها ويعهدها النوبة .

بعد فتح المسلمين لمصر علي يد عمرو بن العاص، بدأت المناوشات بين المسلمين والنوبة، وحدثت بعض التعديتات النوبية علي صعيد مصر، فأرسل عمرو بن العاص قائده عتبة بن نافع الفهري لإيقاف هذا التعدي. وذلك سنة 641 م ، وقد قاوم النوبة هذه الحملة مقاومة عنيفة، الأمر الذي أجبر المسلمين علي مهادنتهم ومصالحتهم، وعلى الرغم من هذا الصلح الذي تمثل في المهادنة فإن المناوشات بين الطرفين ظلت تحدث بين أونة لأخرى ، حتى عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر سنة 645 م وتولاها عبد الله بن أبي السرح . وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان، أرسل عبد الله بن أبي السرح عام 31 من الهجرة (652 م) جيشا كبيرا لمحاربة النوبة وفتح السودان ، فقاتلته النوبة قتالا عنيفاً ، وكان النوبة يجيدون رمي السهام ، فأصابوا عيون الكثيرين من الغزاة ، حتي أطلق عليهم المسلمون (رماة الحدق). والنوبة حتى الآن يعتبرون (فقاً العين) عقاباً رادعاً، فنحن نسمع حتى الآن إذا أخطأ أحدهم علي الآخر يقول (أي إكّا ماجائق فدكتيل) أو (أي تكا ماجائق فدكتيل) يعني سوف أفلح أو أفلح لك عينك، أو عندما يحرضك أحدهم علي الآخر فيقول لك (دما ماج تنق دكتر) يعني امسكه وافقاً له عينيه . ولم يكن هناك

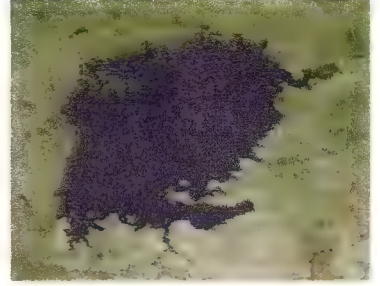
إنتصار حاسم لأحد الجانبين . ورغم أن المسلمين أصابوا مباتي العاصمة دنقلا العجوز بالمنجنيق . إلا أنهم لم يستطيعوا دخولها. وتكبدوا خسائر فادحة فعقدوا الهدنة مع ملك النوبة (قيلدروث) (ملك المقررة) ، وبعد مفاوضات بين الطرفين توصلوا إلى اتفاقية (أو معاهدة (البقط) . وهي ليست معاهدة إستسلام ، ولا هي إعراف بالدين الجديد . بل هي في مجملها معاهدة عدم إعتداء . التزم الطرفان بمقتضاها ألا يعتدي أحدهم علي الآخر . وقد ذكرت معاهدة البقط في العديد من مؤلفات المؤرخين . مثل المسعودي والمقرزي والبلاذري وابن عبدالحكم والطبري وغيرهم . غير أن المقرزي هو الذي أورد بنود الاتفاقية بالتفصيل في كتابه (الخطط) . وبموجب هذه الاتفاقية يلتزم النوبة بأن لا يدخلوا بلاد المسلمين إلا محتازين غير مقيمين* . وأن يردوا كل أبق من عبيد المسلمين وكل من يلجأ إليهم من مسلم يحارب المسلمين ، وأن يحفظوا المسجد الذي بُني بوسط مدينتهم. وأن يقوموا بكنسه وإسراجه وتكريمه. وأن يخرجوا ثلاثمائة وستين رأساً يدفعونها لإمام المسلمين كل عام من أوسط رقيقهم غير المعيب . يكون فيها ذكران وإناث . وليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم.

وفي المقابل يلتزم المسلمون بأن يدفعوا للنوبة ألف أردب من القمح. وألف أردب من الشعير . وألف اقنين من الخمر. ومن أصناف الملابس المختلفة مائة . كما يلتزمون بعدم دخول بلاد النوبة إلا محتازين غير مقيمين* . وقد كتب المعاهدة عمر بن شرحبيل سنة إحدى وثلاثين من الهجرة . وقد تعرضت المعاهدة لكثير من التعديل في بنودها وفقاً للعلاقة السياسية بين ملوك النوبة وحكام المسلمين علي مر الزمن . كما أن أهل المقررة رفضوا العمل بها في فترات كثيرة . وقد إستمرت ستمائة سنة على وجه التقريب . أي حتى عصر المماليك في مصر . وكما فعلت المسيحية وتعاملت مع الكوشيين بتسامح كبير فقد فعل المسلمون . والاتفاقية كما وردت وكما تم العمل بها جعلت من كوش دولة مستقلة سياسياً ودينياً عن دولة الإسلام . فلم تكن كوش دار حرب وفي نفس الوقت لم تكن دار سلام . واحتفظ سكان كوش بالحق في ممارسة شعائرهم والتمسك بعاداتهم وتقاليدهم ماداموا يراعون بنود المعاهدة . ولم يكن كل ذلك مألوفاً لدى المسلمين العرب في البلاد الأخرى التي فتحوها.

* (الجميل التي وضعت تحتها خط سوف أتناول الحديث عنها في فقرة لاحقة).

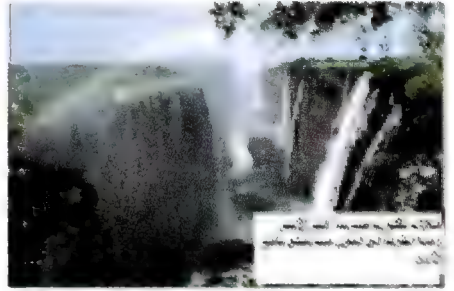
2.

بحيرة فيكتوريا (Victoria) وتعرف أيضاً باسم نيانزا و أوكريوي ونالوبالي، باللغات المحلية. أما اسم فكتوريا فقد أطلقه الرحالة البريطاني جون هانينق سبيك (John Henning Speck) الذي يعتبر أول رحالة أوروبي يصل إلى البحيرة، وكان ذلك في سنة 1858م، أما أول من ترك خريطة دقيقة للبحيرة فقد كان الرحالة العربي المعروف الشريف الإدريسي في سنة 1160م، وتعتبر البحيرة ثاني أكبر بحيرة للمياه



العذبة في العالم من حيث المساحة ، والأكبر في أفريقيا ، كما أنها أكبر بحيرة إستوائية في العالم ، تبلغ مساحتها 68870 كيلومترا مربعا مقسمة بين كينيا (6 في المائة)، وأوغندا (45 في المائة) ، وتزانيا (49 في المائة) ، وتوجد في بحيرة فكتوريا أهم مصايد البحيرات العظمى الإفريقية . كما تضم البحيرة حوالي 3000 جزيرة ، وهي تقع علي إرتفاع 3720 قدماً فوق مستوى سطح البحر ، ويبلغ طول البحيرة حالي 337 كيلومتراً ، ويبلغ أقصى إتساع لها نحو الـ 240 كيلومتراً ، وتستمد البحيرة مياهها من العديد من الأنهار الإستوائية المنحدرة إليها من الغرب والجنوب والشرق ،

وأهم هذه الأنهار هو نهر كاجيرا (Kajera) الذي ينحدر من الجهة الغربية ، أما تصريف مياه البحيرة فيتم من الناحية الشمالية ، ومن هناك يبدأ النيل الأبيض ، بعد مغادرة بحيرة فيكتوريا، يعرف النيل في هذا الجزء باسم نيل فيكتوريا ، ويستمر في مساره لمسافة 500 كم (300 ميل) مروراً ببحيرة كيوجا - حتى يصل إلى بحيرة ألبرت ، بعد مغادره بحيرة ألبرت،



يعرف النيل باسم نيل ألبرت ثم يصل النيل إلى السودان ليعرف عندها باسم بحر الجبل، وعند إتصاله ببحر الغزال يمتد النيل لمسافة 720 كم (445 ميلاً يعرف فيها باسم النيل الأبيض، ويستمر في مساره حاملاً هذا الاسم حتى يدخل العاصمة السودانية الخرطوم.

أما النيل الأزرق فينبع من بحيرة تانا، وتعرف أيضاً باسم تسانا، الواقعة في مرتفعات إثيوبيا بشرق القارة ، وهي أكبر بحيرات الحبشة وتقع في شمال غرب هضبة الحبشة، على إرتفاع يصل إلى حوالي 6000 قدم (1840 متراً) ، فوق سطح البحر . بينما تصل مساحتها إلى 3673 كيلو متراً مربعاً، أي ما يعادل 1418 ميلاً مربعاً، غير أن هذه المساحة تزداد في موسم المطر الغزير ، حيث يرتفع مستوى مياه البحيرة وتغطي مساحة أكبر من السهول الواقعة في غربها وتعرف بسهول فجارا وتصل مساحة منطقة تصريف البحيرة، أي المنطقة التي تنحدر مياهها إلى البحيرة حوالي 11655 كيلو متراً مربعاً (4500 ميل مربع) . وتصب في البحيرة عدة أنهار، أهمها نهر "ماجاش" و "دمبرا" من جهة الشمال ونهر "رب" و "جومارا" من جهة الشرق، ونهر أباي الصغير من جهة الجنوب.

صورة من الفضاء لبحيرة تانا يشكل النيل الأزرق نسبة (80 الى 85) في المائة من المياه المغذية لنهر النيل في موسم الصيف بعد الأمطار الموسمية علي هضبة إثيوبيا ، بينما لا يشكل في باقي أيام العام نسبة كبيرة حيث تكون المياه فيه ضعيفة . وبينما يطلق عليه اسم (النيل الأزرق) في السودان، ففي إثيوبيا يطلق عليه اسم (أبيي) ويستمر هذا النيل حاملا اسمه السوداني في مسار طوله 1,400 كم (850 ميلا) حتى

يلتقي بالفرع الآخر – النيل الأبيض – عند الخرطوم في المنطقة التي تحمل اسم المقرن (لاقتران النهرين فيها) ليشكلا معا (النيل) حتي المصب في البحر الأبيض المتوسط .

طول نهر النيل الإجمالي حوالي 6,695 كم ، وبذلك هو أطول أنهار العالم، ويغطي حوض النيل مساحة 3.4 مليون كم مربع، ويمر بعشر دول إفريقية يطلق عليها دول حوض النيل . وهو مسمى يطلق علي 10 دول إفريقية يمر فيها نهر النيل ، سواء تلك التي يجري مساره مخترقا أراضيها، أو تلك التي توجد علي أراضيها منابع نهر النيل، أو تلك التي تجري عبر أراضيها الأنهار المغذية لنهر النيل . وهذه الدول العشر هي أوغندا ، إثيوبيا ، إريتريا ، السودان ، الكونغو الديمقراطية ، بوروندي ، تنزانيا ، رواندا ، كينيا ، ومصر . ويبلغ عدد سكان هذه الدول 336 مليون نسمة، يعتمد معظمهم علي النيل مصدرا للحياة. بعد إقتران النيلين الأبيض والأزرق ليشكلا معا نهر النيل لا يرفده بالمياه إلا نهر واحد هو نهر (أتبره) عطبره . والذي يبلغ طول مساره 800 كم 500 ميل تقريبا ، وينبع هذا النهر من المرتفعات الإثيوبية أيضا، شمالي بحيرة تانا، ويتصل بنهر النيل علي بعد 300 كم (200 ميل) شمال مدينة الخرطوم ، ويسمي هذا النهر في الجانب الأثيوبي بنهر (تكازي)، يواصل النيل سيره في إتجاه الشمال ولكن له إنحناء عظيمة في منطقة أبو حمد يكاد معه أن يقفل عائداً نحو الجنوب. . ولكنه يستعيد سيره للشمال عابراً الحدود المصرية السودانية إلي أقصى الشمال المصري ليتفرع إلي فرعين: فرع دمياط شرقا وفرع رشيد غرباً، ويكونان فيما بينهما دلتا النيل. ، ويصب النيل في النهاية عبر هذين الفرعين في البحر المتوسط . ومن المعروف أن النيل هو النهر الوحيد في العالم الذي يجري من الجنوب إلي الشمال تبعاً لميلان الأرض. (راجع British Encyclopedia).

من أيّ عهد في القرى تُدْفَقُ

وبأيّ كف في المدائن تُغْدَقُ

ومن السماء نزلت أم فجّرت

من عليا الجنان جداولاً تترقّق

وبأيّ عين أم بأية، مَزَنَة

أم أيّ، طوفان فيض وتفهّق

أحمد شوقي

هو النيل، ليس إلاد. فمرجي بالجلال المفيض. سليل الفراديس. نبيل موفق في مسابه. كما أفاد التيجاني يوسف البشير رحمه الله . ولكن أين منا النيل، إنه بعيد (إلا من أمانينا)، النيل، أطول شرايين الحياة علي سطح البسيطة،

من أي عهد في القرى تتدفق؟ من عهود سحيقة يا أمير الشعراء. منذ الأزل، خُلِقَ مع الزمان والمكان. تحسه كأنناً حياً، وهو كأنٌّ حي. بل كأن به تحيا الكائنات، (وجعلنا من الماء كل شيء حي)، خرج من منابعه غداة يوم، مبكراً خرج. شمر عن ساعديه، ثم هجر وسار وهجر. وما زال يسير ويهجر. للم في طريقه أطرافاً كثيرة يستقوي بها علي المحن، وبواجه بها صعوبة الطريق ووعناء السفر، إمتطي صهوة نفسه وانطلق شمالاً وهو يسرع الخطي، حدد غايته وعرف مصيره. إتخذ مجراه عجباً، وإنساب في قوة وإصرار. (ربما عاكسه الخصر قليلاً فمال) يمينا أو شمالاً، أو ربما التف عانداً نحو الجنوب لتفادي بعض العوائق، ولكنه سرعان ما يعود وينطلق نحو دلتاه في صبر جميل، نعم. هو النيل، الأفي الخرافي المقدس. يسير وينبأ وهو يفرغ علي الشاطئين جنة من رضابه العذب. علي كتفيه قامت حضارة الإنسان الأولى، تحت ثيابه يختبئ تاريخ الشرق.

وبأي نول أنت ناسج بردة

للضفتين جديدها لا يخلق

تسودة، ديباجا إذا فارقتها

فإذا حضرت إخضوضر الإستبرق

في كل أونة تبدل صبغة

عجبا وأنت الصايغ المتأنق

نعم، بنول الجمال والكرم، بنول النعمة الخيرة، والعطاء غير المحدود، ينسج للضفتين بردة خضراء. تتجدد كل يوم، هناك حيث تمر أحلام ليالي كيلوباترا الجميلة. تطوف بالموج، فيغي، وبغي الشاطئان. هناك يهفو كل فؤاد، ويشدو كل لسان. هو النيل، هناك في شاطئ النيل. تتحدث الرياح مع النخيل. تهمس لها بسر الحياة، فتثمر طبعاً جنيا، هناك يسبح الطير ويشرح الحب للخميل، هناك علي امتداد شاطئه القشيب، تنتشر العذاري، تغرف من ماء العذب السلسبيل، هناك حيث أنين السواقي يحرك الأشجان ويهيج الهوي، فينتف القلب بلحن نبيل.

نعم. هناك في شاطئ النيل لو إنفردت بنفسك فلا بد أن تسمع أصواتاً غامضة، تأتيك من الماضي السحيق، زغاريد ملايين الأعراس، أشباح آلاف الفتيات اللاتي دفعن حياتهن ثمناً كقرايين للنهر "الإله". صور الفرقي من عصر نوح. هناك تشتم رائحة النيل المضمخة بمسيرة مئات الآلاف من السنين، هناك عندما يهبط المغيب فوق الماء والأشجار ينتشر في الجو حلم هادئ، في مثل ذلك الجو ثرثر أنيس زكي مع شلته في عوامة نجيب محفوظ فوق النيل، هناك قرر صاحبنا أنيس أن الزمن التاريخي لا شيء بالقياس بالزمن الكوني. وعليه فكلنا معاصرون لأدم وحواء. هناك عندما يتقدم الليل تبدو الأشياء نصف واضحة، تبين وتختفي، بين النور والظلام، لا تستطيع أن تبين إذا كان النيل ساكناً أم أنه متحرك، إحساسك يغيث ثم يعي، وكأنك في حلم أبدي. هناك يسري بك الخيال، ويتفتق ذهنك، تتخفف من عقد الدنيا فتحس وكأنك ولدت للتو، هناك تعيش الطبيعة في ربيعها الدائم. ((كل الحياة ربيع مشرق نضر/ في جانبه وكل العمر ريعان))، نعم. وماذا أيضاً يا جماع، أيها العبقرى الحزين، ((ما من طول السري يوماً

وقد دفنت / علي المذارح أزماناً وأزماناً))، ونعم مرة أخرى، زدنا من هذا القول العذب، ((وللخمائيل شدو في جوانبه / له صديّ في رحاب النفس ربّان))، ليس إلّا لمثلك أن يحدثنا هذا الحديث البديع، الذي له صديّ رحيب في نفس كل عاشق للنيل، فهناك الجمال في شرخ الصبا، ملعبه سهول نضيرة، ووشاحه الشفق الزاهي، هناك علي شاطئ النيل، ما أجمل الغروب، تتحول الشمس الوهاجة تدريجياً إلى شفق، إلى لوحة متداخلة الألوان، في تلك اللحظات تحلو مراقبة الليل وهو يتسلل بخطاه الونيدة، في تلك اللحظات تتحقق من ولوج الليل في النهار،

أنت الدهور عليك مهديك مترع
وحياضك الشُّرق الشهية دقُّ
تُسقي وتُطعم لا إناؤك ضائق
بالواردين ولا خوانك ينفقُ
والماء تسكبه فيسبك عسجداً
والأرض تغرقها فيحيا المغرقُ

أيّ تعبير وأيّة إجادة، (الأرض تغرقها فيحيا المغرق)، هو كذلك، يفيض النيل ويُغرق الجروف، ثم ينسحب إلى مجراه فيبدأ الناس عندنا ما يسمى (النَّاقري) زراعة الجروف وهي ما تزال رطبة، يزرعون الـ (الأشرنكي) اللوبيا، والـ (كوشي) الذي لم أعرف إسمه بالعربية رغم انه من فصيلة الشعير، والـ (فتوّ) الدخن، والـ (أكندي) الترمس، وبعض المحاصيل الأخرى. وهذه الزراعة لا تحتاج إلى ري، فلا تسقي بل يكتفي الزرع بماء الطمي، وفي زراعة الجروف كانوا يستعملون آلة إسمها السلوكة (بفتح السين وتشديد اللام المضمومة) آلة من الخشب حديداء مقوسة ذات رأس مخروطي تستخدم لإحداث حفرة في الأرض يوضع فيها (التيراب) وهو التقاوى أي البذور، والسلوكة والساقية كانت تطلق علي الأرض المعينة والملوكة لأسرة معينة، كأن يقولوا (سلوكة ناس فلان) أو (ساقية ناس علان).

دين الأوانل فيك دين مروّة
لم لا يؤلّه من يقوت ويرزقُ
جعلوا الهوي لك والوقار عبادة
إن العبادة خشية وتعلّق.



لم يكن كثيراً علي النيل أن يعبدوه، إذ كانوا يعتقدون أنّ النيل ينبع من بين أصابع الآلهة، وأن ماءه يهبط من السماء، وقد كان النيل مصدر الرزق الأول والأخير، وفيضانه العارم شكل لغزاً مخيفاً لإنسان وادي النيل، وعن طريق عبادة النيل إنما عبد ذلك الإنسان آلهة النيل، نيلوس وهاي وبابة، وكان لهذه الآلهة ملائكة يسكنون في

النيل. وكان في إمكان الملائكة السيطرة علي حياة الناس، فكان من الطبيعي، والوضع كذلك، أن يتعلق سكان الوادي بالنيل ويخشونه في نفس الوقت، رغبة ورهبة. وكان لسكان الجزر رهبة أكبر، فقد كان النيل بالنسبة لهم هو مصدر الخير كله، عليه اعتمادهم. عليه يتوقف وجودهم نفسه، يحيط بهم من كل جانب، لولاه لما كانوا، وكما هو مصدر الخير فهو مصدر الخوف. هادئ هو. كالشيخ المعمر، عطوف نبيل، يفيض بالخير دون حساب، يعطي ويعطي، يسقي ويطلع، ولكنه عند الغضب يثور كطالب الثار، يتحول إلي وحش كاسر، يغرق الديار ويثلف الحقول، ولكنه سرعان ما يتراجع، فيتسامح الناس معه، يلسون له ما فعل، فهم دونه لا شيء. كان سكان جزيرة بدين كما سائر ساكني الجزر النيلية، يستقون من النيل مباشرة. يمهدون لأنفسهم طريقاً متدرجة على جزء من (الأبل) وهو الشاطئ، يسمى هذا الجزء بالـ (أني) لتسهيل عملية النزول والطلوع لأخذ الماء.

تنزل البنات بهذا الأني إلي الماء وهن يحملن جرادل من الصفيح. (تحولت الي جرادل بلاستيكية ثم وصلت الماء إلي البيوت جراً على الماسير). يملأن الجرادل بالماء ثم يضعن فوق رؤوسهن شفا يسمى (التفيل) وهو وسادة دائرية من القماش المبروم. تمتص ثقل الجردل عند وضعه على الرأس وتحفظ توازنه. يمسكن الجردل بيد وتبقى اليد الأخرى طليقة، يتبخرن في مشية إستعراضية فيها من الدلال غير قليل. يصلن البيوت ويفرغن الماء في الأنبار حتي تمتلئ. أما البعيدات من النيل فكن يملأن من الـ (مَرتي) أي الجدول، وكان برنامجاً عسارياً فيه بعض التزه والفسحة. كان ذلك يا صاحبي علي أيامنا في الزمن الجميل، قبل ان تتحول الجزيرة الوادعة الوديعه إلي شبه مدينة إمتدت فيها مواسير المياه إلي البيوت مصحوبة بكل ضجيج المدن وأفاتها، وحتى الكهرباء إمتدت إليها، وكان الظلام جزءاً مهماً من جو الجزيرة. إذ يعطي لليل سره المخيف والأمن في الوقت ذاته، وأنت تسير في الظلام. ذاكرتك تحفظ الطرق والمنعطفات. ويعتريك إحساس الإنسان الأول. الخوف، ذلك الإحساس القامض الذي يزيده مكون الليل رهبة، هو نفس الإحساس الذي أدي بالإنسان الأول إلي إختلاق الآلهة، في تلك اللحظات تظهر لك أشكال غير مكتملة، تنقلب الأشجار إلي مخلوقات متحركة، وبالذات أشجار (الهبدي) أي العشر، تعبر في ذاكرتك حكاوي الذين ساقهم الجن إلي الخرابات أو الـ (ذكي نلو)، أي التلّ الرُملي في أقصى الجزيرة من الناحية الشمالية، قرب الشلال، كانوا في الماضي يذهبون إلي هناك في المناسبات وذبائح الذبائح، وكان طقساً متعلقاً بشئ مقدس، ويقال أن المنطقة التي تقع بين حركية حتي مشارف بدين ساب القديمة كانت خلاء مسكونة بالجن، ويُحكى عنها أساطير كثيرة تقشع لها الأبدان، يسيطر كل ذلك علي إحساسك، فيسرح خيالك في تلك الأساطير عن الجن والشياطين التي تخرج للناس في شكل الحيوانات، أو في شكل إنسان بأرجل حيوانات، أو تتوهم أنك تري نيرانا تشتعل وتنطفئ، أو تتوهم أن هناك أصواتا تنادي اسمك، أو توسوس في أذنيك، فتتلفت ولا تجد أحداً، أما في الليالي المقمرة فكان ليل الجزيرة يتحول إلي شيء آخر، إلي طقس ساحر، صامت وناطق في نفس الوقت، في الليالي المقمرة تبدو الطبيعة أكثر قرأ منك، تبدو الصور أكثر ضياءً، ويعتريك شعور دافئ، ويتملكك إحساس بالتسامح. فتحس بالتصالح مع نفسك ومع من أساء إليك، لو وجدت عدوك لعانقته، ولو وجدت من تحب لبُحت له بما تتحفظ في قوله نهارة، وربما ألقيت

القبض علي نفسك وأنت تغني. ما أجمل ليالي القمر، هي جميلة أينما كنت، في الطرقات، فوق التلال الرملية، علي شاطئ النيل. هي جميلة حتي لو إستلقيت علي سريرك في (سَمَن تو) أي (حوش) البيت. نحس بالسرير بارداً ناعماً. تسامرك الغيوم القليلة التي تمر وهي تشكل لوحات رائعة. يغلب لبك منظر النجوم المبعثرة في السماء بغير نظام. يتركز نظرك علي نجمة صغيرة، تحس وكأنها تلّوح لك بالتحية. ثم فجأة تتحرك نجمة أخرى غاضبة. تنطلق كسهم مشتعل. تضئ السماء لجزء من الثانية وتنطفئ. تلك هي سماء الجزيرة، بقمرها ونجومها، أما هنا، في مدن النيون، فالقمر حزين باهت اللون، لا يحتفي به أحد، ربما كنتُ أنا الوحيد الذي أبحث عن القمر في هذه المدينة، أبحث عنه، فهو صديقي القديم، بيبي وبينه ودّ طارف وتليد، كنت أنتظره إذا غاب، في شوق عارم، في فجر الطفولة أحببته، وفي مقتبل الصبا تعلقْتُ به، ومع طوالع الشباب عشقته. هو صديقي القديم، وكلما امتد عمر الصداقة تحولت إلي شجون. إلي ذكريات، تهرب إليها كلما أملت بك المحن. هو مخزن الأسرار، هو دفاتري القديمة، هو القمر، في طرف السماء، دائماً هناك، يغيب ويهل، ينتظرك، يتبعك أينما ذهبت، أفتح النافذة، وأنظر إليه، أبحث عنه كما أفعل، فأنا أبحث عنه، وأسأله عن ذكريات أثيرات. شهد عليا في السنين الخوالي. وإذا تنكرت السنين وخانت، فالقمر وفيّ، وهل يستطيع القمر أن يتنكر أو يخون؟.

3.

عاش سكان الجزيرة (وهو حال ينطبق على ديار النوبة كلها) في توافق إجتماعي عجيب، خلطة، بعض نوبية وبعض عربية وبعض زنجية، عاشوا في رغد من العيش وسعة، كان اعتمادهم الكلي علي الزراعة، يزرعون أرضهم الخصبة في تقسيم شتوي وصيفي، كانوا يحفرون الأرض بسواعد رجال ذوي بأس وشدة، يدفنون التراب أو التقاوي (البذور) ويغطونها ويسقونها بمجهود يدوي قاسٍ لو قام به (حناكيش) هذه الأيام لزهقت ارواحهم.



كانت الساقية هي ماكينة الزراعة الرئيسية لسكان الجزيرة، وهي فكرة قديمة إستمرت حتى عهد قريب، فكرة عبقرية لجلب الماء من النيل الي الزرع، ومن الصعوبة بمكان شرح فكرتها، ولكنها قائمة علي فكرة الحلقات ذات التروس، كانت تدار عن طريق بقرتين مربوطتين إلي الساقية وصبي يجلس خلف البقرتين على مقعد يسمى "التكُم"، صبي يسمونه (اروتي أو أورتي) وأورتي هذا من (أوري) او (أور) وهي الزراعة، تدور البقرتان ومن خلفهم الصبي في دائرة كاملة، وتدور الـ (فيشينجي) جمع فيشي (القواديس) وهو الأواني التي تحمل الماء في دائرة رأسية كاملة لتنقل الماء إلي بداية الجدول، في بعض الحالات كانوا يربطون ثوراً واحداً بدلاً من البقرتين وكان يسمى (أرقوق)، وبينما تسمى الساقية (كلي) عند الدناقلة، تسمى (أسكلي) عند المحس، وواضح أنها نفس التسمية، فالكلمة أسكلي مكونة من كلمتين، (أسي) و (كلي) (أسن كلي) أسكلي.



كانت هذه السواقي تبدأ عملها في الـ (شاييق) أي الفجر المبكر، وتظل تعمل حتي وقت متأخر من الليل، وكانت حلقاتها وتروسها تصدر أنغاما موسيقية شجية، كأنها تستعطف الرزق، فيأتيها رغداً، كان يوم العمل في الري بالساقية ينقسم إلي (فجرن تقي) أي القسم الصباحي، (وذكرن تقي أو دُهرن تقي) أي الذي يبدأ بعد الظهر. كانت زراعة السواقي مباركة، يزرعون مساحة ليست

كبيرة، فتفتح الأرض مواطن الخصوبة و يغمروها بالماء فتَهْتَز انتشاء، وتحبل بالبذور، ويعم من الخير ما يكفي، فيأكل البشر ويأكل الطير وتأكّل الهائم، وتمتلئ الأثداء والأضرع، فيحلبون منها حليباً كامل الدسم، يستخرجون منه السمن، يغلونه ويشربونه، ويأكلون القراصنة بالسمن، صحة وعافية، لا كلستروول ولا حبس بول.



كان ال (السُو) اللبن الطازج ومشتقاته مع ال (إِي) القمح و(الفُتُو)الدخن وال(فنتي) البلج وال(أرجي) البلبلة وال (هميرين كابد) وهي قراصة بالعجوة، أو جنقرة كابد Gangra Kabid تؤكل باللبن، وال (كرمن قرى) مديدة الحلبة ، وال (جدى قرى) يتكون من عطرون وقمح ولبن ، ثم قراصة الملوحة (التركين) وهي أكلتي المفضلة ، كان ذلك هو الأساس الغذائي للسكان، وكان المزارع يأتي بالحليب حين عودته الي البيت مع المغرب ، فتقوم النساء بـ (شك) أي خضّ الحليب لإستخراج الزبدة بوضع الحليب في (السعن)

وهو ما يسمى بالنوبية (بينج) ثم تغلي تلك الزبدة فتتحول الي سمن ثم يعبا السمن في زجاجات للبيع أو للإستعمال البيتي ، أو إرسالها كهدية للأهل في المدن ، أو حفظها للمساهمة بها في كشوفات الأعراس، ويتحول الحليب بعد إستخراج الزبدة الي روب (سو نري) وهو يُشرب أو يستخدم للأكل بغمس (الكبا نري) أي الكسرة البلدية فيه، وكان محصول البلج هو الاساس الإقتصادي، ويقاس الناس في غناهم بعدد النخلات التي يمتلكونها، والنخيل والهائم كانت هي مفتاح الحل في لحظات الضيق المادي.

وفي تقسيم العمل كان هناك "البصير" الذي يصلح أعطال الساقية، و"الصمد" الذي يحدد توزيع المياه وحصة كل مزرعة منها، والحداد (التبد) الذي كان يصلح ويصنع الأدوات الزراعية والمنزلية، مثل التريب (المنجل) والتوري (فأس عزق الأرض والتي حرقها أهل السودان الأوسط إلى طورية) والكارندي (الجرافة اليدوية الخشبية، والألد (الفأس) والكندي (السكين)، وهناك رئيس المركب، وإمام الجامع أو شيخ الخلوة أو المرأة التي تملأ أزيار السبيل ، كل هؤلاء كان لهم نصيب معين من محصول كل حقل من القمح والذرة، وكان المزارعون يتعاملون مع شيخ الخلوة وإمام الجامع بكثير من التقدير والإحترام، كانوا لا يبخلون عليهم بإنتاج مزارعهم، وعندما تلد البقرة كانوا يعطون الشيخ الدفعة الأولى من (السُو) الحليب، فتجد بيوت (الفقرا) عامرة بالمنتجات الزراعية رغم أنهم لا يقومون بأي عمل زراعي ولا يفهمون فيه شيئاً، ولكنهم كانوا يوفرون الأكل للعابرين في المساجد في كل الأوقات، وكانت الساقية مؤسسة أو شركة لها قوانينها ولوائحها، كان الصمد هو المسئول الأول، والصمد هو رئيس مجموعة المزارعين المنضوين تحت ساقية واحدة ، أو رئيس الساقية كمؤسسة، أي رئيس العمال الزراعيين ، وهم الذين يطلق عليهم أسم (الترابلة) المفرد بالنوبية (تُربا) والجمع (تُربري) ، وعادة ما يكون الصمد كبير السن، وأكثر خبرة بأعمال الساقية، وأكثر نصيبا في أراضي الساقية في بعض الحالات، والصمد هو المسؤول عن كل ما يتعلق بالساقية من صيانة وتوزيع أعمال على

المزارعين، ويشرف الصمد أيضاً علي جمع المحصول وتوزيعه، كما أنه المسؤول لدى السلطات المحلية في ما يتعلق بالساقية من ضرائب.

أجزاء الساقية (واعتذر لاستحالة ترجمة معظمها لعدم وجود مقابل لها بالعربية:

ديو - أرقدي - أرقدنتود - سلقدي - توندي - سندقي - إسليق - فيشي / بيشي - مِشي - تَكُم - كرب - ساب - أَسَري - أَسِكاق - بَقْدو - سوي - قُرَمدي - أُلويل - كُرَانج - جومب - أَلَس - أَللو - قردِي - سبلو - دلو - شيقِر - كودي - دُنقر وكان لصبيان الساقية (الأورتي) أغان يترنمون بها لطرد الملل والنعاس والخوف من (الدُقُر) وال (أمن دال) و (السُرُنق جدي) وهي كائنات عدوانية وشرسة تخرج من النيل وكان البعض يؤمن بها لدرجة أنهم بعض الأحيان كانوا يطلقون أرجلهم للريح هرباً من هذه الكائنات، عندما يخيل للواحد منهم انه سمع وشوشة او دمدمة، ولا أنسي أنني والحبيب



محي الدين عبدون كنا نصطاد السمك مرة، وكان الوقت بعيد المغرب، وكان الموسم موسم فيضان، وبينما نحن مشغولون بتجهيز (الجَكَار) أو السنارة، إذا بقطعة كبيرة من الطين تقع في الماء نتيجة النخر (الهدام) وتحدث صوتاً داوياً، وكان هو في الجانب الأقرب من الصوت، وفي اللحظة التي ألتفتت فيها رأيته وقد أطلق ساقيه للريح ، وكان

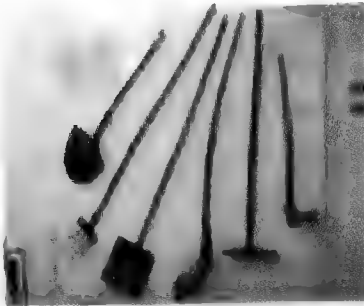
محي سريع العدو، ولم أفهم أنا ما حدث، فتجمدتُ في مكاني من الخوف، وزحفتُ إلي أعلي قليلاً قليلاً ثم جريت، وعندما وصلت منزلهم وجدته أمام الباب قلقاً، وعندما رأيته جاءني متسانلاً (منامنو)، يعني كان شتو؟ ورغم أنني كنت أستطيع البقاء علي الشاطئ منفرداً بالليل إلا أنني في تلك الليلة أصبت بخوف بالغ، وبقيت تلك ذكري لم أنسها.



هذه الصورة النادرة (لبرج) خشبي يسمى (هيلو) كان يُبنى وسط الزراعة على إرتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار وفيه مكان (منصة) لجلوس شخص أو أكثر، تمتد من المنصة حبال طويلة إلي أطراف المزرعة في كل الإتجاهات وهذه الحبال تعلق بها علب فارغة بداخلها بعض الحصى أو الحجارة الصغيرة ، يقوم الشخص الجالس بهز هذه الحبال بصورة مستمرة فتُحدث صوتاً يبعد الطيور عن الزراعة.

كانت الزراعة تقوم على نظام الري النوبي الذي كان يعتمد علي السواقي والشواذيف، وتسمى الساقية (أسكلي) كما سبق الذكر، وانتقلت هذه الكلمة من (عندينا) عكس التيار الي ضفاف نيل الخرطوم مع النوبيين الذين سكنوا جزيرة توتي، وحتى أواخر سبعينات القرن الماضي كانت هناك ساقية على الطراز النوبي على شارع النيل في الخرطوم على مقربة من نقطة انطلاق عبارة/ معدية توتي، قبالة المتحف القومي، وتلك العبارات تسمى في السودان "بنطون"، وهي مأخوذة من الأصل الإنجليزي pontoon وقد كانت كامل المنطقة الممتدة من الموقع الحالي لوزارة الصحة حتى موقع قاعة الصداقة في الخرطوم تعرف بـ (سواقي المحس) ويبدو أن كلمة أسكلي تحولت الي "أسكلا"، ولعل ذلك مرده أن رصيف تحميل الركاب في العبارات والزوارق من وإلى جزيرة توتي كان هو المزلقان الذي يقود الي تلك الساقية (الأسكلي). ثم كان ما كان من أمر الذي (من الأسكلا وحلاً و قام من البلد وي)، عندما ذاب قلب شيخنا الشاعر ودالرضي و"اختل"، فكتب تلك القصيدة الرائعة التي تتبع فيها درب بابور النيل (الباهرة) ذاكراً كل المحطات النهرية من الخرطوم حتي الرجاف في أقصى الجنوب. والحقيقة أن السواقي كانت منتشرة علي إمتداد نهر النيل، محتفظة بالأسماء النوبية لأجزائها، وامتدت الي أرض الجزيرة والنيل الأبيض ونهر عطبرة . وعلي ضفاف نهر القاش في كسلا، حيث أوجت الي الشاعر الكبير توفيق صالح جبريل برانته كسلا، عندما حلّ ضيفاً في حديقة العشاق، في ذلك الفجر الندي، طلق المحيا، إذ نغم الساقيات حرك أشجانه. وأهاج هواه أنين السواقي، وكيف لا وهو النوبي. فهو من جزيرة مقاصر، ولم تكن اللغة العربية هي لغته الأم، إلا أنه أبدع بها كما فعل النوبي خليل فرح، ورغم أنه يعتبر أبوالوطنية، ورغم إنتاجه الشعري الغزير. إلا أن توفيق غير معروف بالدرجة التي يستحقها.

ووصلت الساقية إلي إرتريا في تسني وأغردات بنفس الأسماء النوبية، وبجانب الساقية كانت هناك آلة صغيرة تسمى (كيه) أو الشادوف، وكما هي واضحة في الصورة ففكرتها بسيطة، تتلخص في عودين من الخشب مثبتتين موصولتين بعارضة من الخشب، وتربط في وسط العارضة خشبة أخرى طويلة في طرف منها يربط جردل لغرف الماء، وفي الطرف الآخر كتلة ثقيلة. من



الطين اليابس، وعندما ترفع تلك الكتلة إلي أعلي ينزل الجردل في الماء ويمتلئ، ثم تضغط الكتلة إلي أسفل فيرتفع الجردل فتمسك به



وتفرغه في الجدول. وهكذا، هي عملية مرهقة للغاية، ولذلك كان الشادوف يستعمل في زراعة مساحة صغيرة للخضار. والشادوف الوحيد الذي شاهده أبناء جيلي في بدين كان في جروف العنابيچ . وكان يديره المرحوم عبداللطيف (أخضر).

(الصورة على اليسار لبعض الأدوات الزراعية وهي مأخوذة من متحف كرمة). كان كل العمل الزراعي يتم يدوياً كما ذكرت، بدءاً من حراثة الأرض وتسويتها ورفع أحواضها ورش البذور وتغطيتها، والسهر علي سقايتها وحراستها وتنظيفها من الحشائش المتطفلة، وتنظيف هذه الحشائش كانت مناسبة طيبة لمن يملكون بهائم ولا يملكون زراعة، ففي نفس الوقت الذي يؤدون فيه خدمة لصاحب الزراعة كانوا يوفرّون غذاءً لبهائمهم، كانت الزراعة تأخذ كل وقت المزارع، إذ كان عليه أن يبقى فوق أرضه وزرعه أطول وقت ممكن من اليوم، وغياب يوم واحد لم يكن ممكناً. حتي أنه كان يقال (تُربا تلنين أجمن) أي أن التريال . من كثرة إنشغاله . لا يتمكن من البكاء الحداد علي أمه المتوفاة، وكانوا في الزراعة يتعاملون بالأشهر القبطية ، كانت اللغة القبطية هي اللغة الرسمية للممالك النوبية لفترة طويلة، وكانت الكتابات تتم بها، وسوف نتحدث عن ذلك في فقرة لاحقة عندما يأتي الحديث عن اللغة النوبية، عموماً في الزراعة اعتمد المزارع النوبي علي الشهور القمرية القبطية ، وهي كالآتي:

1. توت	سبتمبر / أكتوبر
2. بابه	أكتوبر / نوفمبر
3. هاتور	نوفمبر / ديسمبر
4. كهك	ديسمبر / يناير
5. توبه	يناير / فبراير
6. أمشير	فبراير / مارس
7. برمبات	مارس / أبريل
8. براموده	أبريل / مايو
9. بشنس	مايو / يونيو
10. يؤونة	يونيو / يوليو
11. أبيب	يوليو / أغسطس
12. ممري	أغسطس / سبتمبر.

في عام 1948 صدر قانون الجمعيات التعاونية ، وكانت الفكرة فيما يختص بالزراعة هي دمج المزارع الصغيرة في مشروع واحد كبير ذو جدوى إقتصادية أكبر، يستخدم المضخات التي تعمل بمشتقات النفط، وهكذا قامت المشاريع الزراعية الكبيرة ، من ضمنها مشروع شبة وتشي الزراعي في بدين ، ومشروع آخر في مسقدان ، ومشروع شبة وتشي قام في 1948 . بماكينات ضخمة تم جلبها من إنجلترا ، وقد تعاقب عليه عدد من (الأسطوانات) أشهرهم هو الأسطى

سعد ، من أبناء دنقلا المدينة على ما أعتقد ، وقد أقام في بدين مدة طويلة ، وكون أسرة كبيرة . وقد درس أبناؤه محمد سعد ومصطفى سعد معنا في مدرسة شبة ، وقد إستمر المشروع يعمل بكفاءة عبر السنين . ووضع للمشروع قوانين ولوائح دقيقة تفصل العلاقة بين إدارة المشروع والمزارع ، وكان من نتائج المشروع أن المساحات المزروعة أصبحت كبيرة جداً بدلاً من المساحات الصغيرة التي كانت تزرع عن طريق السواقي . وانضم معظم المزارعون للمشروع . وهناك من جلب مضخات (بواير) صغيرة (دوانكي) ومفردها دونكي) ركبوها في متراهم. والمتر بكسر الميم وفتح الباء مع التشديد، أصلاً هي البئر، وصارت تطلق على الأراضي التي تسقى بماء بئر عوضاً عن ماء النهر، وكان البعض يحفر المتر/ البئر على مسافة قريبة من النهر ويملاها ماء بجداول يأتي من ساقية صغيرة تسمى "كلو تود"، ويقال أنَّ كلمة (دونكي) Donkey .و هو تسمية شعبية إنجليزية لهذه الآلة البخارية . يقال أنه وعند قيام الثورة الصناعية في إنجلترا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، عجب العمال الزراعيون الإنجليز لأمر هذه الآلة التي تعمل طويلاً و بلا كلل ولا ملل مثل الحمار . مقارنة بالإنسان ذو القدرات المحدودة . وخافوا من أن تحل محلهم وتؤثر على أرباحهم . ونظروا إليها بشئ من الإحتقار والغيط وأطلقوا عليها إسم (دونكي) أي الحمارا . ولكن الجمع (دوانكي) هو مصطلح سوداني ، ككثير من المصطلحات المعربة التي دخلت اللغة السودانية كمفردات لا ينتبه الناس إلى أصلها . وعلى كل حال فقد وفر المشروع ترعتي رى كبيرتان ، وتفرعت من الترعتين جداول صغيرة (امتدت إلى داخل المزارع ، وهكذا فقد أصبح المشروع هو شريان الحياة الذي إعتد الناس عليه في معاشهم . وأختفت السواقي التي كانت حنينة الصوت . وإمتلأ الأثير بصوت الوابور الغليظ الذي يوقظ الناس مع الفجر . ثم صوت الدوانكي المطفقة ، ولكن . وفي كل العهود ، عاش الناس متحابين متعاونين . كانت هناك وما زالت إشتراكية فطرية في مجتمعهم البسيط ، لم يكن هناك جائع ولا سائل ولا محروم، ولا من يعدم غذاء ولا كساء ولا سكن. الكل بالكل. والكل أهل وصحاب. الكبير موقر ومطاع، والصغير إبن الجميع. لا شرطة ولا قضاة ولا محاكم. يتحاكمون إلى بعضهم البعض، وإذا إستدعي الأمر تدخل العمدة. فيتصافون إحتراماً له. وأشهر عُمد الجزيرة هو العمدة محبوب. الذي كان ذو شخصية أمرة زاجرة. فإذا قال لك يا ولد أملأ الإبريق. وقلت له (أبا أُمدة أبريق جنقائي) أي الإبريق مليان. يقول لك (فوقجا جنقدا كر) (افرغه وأملاه تاني)

هم الفلاحون الذين قامت الثورات بإسمهم. وبإسمهم سقطت حكومات. عاشوا دون أن يفهموا ما هي الحكومة. وما معني ثورة، هكذا عاشوا في بساطة، يملكون أمرهم جميعاً ، آمنين في سرهم. معافين في بدنهم، عندهم قوت يومهم. سيقنت إليهم الدنيا في شبيبة الزمان فسرتهن. ولم يفتروا بها. أخذوا ما أعطتهم الدنيا علي إستحياء، فكانوا سادتها الفقراء .

كان الأطفال يقضون يومهم بين المدرسة وبعض العمل الزراعي واللعب بين نخلات الجزيرة الباسقات وبين السباحة في عرض النهر. في بعض الأحيان يقضون أكثر يومهم داخل الماء يلعبون (الأبيداد) أي الغطيس. يتسابقون في السباحة. يقطعون النهر من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر ثم يعودون. وهم يقاومون تيار الماء القوي. لا يخافون من التماسيح. ولا الدُّقُر ولا (أمن دال). وهو (كائن) أسطوري كان يقال انه يخرج من الماء ويشرب دماء البشر. (دراكولا). يأكلون (الكجكول) أي الرطب ويشربون من ماء النهر العكر. صحتين وعافية. ماء الـ (ميسوري) (الدميري) كما نطق وهي التي صارت "دميرة" على ألسنة النوبة المستعربين، أو الفيضان إن اردنا التعريب. ماء طيني عكر لو شرب منه أبناء سام لقضي عليهم في الحال. يلعبون السججة والتاب والشرّا بتري وفي الليال المقمرات. وبألبا من ليال مقمرات. كانوا يلعبون (الدكي والكود والنّافابتري). شقاوة طفولة ممتعة. والطفولة في الريف تختلف عنها في المدن. إذ في الريف يحس الطفل بالانتماء الجماعي أكثر من المدن. فكل أطفال الحي من أسرة واحدة. أبناء عمومة وخوولة. وكل كبار الحي أما أعمام أو أخوال (خيالن). وهذا التداخل الأسري ينمى في أطفال الريف حميمية وتقارباً. كما أن وجودهم أمام أعين الكبار من الأعمام والأخوال والعفّات والخالات طوال الوقت يقلل من احتمالات تعلم سلوكيات وألفاظ سوقية. كما أنه ينمى فهم إحترام الكبير والتّذب أمامه. أكثر من أطفال المدن. وتربية الريف أفضل للطفل من تربية المدينة. وعلى كل حال فبعد أن سافرنا وإغترينا. وعندما نعود في إجازتنا نقف في تلك الأماكن متمثلين أبيات إيليا :-

وطن النجوم أنا هنا... حدّقْ أتذكّر من أنا؟
المحت في الماضي البعيد .. فتى غريباً أرعنا
جدلان يمرح في حقو... لك كالتسيم مُدندنا
المقتنى المملوك مل... عبّه. وغير المقتنى
يتسلّق الأشجار لا ... ضجراً يحس ولا ولى
و يعود بالأغصان يب... ربها مهيّوفا أوقنا
ويغوض في وحل الشتاء ... مهلاً مُتيمنا
لا يتقي شر العيون ... ولا يخافُ الألسنا
أنا ذلك الولد الذي... دنياه كانت ها هنا
أنا من طيورك بلبل... غنى بمجدك واغتني
ولكم نَشيطن. كي يقول الناس عنه : نشيطنا!

نقف هناك، نستعيد الذكرى. نتساءل هل كان أجدر بنا أن لا نسافر، أن لا نفترّب، أن لا نبتعد، هل كنا نقيم هناك فننقي سعداء كالذين أقاموا وسعدوا، هل كل الذي تعلمناه، وعرفناه، ورأيناه في الغربة أفادنا؟ لا أدري .

كانت أيام الصبا أيام . ليتها تعود . لا لأخبرها بما فعل المشيب كما تمنى أبو العتاهية . ولكن لأعيش تفاصيلها مرة أخرى . تفاصيل المكان والزمان . وبينهما الحياة . هناك حيث كانت الليالي صافيات، منعشات، هادئات، و كأن القمر قد سكب علي تلك البقعة كل ضوئه، فتكاد تقرأ كتاباً علي وجهه، والطقس صافٍ ونظيف، خال من كل شائبة، وال نسيم بارد عليل، يُهبُ عليك من أطراف الجزيرة حاملاً صوت صفقة هنا أو زغرودة هناك، وصوت وردي أو الشفيع أو عثمان حسين ينبعث شجياً من المذياع . وصوت نغاء أو مواء أو نهيق يقول لك أنها أيضاً تستمتع بسحر الليل، واوركسترا كاملة من الضفادع تعزف مقطوعة التناسل، وصباح ديك متعّب، نام ميكراً، ربما بعد يوم حافل، فاختلط عليه الوقت فلم يعرف الفجر، ومثله نسميه بالنوبية (كُكُول فجركا إربمَيّ) يعني الديك الذي لا يعرف الصبح، وصوت الشلال عند رأس الجزيرة يحكي عن سهر النيل، يختلط كل ذلك عند الفجر بصوت المآذن ينادي الي الصلاة والفلاح، وصوت الدواكي ينادي الي العمل، وعند الشروق تنضم الطيور الي تلك السمفونية بشقيقة عذبة، فيصحو البشر وتذب الحركة وتبدأ البلدة فعاليات يوم جديد، تلك الأيام من عمري خوالد في ذاكرتي، ورغم البعد الزماني والمكاني من هناك، إلا أن يومي يبدأ وينتهي بذكريات بدين، تفاصيل الطفولة والصبا لا تفارق مخيلتي، أتذكر مراتع اللعب في ثل الرمل (سيون دُكَيّ) أمام منزل جدنا النذير عبدالقادر، كنا نسميه يوه عجابين سيو، أتذكر الخلوة والمدرسة، والمدائح النبوية وليالي الذكر، أتذكر صوت البايور وصوت البربخ، صوت الساقية والنورج، أشم رائحة مزارع القمح والفلول والبرسيم، رائحة أشجار النيم عند الغروب، مراحات البقر والغنم، برد أمشير ورياحه، وتلك الحشرة الشتوية المزعجة، ال (كُيّ ماج أو النيمَيّ) التي كنا نرتدي لتفاديها أكياسا من القماش الشفاف على رؤوسنا نسميها ال (كتن قبا)، أصوات الهائم وهي تتناغي أو تحتج علي الجوع، أصوات الزغاريد في الأفراح، أصوات البكاء والنواح في الأتراح، أصوات النساء وهن يعانين من ألم المخاض، طعم (القَلَو) التمر الأخضر (الهمبو) الدوم، كل ذلك يمر بخاطري كل يوم، لا أحلم قط إلا بذكريات البلد، فهل من عودة هل؟

هذا وكان لي صاحب رفيق الحال، مغرم بالنيل أي غرام، يعيش الليل أي عشق، كان يقضي الساعات علي الشاطئ ليلاً، في ذلك الجو الهادئ الممتع الجميل، هو والليل والنيل والقمر، و اسماك صغيرة تقفز من الماء ثم تغطس فيه، محدثة صوتاً نغماً يسبل الأذن شجياً، ثم يقفي صاحبنا في مناجاة حورية تراءى له فوق سطح الماء أمامه، فلا يكاد يستبنيها حتي تختفي، لتظهر عن يمينه، وتغمره بإبتسامة عذبة كالطفولة، دافقة كالشلال، فيكاد يقفز فوق سطح الماء، فتختفي، لتظهر عن شماله، وما أن يلتفت حتي تختفي ثم لا تبين، فيطول ليله ويطول، و(ليل العاشقين طويل).

كانت الجزيرة تتبع إداريا لمجلس ريفي أرقو، الذي يخضع بدوره لسلطة "مركز دنقلا"، وأرقو لي فيها ذكريات، فقد كانت أسرنا من (خلفاء) الأدارسة. وهم يقولون أنهم من أشرف الحجاز، وكنا نجمع لهم محصول البلح، وكان العادة عندنا أن المزارعين وأصحاب الحواشات كانوا يهدون نخلة أو اثنتين للأشراف، طلباً للبركة، وتقرباً لله، وكان لهم خلفاء أو وكلاء في كل منطقة يقومون علي هذه الممتلكات والهبات بالرعاية وجمع المحصول في الموسم. وزرت مع والدي في أرقو بيوت الأشراف، أو الأسياد، أسرة السيد الإدريسي فرع أرقو. وكان في الأمر إستغلال للبسطاء، وقد تمردت علي ذلك الحال لاحقا، (وتلك قضية أخرى، وما أكثر القضايا الأخرى). فمثلا لم يكن والدي يسمح لنا بأخذ بلحة واحدة من محصول "سيدي" كنا نتعب في جمعه دون مقابل، ألا رحمه الله، فقد علمنا الصديق والأمانة، وكانت له ارتباطات روحية وأسرية بتلك المناطق تمتد حتي بلدة "شيخ شريف"، وكانت هناك صداقة أسرية وزمالة خلوة تربط أسرنا مع أسرة الشيخ الكبير (حسن بجة) في التربة، وخلوة الشيخ حسن بجة من أكبر وأقدم الخلاوي في المنطقة كلها. ويقدر عمرها بأكثر من 800 عام، أي قبل ان يصبح الاسلام دين الدولة النوبية الرسمي، وكان يقوم عليها اجداد الشيخ حسن، ولم تزل الخلوة موجودة حتي الآن. ويشرف عليها الآن عمنا الشيخ أحمد كامل حسن بجة. وكان الأستاذ الطيب محمد الطيب قد سجل حلقة عن الخلوة في برنامجه (صور شعبية) عرضت في تلفزيون السودان، كما ان الأستاذ الطيب قد ذكر هذه الخلوة في كتابه القيم (المسيد). وفي عهد مايو أخذت بعض الأشياء



من الخلوة الي متحف الخليفة عبدالله التعايشي، منها (جريد أنقري) أو (أنقري دوول) أي (السريير الكبير)، وهو عنقريب/سريير ضخمة ووسيع وارتفاعه عن الأرض كان نحو متر تقريبا، وكان نظيره موجوداً في كل الخلاوي، وكان يستعمل لأغراض كثيرة، والشيخ حسن بجة هو جد أخينا مهدي الخليفة محمد نور، ووالده هو الشيخ محمد نور المقرئ المعروف، وسوف آتي علي ذكر الخلاوي في بدين والمنطقة في فقرة لاحقة .

في زمن العموديات كانت في الجزيرة عموديتان،

عمودية سقدان وعمودية توشي/شبه، وعلاقة سقدان ببقية الجزيرة عجيبة، هي إحدى مشيخات بدين الخمس ، وليست جزيرة منفصلة ، ولكنها وإلى عهد قريب كانت تنفصل في مواسم الفيضانات. لأن نهر موسميا كان يشق جزيرة بدين ويجعل من سقدان جزيرة موسمية، كما كان هناك نهر آخر يسمى "فاسي" يجعل من عثمان أرقي جزيرة موسمية. ولذلك أبقت علي اسم جزيرة سقدان، مع انها الآن ليست جزيرة ولم تعد تنفصل حتي في الفيضانات الكبيرة ، بعد أن أحكم الأهالي سد المجرى بحيث لا يخرج النهر عن مساره حتي في أعنى الفيضانات، عمودية سقدان كان أول عمدة لها العمدة حمد حاكم وخلفه العمدة محمد حمدالله ابراهيم الى ان تم حل النظارة

والعموديات في الشمال في بدايات نظام جعفر نميري العسكري الشهير بـ"نظام مايو" نسبة للشهر الذي حدث فيه انقلابه العسكري عام 1969 . وأول شيخ لشيخاة سقدان هو الشيخ فضل حاكم وخلفه ابنه شريف فضل حاكم ومن ثم حفيده الشيخ عبدالرحيم محمد فضل حاكم في بداية نظام "الاتقاذ" وهي التسمية التي أطلقها الاسلاميون على حكمهم بعد وصولهم السلطة بانقلاب عسكري في 30 يونيو 1989.

أما عمودية بدين فكانت بقيادة العمدة محجوب عبدالكريم. كان يُعرف بإسمه الأول (عمدة محجوب). وعند تصفية الإدارة الأهلية في العام 1969 بقيت في الجزيرة خمس شيخايات. هي بالترتيب من الجنوب إلى الشمال سلنارتي وسقدان وثشي وشبة. ثم شيخاة جزيرة دقرتي. حتي جاءت اللجان الشعبية. وما أدراك ما اللجان الشعبية

من الملاحظ ان أهل الجزيرة من المجموعات التي أبقت علي العادات والتقاليد النوبية حتى إلى عهد قريب. بل وحتى الآن. وبحكم أن الجزيرة كانت شبه معزولة. وكان إختلاط أهلها بأهل (البر) شرقاً وغرباً. إختلاطاً محدوداً. فلم يكونوا يخرجون من الجزيرة إلا نادراً. إما لمسفر أو لعلاج. وهناك أناس كثيرون ولدوا وتوفوا دون أن يروا البر وما فيه. وإبقاء اللغة النوبية حية ساعد كثيراً علي إبقاء الثقافة النوبية. فالكلام بالعربية. كان لفترات قريبة "فلسفة" غير محببة. ولم يكن بإمكان الشباب المتعلم أن يتحدث مع الكبار باللغة العربية. كان تصرفاً غير مقبول وغير لائق . مثلاً جدتي من أمي كان اسمها خديجة. ولكنها لم تكن تعرف ان اسمها خديجة. ولم تكن تعرف من هي خديجة اصلاً. ولو ناداها شخص باسمها الأصلي جاء الاسم "هجييجي". كنا نناديها (يوة ختي) (يوة او يو) يعني الأم. كانت يوة حجي نوبية (قح). ولم تكن تصدق أن هناك في الدنيا من لا يوطن. لأنها كانت تعتبر اللغة العربية لغة دخيلة. لغة يتفلسف بها أولاد المدارس. فهي لغة المدرسة ولا لزوم لها في البيت. وكانت تتضايق تماماً إذا تحدثنا أمامها بالعربية. ولم تتحدث هي بالعربية إطلاقاً. ولم تكن تفهم منها لا قليلاً ولا كثيراً. وكان الناس عندنا يستمعون للإذاعة لمتابعة أخبار الوفيات. وكانوا يسمون فقررة الوفيات في نشرة أخبار الثامنة مساء والتي كانت تقتصر على الأخبار المحلية (تُوفيا). وهذه هي الفقرة الوحيدة التي كانت تهمهم من كل أخبار الدنيا. وكانت يوة حجي تستمع للمذيع كل ليلة وهو يقول (توفيت فلانة حرم الأستاذ فلان. توفيت فلانة حرم السيد علان. حرم.....حرم.....حرم) فما كان منها إلا أن سألت بالنوبية (انتو يا جماعة نسوان الخرطوم ديل كلهم اسمهم حرم؟) . وليقل لي كل الذين يدعون العروبة كيف كان يمكن تعريب جدتي هذه؟. كان الناس بالنسبة لجدتي ينقسمون الي ثلاثة أصناف لا رابع لهم. إما نوبي. أو عربي. أو نُقُذ. يعني من به سواد. لم تكن تقبل أن نقول أننا عرب. كان هذا الكلام مثل الشتيمة بالنسبة لها. وأنا من شيعة جدتي في مسألة العروبة. فنحن لسنا عربا. ليس فينا من العروبة غير اللغة والأسماء. التي تبنيناها بحكم أننا مسلمون. ولا شئ هناك يجعلنا نستجدي الإلتناء العربي من العرب. الذين لا يعترفون بنا أصلاً كجزء من نسيجهم الإثني أو الثقافي. فنحن نوبة ودمائنا نوبية. وهذه قضية تحتاج الي وقفة . فعند الحديث عن إتفاقية البقط . ذكرت أن الإتفاقية نصت علي ألا يدخل المسلمون بلاد النوبة (المسيحية وقتها) إلا مجتازين غير

مقيمين ، وألا يدخل النوبة بلاد المسلمين إلا مجتازين غير مقيمين ، ولذلك وتاريخياً لا يمكن نسب النوبة الحاليين الي أجداد عرب . كالحديث عن أن سكان بدين ينتسبون الي فلان أو علان من العرب . فكل مناطق النوبة كانت مأهولة بالسكان لآلاف السنين . ولم تكن هناك قسحة من الأرض تصلح لاستيعاب العرب البدو المهاجرين من مصر حتي يتخذها العرب ويتوالدوا فيها ، فمجرى النهر في ديار النوبة مخنوق بالصحراء شرقا وغربا ، والرقعة الزراعية حوله ضيقة لا تتسع حتى لأهلها الأصليين ، فكيف يمكن نسب سكان محليين كانوا موجودين منذ فجر التاريخ . كيف يمكن نسبهم الي عدد قليل من الغزاة القادمين ، رضيينا أم ابينا فقد ورثنا الموروث الثقافي العربي لأتينا ورثنا اللغة والدين ، ولنا أن نتفاخر بالإنتماء الي الثقافة الإسلامية ، ولكن لا يجدر بنا إدعاء الإنتماء العرقي العربي ، فالعرق هو العرق ، والعرق ليس إمتيازاً ، بل ميزة ، وليس هناك عرق صافٍ وعرق معكر ، ولا عرق راقٍ وعرق منحط . إعتقاداً علي قول الرسول (ص) نفسه ، إذ يقول لا فضل علي عربي ولا عجمي إلا بالتقوي ، ومن الجحد الكبير التنكر لعرقنا النوبي ، ولو كنا من أبناء العرب لتحديثنا العربية بالميلاد ، واستمرار التحدث باللغة النوبة ، والحفاظ عليها الي الآن . يدل علي أن التأثير العربي علي مناطق النوبة كان تأثيراً طفيفاً ، وكل الذي حدث أنه وعندما جاء الإسلام قامت بعض الخلاوي في مناطق متباعدة من بلاد النوبة . سافر إليها بعض أبناء النوبة وحفظوا فيها القرآن . وبدورهم عادوا الي مناطقهم الأصلية وفتحوا فيها الخلاوي . وهكذا إنتشر الإسلام ، وإنتشرت معه الأسماء العربية . فقد كان الناس عندما يسمون يستبدلون أسمائهم بأسماء عربية بإعتبارها أسماء إسلامية ، ثم أخذوا في تسمية أبنائهم بتلك الأسماء ، وهكذا إختفت الأسماء النوبية وإنتشرت الأسماء العربية ، وبدأت اللغة العربية في الإنتشار ببطء شديد وما زال إنتشارها بطيئاً حتي يومنا هذا ، ولم يكن للعرب وجود إلا في مناطق محدودة وبعدد قليل جداً ، ولم يتم الزواج بين العرب والنوبة إلا في حالات نادرة ، والغريب في الأمر أن أسماء نسائية نوبية ظلت وما تزال مستخدمة (مسكة ، هوّله ، نفرين ، هجلة ، دانه ، دوانه ، شيره ، جوقه ، أليسا)

فكيف يمكن القول بأن أجداد النوبة الحاليين عرب ، هذا حديث ، بجانب أنه غير صحيح وغير موضوعي ، فإنه إدعاء سخيف لا لزوم له أصلاً ، وفي رأيي الشخصي فالتفسير الوحيد لهذا الإنتساب هي نظرية (الغريب الحكيم) أو (الرجل المبارك) كما يقول المؤرخ (هولت) ، إذ يوضح أن الناس عادة يحاولون الإنتساب الي من يعتبرونه مميزاً إما لدين أو مال أو جاه أو عرق أو لون ، كما كان معظم العرب في الماضي يحاولون الإنتماء الي قريش لمكانتها بينهم . والحقيقة أن الإحساس بالدونية الذي يؤدي إلى محاكاة الغزاي الغريب ومحاولة الإنتساب إليه والتسمي بأسمائه حدث في أماكن عدة في العالم ، إذ في كثير من الدول التي فُتحت أو أُستعمرت ترك السكان أسمائهم الأصلية وتسموا بإسماء الغزاي ، ولدينا في السودان اسماء كثيرة استخدمتها عائلات سودانية أصيلة نقلا عن الاتراك مثل شوكت وفرحات وهمت . حدث ذلك في كثير من الدول الأفريقية إذ هناك الآن أسماء إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية للناس والمناطق في أفريقيا ، وينطبق ذلك في كثير من جزر المحيطات كاليهاما وهاييتي وجمايكا ، كما ينطبق ذلك على السكان الأصليين في كندا وأمريكا وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها ، والكثيرون في هذه الأماكن المذكورة لا يتحدثون إلا

لغة المستعمر. ولكنهم لا يدعون إى إنتماء عرقى لذلك المستعمر. ولكن الناس عندنا يحتجون (بالتزاوج) بين العرب والنوبة. ولنقل أن هذا التزاوج قد حدث. ولنقل أن ثلاثة أو أربعة من أبناء أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي أو غلام الله بن عابد. أو جابر الأنصاري هاجروا إلى السودان وأستقروا في بلاد النوبة. ولنقل أنهم جاؤوا بأنفسهم بدون زوجات. وتزوجوا نساء نوبيات. كم من نساء النوبة تزوجوا. لنقل أن كل واحد منهم وحسب الشرع تزوج أربعة. هل هذه الزيجات المحدودة هي التي أدخلت الدم العربي في كل سكان النوبة. حتى في كتابة التاريخ أو البحث فيه فالمسألة تحتاج إلى إستعمال بعض التفكير البديهي. إذاً يمكن أن يكون هناك بعض الأسر في بدين أو غيرها من مناطق النوبة تنتمى نسبياً إلى أحد أبناء أو أحفاد هذا الجابر الأنصاري. ولكن أن نقول أن أجداد سكان النوبة أفراد من قبائل عربية فحديث لا يستقيم. وهناك من يقول أن (مركز الجوابرة في السودان هي جزيرة بدين) وأن سكان بدين ينتسبون إلى (جابر الأنصاري). وأنا حقيقة أستاذ من سماع مثل هذه الأقوال الضحلة. حتى لو إستندت هذه الأقوال إلى بعض المراجع الكبيرة. فليس كل ما في هذه المراجع صحيح. فالتشكيك في بعض ماورد في هذه المراجع سهل جداً. ولا يمكن للبحث أن يتركز في الوصول إلى الجذ العربي. وإذا عدنا إلى المراجع فإن من أهم المراجع كتاب مكاميل (تاريخ العرب في السودان) وهو يقول أن المحس الأصليين الذين يعيشون في منطقة الجنادل. بين دنقلا وحلفا. ليسوا بطبيعة الحال عرباً. وهو في التقرير يعتمد على شواهد كثيرة. ثم أن هؤلاء المنتسبون يقولون أن هجرة أحفاد جابر الأنصاري حدثت في القرن السابع الهجري. ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري. إذا المدة التي نتحدث عنها لا تتجاوز السبعمئة عام. ثم أننا (في أحسن الإفتراضات) نتحدث عما لا يزيد على العشرة أشخاص من أبناء العرب الذين إستقروا في المنطقة النوبية. وحسب تحليل (المستعربين) فقد تمكن عشرة رجال وفي مدة لا تتجاوز السبعمئة عام من تحويل العرق النوبي إلى عرق عربي. وبذلك فقد أصبحوا (أجدادنا) الذين ننسب أنفسنا إليهم. وإذا أخذت المنطقة من حلفا إلى القولد يدعى السكان الإنتماء إلى جابر الأنصاري لدرجة أن سكان كل قرية يقولون أنهم (جوابرة). وفي أكثر الأقوال (المعتمدة) لدى بعض الإخوة فقد وصل إلى المنطقة ثلاثة من أحفاد جابر الأنصاري. أكبرهم الشيخ (فقير عيسي) والذي إستقر بقرية موركة بجزيرة ساي/صاي. وثانهم (الشيخ زمرائي) وقد إستقر بمنطقة كرمه. أما ثالث الثلاثة فهو الشيخ منور وقد أستقر في الوادي الواقع جنوب كرمه والتي كانت تعرف بوادي الشيخ منور. وأول ما يمكن ملاحظته هو الأسماء. فلا أعتقد أن هذه الأسماء من أسماء سكان الجزيرة عربية. وهناك سيناريو آخر يقول بأن أول من دخل من الجوابرة الي أرض دنقلا هو الإمام نفع ابن عامر وجاء بصحبته ابن أخيه النور ابن عطيه وابن أخيه سالم بن عبد الله وذلك سنة 735هجرية. والأمير نفع واولاده سكنوا بأرض الحفير ومشو ثم بكابتود غرب جزيرة مقاصر. وهناك من يدعى الإنتماء إلى (غلام الله بن عابد) ثم هناك إلى الجنوب من منطقة النوبة من يدعى الإنتماء إلى نفس جابر الأنصاري. وهناك من يدعى الإنتمساب إلى (العباس بن عبدالمطلب). وهذا أهون ممن يدعون الإنتمساب مباشرة إلى البيت النبوي الشريف. وقد وجدت في بعض المنتديات النوبية من (سلسل) هذه الأنساب منتهياً بجابر الأنصاري بإعتباره

الجد الثالث والأربعين . طبعاً هذا لا يستقيم رياضياً/حسابياً. ثم أورد أحدهم تعريفاً بهذا الصحابي . فقال إن اسمه هو جابر بن عبدالله الأنصاري . ثم قال . ((وقد دعا له الرسول (ص) يوماً قائلاً جبرك الله يا جابر كما جبرت الأسلام) وقد أستجاب الله سبحانه وتعالى دعوة الرسول(ص) فظهرت له كرامات بعد سنوات طويلة من وفاته...استشهد الصحابي الجليل جابر الانصاري في غزوة أحد ودفن في بقيع الفرقد مع الصحابي الجليل عمر ابن الجموح في قبر واحد وبعد أربعين عاماً من دفنهم نزل سيل وجرف مقابر البقيع بما فيها قبر الصحابين الجليلين فكتشف أرجلهما فكانت سليمة فأستدعي الصحابه أبنه عبد الله فحفر قبراً جديداً لوالده جابر ونقله إليه وبعد مرور سنوات وفي عهد معاوية ابن أبي سفيان أمر معاوية عماله لزراعة قطعة من الأرض في ذات الموقع ولم يكن يدري بأن بها قبر الصحابي الجليل فصادف أحد العمال قبر الصحابي الجليل أثناء الحفر وبتر أحدي أصابع قدميه فتدفق الدم وكأنه جرح بجسد انسان حي فأمر معاوية بتضميد الجرح ونظافته وربطه حتي برء ثم أمر بوقف الزرع وأعيد دفنهما مرة أخرى)) إنتهى نص حديث الأخ والذي نقلته كما هو . هذا الحديث العجيب والذي لا يصدقه عقل . ليس إلا أسطورة تمت كتابتها لإضفاء قداسة على الرجل الذي ينتسبون إليه . وتكملة لحديث العجائب والغرائب فإنني أورد بعض الأساطير الأخرى الخاصة بالصحابة والتابعين والشيوخ الذين يُقال أنهم هاجروا إلى المنطقة النوبية وماتوا ودفنوا بها. وبعض هؤلاء الصحابة ثابت تاريخياً في كتب التراث أنهم ماتوا في الجزيرة العربية أو بأرض الشام . ولكن الأساطير النوبية تصر على أنهم مدفونون عندنا . منهم الشيخ المغيرة بن شعبة الذي يقال أنه مدفون في منطقة عمارة شمال عبرى . ويحكى عنه العجائب من الكرامات . ثم هناك الصحابي عكاشة . الذي يقال أنه مدفون في المنطقة المعروفة بإسمه في السكوت . ويعرفه البعض بالصحابي عكاشة بن محصن . ولوجوده هناك روايتان . الرواية الأولى تقول أن المدفون هناك هو (رأس) عكاشة . وتقول الرواية أن أحدهم في المنطقة رأى في منامه ضوءاً يتلألأ في النيل . سمع صوتاً يقول إنَّه عكاشة بن محصن يُريد أن يُدفن في منطقتكم . فنهَّب من نومه وذهب إلى الجامع وبعد الصلاة حكى للناس ما رأى وسمع . فذهبوا إلى النيل ووجدوا رأس إنسان . ولكنهم اختلفوا أين يدفنون رأس الصحابي . فتحرك الرأس وإنعشر بين صخرتين ولم يتمكَّنوا من إخراجهِ فقرروا أن الصحابي إختار مكانه بنفسه هنا بين الصُخُور . فبنوا عليه قبة هناك. أما الرواية الأخرى فتقول أن الصحابي مدفون هناك بجسده الكامل . إذ عندما ذهب الناس إلى النيل حسب رؤيا الرجل لم يجدوا الرأس فحسب . بل وجدوا الجثة كاملة فوق صخرة كبيرة . وعندما اختلف الناس أين يُدفن . إنشقت الصخرة وانفتح فيه قبر ونزلت الجثة ثم عادت الصخرة إلى سيرتها الأولى . فبنوا له مزاراً هناك . وهذه أمثلة بسيطة . وهكذا كل الروايات التي تتحدث عن صحابة مدفونين في المناطق المختلفة على إمتداد الأرض النوبية . وهي كلها ليست إلا صور خيالية شعبية نسجها الناس . ولا تنطبق على المنطقة النوبية فقط . بل أنها تمتد إلى مناطق السودان المختلفة . بل العالم الإسلامي كله . وغالبية القُبب والمزارات مبنية على فكرة (البيان) والبيان هو أن يعتقد أحدهم أو إحداهن أن الشيخ فلان بن فلان تبن له أولها في (المنام) في مكان معين . أى أنه ظهر . ويكون البيان في صورة نبع من الماء أو جذوة من النار أو جثة تتلألأ .

فيبتنى الناس لهذا الشيخ قبة ويصبح المكان مزاراً ومكاناً للبركة والتذر. وعلى كل حال فلو كان ما يقال عن ان النوبيين المعاصرين او أسلافهم عبر القرون الأخيرة يتحدرون عن أجداد عرب دعاة وعارفين بالدين. لورث الأحفاد عن أجدادهم اللغة العربية وملاح أهل نجد وعسير.

قلتُ أن الرقم سبعة في التراث النوبي يحتاج الي بحث ، وما أورده هنا عن الرقم سبعة ليس بحثاً ، إنما محاولة لإظهار بعض خصائصه . والحقيقة أن الرقم سبعة محاط بسرية وتقديس غريب في كل الحضارات منذ فجر التاريخ الإنساني . فهو يتمتع بميزة خاصة في كل الديانات السماوية والمعتقدات الإنسانية . ولا تخلو أي حضارة أو فكر من خصوصية للرقم سبعة . و(الميثولوجيا) أي الأساطير المتعلقة بالعدد سبعة متوفرة عند كل الفرق الدينية والفكرية . في كل الحضارات عبر التاريخ، عند الرومان والفرس . وعند كل الشعوب الآسيوية بفرقهم الكثيرة . وأمنت شعوب الشرق الأقصى . والشعوب السامية . والإغريق . والمصريين القدامي . وشعوب ما بين النهرين بالسبعة عدداً مقدساً ، واعتقدوا في الرمزية التي يجسدها هذا العدد . وكانوا ينسبونه الي الشمس وقوي النور . وعند كل هذه الحضارات غير واضح لماذا قدس العدد سبعة وما سرها . ربما لأن عدد السيارات سبعة (الكواكب) . والي أن الله عز وجل خلق السموات والأرض في ستة أيام . ثم إستوي علي العرش في اليوم السابع . ولذلك يسود اعتقاد عام بأن الأصل في الجذر (سبع) هو التمام والكمال والإكتفاء والإمتلاء . وهذا اعتقاد قديم موجود في كل الديانات المعروفة لدينا بالديانات السماوية . كما أنه اعتقاد موجود في {المعتقدات} الإنسانية الأخرى . كما أن مفهوم السبعة آلهة والسبعة أرواح موجود في المعتقدات قديمها وحديثها . وفي المسيحية فإن العدد سبعة يرمز للنعزبة . وللكمال . وعدد الخلق . والتطور الكوني . كما أنه رمز الراحة الخالدة والقيامة . وينقسم العالم في المسيحية الي سبعة عصور . الأول من آدم الي الطوفان . الثاني من الطوفان الي إبراهيم . الثالث من إبراهيم الي موسي . الرابع من موسي الي داوود . الخامس من داوود الي جلاء بابل . السادس من جلاء بابل الي المسيح . والسابع من السيد المسيح الي نهاية الدهر . وهو عصر النعمة . وعندهم الصلاة الربانية سبعة . الأسرار المقدسة سبعة . والفضائل سبعة . والخطايا الرئيسية سبعة . والوصايا المعاكسة سبعة . ومزامير التوبة سبعة . وقد ورد ذكر السبعات في الكتاب المقدس أكثر من ستمائة مرة . وتعبير (عمل السبعة وذمتها) جاءنا من عند المسيحيين . وهم يعنون به أن الفواحش السبعة ثابتة في ذمة الرجل الذي عصي الوصايا . المصربون القدماء قالوا أن الأخطاء سبعة وان لكل خطأ 7 فضاة يحاسب موتاهم عليها على هيكل مسيع الأضلاع . وتوزن الخطايا بسبعة أوزان . ويمر الميت بسبع مراحل من السؤال . ويقول أرسطوان هضبات الحكمة سبع . وهي الهضبات الواجب تسليقها حتى يبلغ الرجل الحكمة . وقد توصل العلم الحديث الي 7 مستويات مدارية للالكترون . وسبعة مستويات حول النواة . وتوصل العلم الي سبعة ألوان للضوء المرئي . وسبعة اشعاعات للضوء الغير مرئي . والعلامات الموسيقية سبعة . وهي على الترتيب (دو - ري - مي - فا - صول - لا - سي) أما في الديانة اليهودية ففي نهاية كل حلقة من العمر تفتقر الخطايا . وكل حلقة سبعة سنين . ونحن نعلم خصوصية الرقم سبعة في الإسلام . فكلمة القرآن سبعة

أحرف ، ويقرأ القرآن الكريم بقراءات سبع . والشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تتكون من سبع كلمات .
وأيات فاتحة الكتاب سبع آيات ، وهي السبع المثاني ، وكلمة المثاني سبعة أحرف . وآية المثاني تتكون من سبع كلمات
{ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم} وسورة الفاتحة تحوي جميع الأحرف ماعدا سبعة أحرف . هي ث .
ج . خ . ز . ش . ظ . ف . وجاء ذكر السموات السبع في سبع آيات مختلفة . وجاء ذكر الإستواء علي العرش سبع
مرات ، في متتالية رقمية عجيبة . والأرضين السبعة . وسبعة أبحر . والسبع سنابل . والسبع بقرات السماء .
والسبع العجاف . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . وسبع سنين دأباً وسبع شداد . وسبع ليال . وصيام ثلاثة
أيام في الحج وسبعة إذا رجعت . وجهنم لها سبعة أبواب . والموبقات سبع . وأهل الكهف سبعة ثامنهم كليهم .
والذين يظلم الله يوم القيامة سبعة . الطواف سبعة أشواط . والمعوي سبعة . والجسم نفسه حتي يدخل فيه
الروح يمر بسبع مراحل هي السلالة . والنطفة . والعلقة . والمضغة . والعظم . واللحم . والخلق الآخر . وذكر كلمة
{الفرقان} في القرآن سبع مرات . وذكر {بني آدم} سبع مرات . ومجموع المحارم أربعة عشر . سبع نسباً . وسبع صهراً
. حسب سورة النساء . (الآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون) . وفي مسألة نفخ الصور ذكرت كلمة نفخ في
القرآن سبع مرات . وذكرت الجملة {مخلصين له الدين} سبع مرات . وجملة {يخرج من الظلمات الي النور} سبع
مرات . وذكرت كلمة (لا أقسم) سبع مرات . والعدد سبعة عدد فريد حسابياً . فهو لا يقبل القسمة . ولا التحليل
الحسابي . وليس له جذر تربيعي تام . وخصوصية العدد سبعة موجودة في الإقتصاد . والرياضة . والمسرح . والشعر
. والرواية . والموسيقى . والسينما . وتعتقد العرب أن الفنون الرئيسية سبعة . الشعر القريض . الموشح . الدوبيت
. الزجل . الموال . الكان كان والقوما . ومعروف أن المعلقة سبعة . ويذكر أنه كان أمام هبل في جوف الكعبة
سبعة قذح ، وهي الأثرلام . كانت العرب تستقسم بها في كل أمورها.

كان من عادة أهلنا سلق سبع حبات لوبيا ، في إناء فخاري صغير . (كوبيد) وكانت المرأة تدعو وتقول (وو نور أوسكون
ماجلتون نافروحي) يعني احفظ أهل البيت من أعين الحاسدين . ثم يسكبون ماءها في العتبة من الخارج . في الصباح
الباكر . قبل شروق الشمس . وقبل أن يدخل عليهم أحد . وكانوا يسكبون الماء في شكل نصف دائري . وأيضاً كانت
البنات الصغيرات يلبسن سلسلة . معمولة من خيط يُربط حول الرقبة . في هذا الخيط تربط سبع حبات من القرض
تتدلي علي الصدر . وكان هذه العادة تتم قبل عاشوراء بمدة . وفي يوم عاشوراء وإثناء الإحتفال كنّ يرمين بهذا
الخيط مع حبات القرض في النيل . وفي إحتفال عاشوراء كان الرجال يضربون بعضهم البعض . بحبال يشعلون فيها
النيران . او يقطع قماش يربطون فيها حجارة . وكانت تحدث جروحات ونزيف دم . كان الناس يصومون نهراً . وفي
الليل يحملون فتة لبن . ويجمعون كل مواليد السنة من الأطفال ويذهبون بهم الي النيل . ويتم الإحتفال علي الشاطئ
مباشرة . ولابد للناس بالذات الأطفال . لا بد ان يدخلوا الماء ويلبوا أرجلهم . وكانوا يقولون (اشورا فاطنة تود هي
للب) ويبدو ان تلك الإحتفالات كانت خلطة ماين "عيد وفاء النيل" بوصفه منبع الخير . وقابل للهيجان وإحداث

الدمار (ومن ثم تتم ترضيته بإلقاء أول لقمة طعام فيه) وعاشوراء الاسلام وذكرى مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما.

وايضاً من العادات العجيبة في بعض مناطق النوبة، ان البقرة عندما تلد، يصبح لبنها محرماً علي بيت صاحب البقرة لمدة سبعة ايام، ولذلك فكانوا ينادون علي الجيران لشراب ذلك الحليب، وكان الحاج عندما يعود من الحج يعتكف في بيته سبعة ايام، وايضاً من العادات التي كانت متبعة، وفي حالات خسوف القمر او عندما (يختنق) القمر، ويسمي (أنتي كيقل دافي)، في هذه الأحوال كان الناس يخرجون من البيوت إلى الساحات، ويضعون الحجارة المسماة (أبرتي) وهي (الأثافي)(الددايات)، ويشعلون النار ويضعون فوقها حلل كبيرة ويغنون بليلة اللوبيا (أشرنكين أرحي) بكميات كبيرة ، والبليلة تسمى (أرحي) . يعتبرونها كرامة لله، وفي هذه الأثناء كانوا ينشدون اناشيد دينية، ويغنون، وهذه الأناشيد والأغاني كانت فيها كلمات غريبة وغير مفهومة، كانوا يدعون الله أن يخلص القمر من تلك الورطة، وما أن ينقشع القمر حتي يذهب الجميع الي بيوتهم وكلهم امتنان لله الذي إستجاب لدعائهم وتقبل كرامة البليلة.

بالنوبية نقول للرقم سبعة (كُلْدُ) والأرقام كالآتي:-

بالمحسية:	بالدنقلاوية:
1. وبرا	1. وپرو
2. أوو	2. أوي
3. تسكو	3. تسكي
4. كمسو	4. كمسو
5. دجا	5. دجو
6. فرجو	6. فرجو
7. كُلدَا	7. كُلدو
8. إدووا	8. ادوو
9. أسكدا	9. أسكدو
10. دمي	10. دمنو
11. دملأ وبرا	11. دمندو وپرو
12. دملأ أووه	12. دمندو أوي
20. دمي أووه	20. دمن أووي

أما 100 فهي (إميل) وال 1000 (دونال)، ويبدو أن أسماء الأرقام لا علاقة لها لا باليونانية ولا الرومانية ولا القبطية. وهذا دليل آخر علي وجود لغة نوبية صرقة إندرتت، بإهمال أهلها.

في معرض بحثي عن الأشخاص المهتمين بسيرة بدين والتراث النوبي، دلي بعض الأخوة على الأخ معتمصم عبدالفتاح (كدود)، وفعلاً وجدته، رغم صغر سنه، ثر المعلومات، ملم بالكثير، وله إجتهادات شخصية في تفسير بعض العادات وربطها بالقديم، ومن ملاحظاته الذكية، أن التراث بقي عند النساء أكثر منه عند الرجال، ومن المعلومات المفيدة التي قالها الأخ معتمصم أنه قرأ في كتاب إسمه (كوش) لأدريس البنا أن عمر جزيرة بدين ربما ناهز المليون عاماً، وأن هناك بعض القطع الأثرية التي وجدت في بدين ، مرتبطة مباشرة بآثار كرمة (الدفوفة) وربما كانت الجزيرة لاصقة بكرمة كشبه جزيرة، قبل ان تنفصل وتصبح جزيرة، وتوجد في الجزيرة دفوفات صغيرة، ونحن نسميها (دفي)، واحدة في (ابسُقان)، وواحدة في (سابلقي)(ارو سابلن دفي)، ولم تتم اية حفريات في هذه المواقع الأثرية، ولا ندري ماذا تحتها، ومن العادات التي ذكرها الأخ معتمصم، انه عندما تمرض امرأة، وعندما تذهب النساء لزيارتها، كن يقلن لها (ماريا مي) وهي بمثابة كفارة او سلامتك، واجتهاد معتمصم ان الكلمة ربما تعود الي اسم مريم العذراء، وكأنهن ينادين لها مريم، وكَن يقلن أيضاً (شركمي)، أستفدت من معتمصم كثيراً، فله الشكر والعرفان ، ولا يفوتني أن أذكر ايضاً الأخ عوض جمعة محمد على ، وهو رجل يتمتع بذاكرة مذهلة ، ومنذ أن كان طالباً في الابتدائية كان له إهتمامات أدبية ، طورها كثيراً فيما بعد ، إلا أنه في المرحلة الثانوية ذهب إلى مدرسة صناعية ، وعوض . في دفعتنا . من أكثر الذين يحفظون الشعر ، وله موهبة كبيرة في ذلك ، وفي كل مراحل الدراسة كان بارزاً في حصص اللغة العربية ، وكان من المبدعين في كتابة الإنشاء ، وقد كلفتهُ بجمع بعض المعلومات لهذه الإصدار ، فبذل جهداً مقدراً ، له الشكر والعرفان.

من الأشياء التي لم اذكرها، رغم ما فيها من إشارة عجيبة، أن القساسيب، وهي جمع قسيبة، ونحن نسميها (قُسي) وهي كلمة نوبية ومن الكلمات النوبية الكثيرة التي حُرِّفت إلى العربية السودانية . كما ذكرنا في مواضع أخرى من الكتاب عن كلمات أخرى . وهي بمثابة (المطامير)، وهي أواني طينية ضخمة يخزن فيها البلح والحبوب من القمح والذرة، وحتى لا يصاب البلح بالسوس كان يتم رش



قليل من الرماد (الحبوت) عليه ثم يحكم قفل القسيبة تماماً ، وعندما تفتح المرأة إحدى القساسيب وتأخذ ما يلزمها كانت تعود وتحكم قفلها مرة أخرى ، هذه القساسيب كانت مبنية من الأمام في شكل أقرب لشكل الأنثى بأثداء بارزة، ربما إشارة الي الخصوبة، وكانت تزين برسم في شكل تمساح علي شكل الصليب.



من العادات النوبية القديمة بناء عتبة الباب الخارجي برسومات وزخارف فيها رموز وإشارات مختلطة ، تحيلك إلي كل العصور المختلفة التي عاشتها المنطقة ، بعض هذه الإشارات والرموز تبدو واضحة في الصور. وبعضها الآخر لم تعد موجودة ، ولا توجد لها صور . مثل قرون الثور ورؤوس التماسيح التي كانت توضع في أعلى العتبة . وقرن الثور كان له إستعمال آخر فعندما يشعرون بوجود ثعبان داخل البيت كانوا يأتون بقرن الثور ويشعلون فيه النار . فتطرد رائحته الثعبان من من البيت.

وكانوا يمتنعون من قتل الثعبان ، في إعتقاد جازم بأن هذا الثعبان ربما كان من الموتى أهل المقابر ، أو شيخ متطفل جاء زائراً في شكل ثعبان ، وعليه فيجب التخلص منه دون قتله بإخراجه من البيت بوسيلة ما ليذهب من حيث أتى.

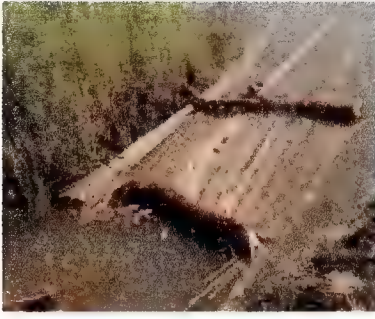


عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أوشرفتان راح ينأي عنهما القمر
عيناك حين تبسمان... تورق الكروم
وترقص الأضواء كالأقمار في نهر
يرجّه المجدف وهناً ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما النجوم
بدر شاكر السياب

ما رأيت' وما أكثر ما رأيت، أجمل ولا أحلى من غابة النخيل ساعة السحر، وما أحسست، وما أكثر ما أحسست، بإحساس فيه نشوة وعذوبة أكثر من غابة النخيل ساعة السحر، إنه عالم آخر، لا يعرفه إلا من رآه، إنه تشبيه عبقرى من السياب، لعيون ناعسات، ساحرات، يجلبن الهوى من حيث تدري ولا تدري، وتتمتع الجزيرة بوجود كميات كبيرة من النخل، غابات من النخل تحيط بالمزارع والبيوت، بل هي قائمة حتى داخل البيوت، والنخل هو شجر التمر وواحدته نخلة، والنخيل إسم جمع لا جمع نخلة، وهو يذكرو ويؤث فنقول هو النخل وهي النخل، أما النخيل فمؤنثه. والنخلة شجرة كريمة مباركة، ومن أروع الأقوال في حث الإنسان علي الترفع عن الصغائر، والإنصاف بالكرم والتسامح، هو طلب الشاعر له بالتشبيه بالنخيل، إذ قال الشاعر:-

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً يرمي بصخر فيعطى أطيب الثمر

وقد ذكرت النخيل في 23 موضعاً في القرآن الكريم، وهي شجرة معمرة وقد يبلغ عمرها 500 عام، ويبلغ إرتفاعها حتى 30 متراً، والنخلة صديقة البيئة لأن الانسان يستفيد من جميع مكوناتها، والنخلة هي الشجرة الوحيدة من بين الأشجار التي لا يتساقط ورقها، وكل جزء في النخلة له فائدة عظيمة، ثمارها، ليفها، ساقها، سعفها، جريدتها، وخوصها، ناهيك عن المواد العديدة الأخرى التي تستخرج من ثمار وأجزاء النخلة المختلفة. ثمرها غني بكل مقومات الغذاء اللازمة للإنسان، من ماء ومعادن وأملاح وفيتامينات وسكريات وغيره. ويمكن اعتبار التمر أغنى الفواكه قاطبة في محتواها من الطاقة الحرارية. فحين نجد أن الكيلو قرام الواحد من البرتقال يعطينا 500/ سعرة حرارة والعنب/800/ و الموز /1000/ نجد أن الكيلو قرام من التمر يمد الجسم بما يزيد عن 3000/ سعرة حرارية، ونحن نعلم أن رسولنا الكريم مكث شهرين على الأسودين (الماء والتمر)، وكان أهلنا يعتمدون على التمر في غذائهم، فهو مع الحليب كان يغنيهم عن كل ترف الطعام الكثير، بل كانوا اقوياء.



جريد النخل وجذعها يستعملان في تسقيف البيوت ، وللجريد طريقة إعداد معينة قبل إستعماله ، فهو يقطع من النخل ، ويترك حتي يجف، ثم يتم تنظيفه من السعف (كُسي) (KOSI) وتتم تلك العملية بإستعمال المنجل (تُرب) (TIRIB) ثم يربط في مجموعات ويحمل علي الحمير إلي حافة النيل ، وينقع في الماء بعد ربطه في أخشاب ثابتة حتي لا يذهب مع تيار الماء ، ويترك هناك لعدة أيام فيلتشرب بالماء ويتنفخ ويصبح مرناً جداً ، وفي اليوم المحدد

للتسقيف، يحمل الجريد علي الحمير إلي المنزل المراد تعريشه ، وتكون المروق (الأعواد الخشبية السمكية التي تحمل كل مكونات السقف الأخرى) قد جُهزت فيوضع الجريد فوقها ثم تبدأ عملية نسج الجريد وربطه بعضه الي بعض بإستعمال (السلك) وكانوا في ما مضى يستعملون حبل العشميق، أي المصنوع من الألياف التي تكون بين طبقات جريد النخل. وعند النسج يبقى الجريد مرناً حيث يسهل ضمه الي بعض وربطه بطريقة متوازية، وكذلك يدخل الجريد في صناعة ال (سِلَتي) (SILATY) مع ال (هَسْدُ أو الأَسْدُ) (hased) وهي سيقان القمح. وال (سَلِقي) هو ما يصنع به ال (كيري) (KERRI) أي الراكوبة ، التي هي التعريشة المصنوعة بالكامل من مستخلصات الأشجار والنبات، ومن الجريد والسعف تصنع أواني منزلية كثيرة جداً ، وكان يستعمل الجريد كذلك في صناعة عناقير كبيرة ضخمة تسمى (كوسي أنقري) أو (أنقري دول) وهذه كانت أسرة تتسع لعدد كبير من الناس ، ولم ينج الجريد من عبث الأطفال فقد كانوا يشقونه الي نصفين وهو ما زال معلقاً في النخل ثم يربطون نهاية الطرفين ببعض ويستعملونه كمرجحة (شربيل) (SHERREEL) ، كما أن الأطفال كانوا يصنعون منه أدوات لعب أخرى كالأ (تاب) (TAB) أو ال (كونيسة) وكانوا يصنعون ال (تُرجي) (TOROGGE) أو ال (تاجي تاجي) من ال (هَرُو) وهذا الهرو هو الجزء الأساسي الذي يتعلق منه العرجون (السبيطة)، وهو ما يقطع من النخلة عند الحصاد ، ويصنع من الهرو اشياء كثيرة أيضاً ، وكان الجريد هو أداة التربية الرسمية في البيت والمدرسة فكانوا يستعملونه عصاً لعقاب الأطفال بدنيا (الجلد) ، ومع نمو النخلة يقوم المزارع بتقطيع الجريد وما تبقى من الجريد حول ساق النخلة يسمى (أبج أو أمياج) ويصبح الأبج هذا هو موطن اليدين والقدمين عند الصعود الي أعلى النخلة لتلقيحها أو لحصاد البلح ، وبعد حصاد البلح يذهب الأطفال وينبشون ما بين الأبج والأمبو بالإضافة الي حلق النخلة (قُلْن قُلْ)، بين الجريد ، ويخرجون بحصيلة وافرة من البلح الذي أحتجز هناك أثناء قطع العراجين/ السباط، وتسمى هذه العملية بال (قُلْن دولاد) ، وكان الأطفال لا يحملون كيساً ولا إناء لوضع البلح ، بل يربطون وسطهم بحبل أو يشق جريد ، ثم يضعون البلح في (العيب) بكسر الباء ، يعني من فتحة القميص البلدي (العراقي) عند الرقبة ، فيمتلئ الجزء المربوط ويُشكل البلح كرشا كبيرة تفرغ في البيت في (قسية) صغيرة مخصصة للطفل . ومنذ أن يبدأ البلح في النضج ، يكر الأطفال الي النزول الي جنانين النخيل لجمع ال (توقين فنتي) وهي حبات البلح التي تتساقط من النخيل نتيجة الرياح ، وكثيراً ما



كانوا يساعدون الرياح برمي النخيل بالحجر فتتساقط كميات إضافية .
ومن ألياف النخلة الـ (أشمي) (العشقيق) تصنع الحبال ، وتكون حبالاً
قوية لها إستعمالات متعددة ، ومما نذكره أن آبائنا وأجدادنا كانوا
يقطعون من الحبل، ويربطون هذا المقطع في الرأس حول الطاقية
بطرف واقف إلي أعلي ويشعلون النار في ذلك الطرف فيخرج منه دخان
كثيف كان يطرد الـ (الكوتي ماج) أي النمطي ، تلك الحشرة الشنوية التي
تتوالد بمئات الملايين، وتسبب تقرحات بليغة في الأذنين خاصة عند
الأطفال ، وكان الأطفال يستعملون لبسة إسمها (كتن قبا) وهو قماش

شفاف وخفيف جداً كانوا يغطونه ويغطون به الرأس كاملاً حتي الرقبة، وكلمة (أشمي) النوبية تحولت الي عشقيق
عند الشايقية ، والذين هم في الأصل نوبية ، وكانت لغتهم حتى نهاية القرن الثامن عشر هي النوبية . وقد دخلت
كلمات نوبية الأصل كثيرة حتي اللغة العربية السودانية. وفي الغناء السوداني الخاص بالوسط النيلي ، وفي شعر
المديح عند الشيخ حاج الماحي، وسوف يأتي الحديث عن ذلك. أما الجزء الأساسي من النخلة فهو الـ (أمبو)
(OMBO) وهو الساق . وللأمبو إستعمالات عديدة ، يدخل الأمبو في تعريش البيوت كحامل رئيسي حيث يرص علي
مسافات محسوبة فوق قمة الحائط ثم يأتي السيسبان بفروعه المستقيمة كمساعد للمرق ليتم رص الجريد فوقه ،
والأمبو الواحد يشق الي نصفين أو الي أربعة حسب حجمه. تتكاثر النخيل عن طريق الفسائل (الشتول) وتسمي
عندنا (اسي) (assi) والكلمة تعني اصلا النسل والسلالة عند البشر ومن ثم فهي في لغة الزراعة تعني النخلة
الصغيرة التي تتفرع عن النخلة الأم وتنمو عند أسفل الساق (جذع النخلة) والفسائل هي الطريقة المثلى والأساسية
لإكثار النخيل ، وهي طريقة مضمونة للتكاثر. أما الإكثار عن طريق النوى فغير مضمون النتائج، حيث أن نسبة
النجاح لا تتجاوز 20% ، كما أن تمر شجرة النوي يكون تمرأ رديناً يسمى عندنا (بكة) لا يتحول الي تمر، وغالبية
شجر النوي تكون (ذكر). وتتلخص طريقة الإكثار بالشتول بالإهتمام بالشتلة وهي ما تزال ملتصقة بالأم، فتدخل
الشتلة في إناء مفتوح من الأعلى والأسفل ، ثم تفصل الشتلة بدرجة بسيطة جداً من الأم ، ويدخل الإناء بين الأم
والشتلة في تلك الفجوة ، ثم يملأ بالتراب ويسقي بالماء من أعلي فتتكون جذور جديدة خاصة بالشتلة وتستمر هذه
العملية لمدة طويلة حتي يكتمل نمو الجذور في الفسيلة أو الشتلة، ويعتدل حجمها، وتبقى خضراء خالية من
الأمراض والأفات الحشرية . وعند فصل الشتلة يجب أن يراعي عدم تجريح الشتلة أو الأم ، وهذه الطريقة تمتاز بأنها
تعطي ثماراً مشابهة للأم تماماً . ويتم فصل الفسائل التي عمرها بين 3 الي 5 سنوات عن أمهاتها البالغة من العمر 8
الي 15 سنة وغرسها في موقع مستقل خاص بها. وتتم عملية فصل الشتلة وغرسها في موسم معين وإلا فقد تموت،
ولتشجيع النخلة الأم علي إنتاج الشتول يتم وضع كميات من التراب حول جذعها ورشها بالماء.

ووقت حصاد البلح (حش البلح) (فَتْنٌ مُكْرِي) من أجمل الأوقات ، تجد الناس كلهم مشتين داخل غابات النخيل، هناك يقضون يومهم، يجمعون المحصول، والشخص المختص بقطع السباط يتسلق النخلة بمهارة مكتسبة مع الوقت ، ويكون عادة من (العرب أو الأعراب) المستقرين في المنطقة (وليست لهم عادة أراض أو نخيل خاصة بهم)، ويقطع السباط ويلقي بها أرضا، فيتشتت التمر، فيقوم الناس بجمعه، ثم ينتقلون الي النخلة المجاورة، وهذا الإعرابي عندما يصل قمة النخلة يختار أكبر سبيطة لنفسه ويقطعها فتقع على الأرض، ويحتفظ له اصحاب النخيل بمحصول تلك السبيطة، ويتعاون الناس مع بعضهم البعض في جمع المحصول، وفي هذه الصورة الطريفة سحلة قررت



الصعود لتأخذ نصيبها من من ذلك الرطب الجني . ودائما ما يصادف موسم المحصول موسم الدميرة (الفيضان)، فإكل الناس الرطب ويشربون من النهر مباشرة، ماء الدميرة الطيني ، وربما اكتفوا بذلك كوجبة كاملة. وكان بعض

الناس يأتون الي أماكن الحصاد وهم يحملون شئ يسمى (دُقَّة)، وهي شئ كالبودرة مصنوعة من ذرة شامية (مكادة) مطحونة ومحصصة علي النار ومحلاة بقليل من السكر أو الشطة والملح ، يبيعونها مقابل حبات من التمر، فلم يكن هناك قروش (نقد)، وكان البيع والشراء في معظمه بمقايضة السلع بالمحاصيل الزراعية او مشتقات الألبان، وكانوا يبيعون منها بملعقة مصنوعة من سعف النخل، كل ملعقة مقابل حبات من التمر، وفي هذا الموسم يسافر أهلنا من الخرطوم والمناطق الأخرى الي البلد، لجمع المحصول من نخيلهم التي يهتم بها، في غيابهم، أفراد موكلون رسمياً من قبيلهم، وإذا لم يحضروا، يقوم هؤلاء الوكلاء بإرسال نصيب



الشركاء الهم أينما وجدوا، وهذا الموسم من المواسم التي تشهد حركة كبيرة في البلد، فتجد الناس (طالعين نازلين)، وتجد الحمير تحمل شلالات البلح الي البيوت، وإذا دخلت البيوت تجد البلح مكوما ومنشورا على البروش/ الحصير في كل حوش، وتجد في ركن من الحوش عنقربا، عليه نوع خاص من الرطب، وهو الذي يصنعون منه العجوة، والعجوة لا تصنع من أي تمر، إنما من أنواع معينة، لا تجف وفي نهاية كل يوم لحصاد التمر، يقوم أصحاب النخيل بتوزيع الصدقة علي من لا نخيل لهم، وهذه الصدقة تسمى (كرامة)، وحصاد البلح يسمى (فَتْنٌ مُكْرِي). وربما لا يعلم الكثيرون أن النخيل (تُلَفَّح)، وعملية التلقيح أو (التأبير) تتم عن طريق الإنسان، فهناك النخل (الذكر) ونحن نسميه (فَتْنٌ أُنْدي)، أو (إدمين فتني أو أدِم) قال تعالى : (و النخل باسقات لها طلع نضيد) الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية، و الطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل، و النضيد بمعنى المنضود أو المترام بعضه فوق

بعض، وفي الآية الأخرى (ونخل طلعتها هضيم) أي أن ثمرها نضيج ومتدل لكثرتة، وتظهر الأزهار في أشجار النخيل حوالي السنة الخامسة من عمر النخلة، وهناك طلع نخل ذكر وطلع نخل أنثى، وطلع الذكر يسمى (شماريخ) عند أهل الخليج، وطلع الأنثى يسمى (أغاريض) وبوضع شماريخ الذكورية في أغاريض الأنثى تتم عملية التلقيح (التأثير)، ولا بد أن يتم ذلك خلال 3 إلى 7 أيام من ظهور طلع النخلة، وطلع النخلة (الأنثى) لا لون ولا رائحة له ولذلك فلا تنجذب إليه الحشرات، أما طلع النخل الذكر فأبيض اللون مائل إلى الصفرة وله رائحة، ويقال أن لطلع النخل فوائد علاجية للإنسان والله أعلم، ومراحل نضج التمر سبع مراحل كما جاء في كتب السابقين مع إختلاف في الترتيب عند البعض، (طلع وكافور وخلال وبلج وبسر ورطب ثم تمر).

وتجد من نوع النخل الذكر إثنين أو ثلاثة في كل جنينة، وهو يثمر مبكراً قبل النخلات، وثمره مختلف، ويقوم بعض الناس بقطع هذا الثمر وعمل ربطات صغيرة منها، وتترك هذه الربطات لتتشف، وعندما تنشف، تتحول الطبقة الفوقية منها إلى بودرة بيضاء، فيقوم الشخص الملحق بوضع ربطة واحدة أو أكثر في كل نخلة عندما تثمر، وتلك البودرة هي التي تلقح، بعد التلقيح يبدأ الثمر في النمو، وقليلًا قليلًا تكبر حبات التمر، وتكون غامقة الخضرة، وتسمى في تلك المرحلة بالـ (قلو) أي الدقيق، والأطفال لا يصبرون حتى يستوي البلج، بل يبدؤون في أكل القلو (قلوندي)، وحتى يؤكل القلو لا بد من (خرط) القشرة الفوقية الخضراء منه بالأسنان، فللقشرة طعم حادق شديد المرارة، وهذه العملية كانت تتسبب في تساقط القشر اللين على الملابس، والملابس لم تكن إلا عرايق بيضاء، تنصعب ببقع صفراء من ماء القلو، وتبقى هذه البقع ولا تخرج من الملابس بالغسيل، الغربية أن هذا القلو يأكله الناس ولكنه ضار جداً للبائتم، وربما أدى إلى هلاكها، وإذا لم تلقح النخلة يفسد ثمارها، ولا يتحول إلى (كجكول) أو (سبو) يعني رطب ومن ثم لا يتحول إلى بلج، وفي بعض الأحيان إذا كان ذاك (الذكر) في الناحية الشمالية من غابة النخيل، وإذا لم يقطع ثمره وترك حتى ينشف، يتم التلقيح عن طريق الرياح، والتمر الفاسد يسمى (بَكَّة) والتلقيح يسمى (إيري)، وفي بداية الثمر يسمى (دقي) ويسميه الشوايقة دقيق، ك (كدي) كديق و(أوري) أوريق. و(أسي) اسق،



إلى آخر الكلمات النوبية الكثيرة الموجودة في اللهجات السودانية المختلفة، وهناك أنواع كثيرة من البلج، أشهرها وأحسنها في الأكل والتجارة هو القنديل (أكندينة) وبعده يأتي البركاوي (أبتي)، والبركاوي لا يأكله الناس عندنا، إنما يخصص للبيع، وهناك الأبتي مودا، الجاو والمودا والدُكي (وهو الذي كان يصنع منه الدكاوي)، وهناك المشرق والكُما وأرمدية، ومن الأشياء التي كان الأطفال يأكلونها الـ (القنقلسي) وهو نوع من الصمغ تفرزه بعض أشجار السنط، وأيضاً كنا نأكل الـ (بليلي)، وهي قناديل ذرة يتحول

لونها إلى سواد بسبب إصابتها بنوع من الفطريات



أعود الآن الي الإعرابي الذي وضعته
بين قوسين، فهو الذي كان يقوم
بعملية التلقيح، وهؤلاء قوم أعراب،
ونحن نسميهم (أرابري) والمفرد (أراب)،
وهم قوم لا أدري من أين جاءوا،
ولكنهم غير نوبة، إستوطنوا في مناطق
مختلفة عندنا، وكانت لهم أحيائهم،
وعاداتهم وتقاليدهم، ولغتهم دارجة

عربية خاصة بهم، ولم يكونوا يعرفون اللغة النوبية، كانوا يتحدثون بها بطريقة مضحكة جداً، وفي النهاية أصبحت
لغتهم خلطة طرفية ما بين النوبية والعربية، وإذا أراد أن يقول أن المفتاح في الباب يقول (الكُشُر في الكُبد) الكُشُر
يعني مفتاح، والكبد يعني الباب، والي وقت قريب لم يكن هناك تزواج بينهم وبين النوبة، وكان كثير من النوبيين
يستعففون منهم، ولا يأكلون منهم أو معهم، وجاؤوا بجمالهم، ومارسوا الأعمال الشاقة، كتلقيح النخل وحصادها،
ونقل المواد والبضاعة بالجمال، وكانوا أثناء رحلاتهم بالجمال يغنون ويترنمون بأغان لم تكن نفهمها، وهي الحداء،
كما كنا نسمع منهم الدوبييت، وكانوا دائماً يتباهون برجولتهم وقوتهم ، وفي مناسبات الأعراس كانوا يمارسون
(البطان) أي ضرب السوط ، وحتى العريس منهم كان يشارك، ويرتبط الجلد بالمرأة والمحبوبة ، فهناك في كثير من
الأحيان حوار غير منطوق بين المعشوقة والرجل الراكز للبطان(الجلد) تمنع التقاليد من البوح به صراحة ، لكن
يترجم ذلك الحوار في صورة الجلد معبرة في شجاعته وفروسيته وتحديه للكل من أجلها ، وكانوا يحلفون بالطلاق
علي عكس النوبة الذين لا يحلفون بالطلاق علي الإطلاق، والي وقت قريب كان يعتبر من العيب أن يعمل النوبي
(جمالياً)(أباله) والجمال نسميه (كَمْ)، أما الآن فإنهم تقريباً ذابو في المجتمع النوبي واختلطوا بهم ، وحدث التزاوج ،
وأشغل النوبة (جمالين أباله) ، تلك سنة الحياة ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وكان منهم رجال
عقلاء، إعتد عليهم النوبة في كثير من الأعمال، مثل موسي أراب، وعيسي أراب، إشتهروا بالشجاعة والشهامة
والأمانة. وكان عيسي بصيراً، يعالج الكسور، وكان عبدالرحمن أراب مشهوراً، إذ كان أول من تخصص في زراعة
الخضروات فقط ، وقد كانت الخضروات دائماً تزرع داخل المزروعات الرئيسية، وهي القمح والذرة، أو يخصص لها
مساحة صغيرة، أو تزرع علي حافة الجدول، او علي التكمد، أما أبناؤهم فأختلطوا معنا، وأجادوا النوبية، ودرسوا
معنا في المدارس، وأغثروا معنا في الخليج ودول الغرب.

6.

كان الناس. وما زالوا يتبادلون المنافع في (بدين سوق) ، وما بدين سوق سيداتي سادتي إلا سوق بدين. بلغة العاربة والمستعربة. ونحن في الأساس قوم أعاجم. وليست اللغة العربية لغتنا الأم. ما جاءتنا إلا عن طريق المواقفة التاريخية المحتومة. وما تعلمناها إلا في المدرسة. عن طريق القرابة أم دق . أما الجزيرة (بدين) فتتحدث اللغتين النوبيتين بفخر واعتزاز. وسوق بدين (سوق الله أكبر) ككل الأسواق، فيه ما في كل أسواق الدنيا. فيه الصدق. وفيه الغش، وفيه الإستهبال' فيه من إذا إكتال علي الناس يستوفي، وإذا كآلهم أو وزهم يُخسر. فيه المشاغلة والمغازلة والتعجب والإستعراض، فيه الشخصيات الظرفية والطرفية. فيه الدرويش والمجنون. وأنا ما كنت مسواقاً. ولم أكن أحب السوق. ولا أحبه الي يومنا هذا. وليس في الأمر زهد. للحسرة. ولكن لفلس صاحبني وصادقني وزاملني ولأزمني منذ الطفولة. فأنا وهو (ترعرعنا ونشأنا نداند). ولجبوب مقدودة، غلبني سدها. فوسعت قذها فلم تعد تمسك لا ديناراً ولا دولاراً. في المرات التي كنت أزور فيها السوق كنت أذهب وأجلس بجانب جدتنا حبوبة سلومة رحمها الله رحمة واسعة. وكانت حبوبة سلومة (كنا نناديها بـ. يوة سلومة -) كانت تجلس بجانب إبنا خالي جمعة أحمد همت، الذي كان تاجراً بالسوق. وهي والدة أخوالي الأعزاء مهدي، جمعة . إدرس . عبدالقادر، عبدالهادي، عبدالعال، وفاطمة أحمد همت. كنتُ أذهب اليها فترحب بي. وتأخذني بالحنن، وتتعطف عليّ بـ (الفرتيني) أبو قرشين، فأشعر بالغي ونعمني الفرحة. والفرتيني كانت عملة معدنية صغيرة جداً، تساوي قرشين. أربعة تعريفات، والتعريف كانت متداولة في ذلك الوقت. (الكلام ده ما بعيد يا جماعة، قبل كم وأربعين سنة بس). وكنت أشتري عيشة بتعريف، وطعمية بتعريف، ثم بطيخ بقرش وأذهب إلي أهلي أتمطي، ولم يكن من عادة أهل بدين أن يفرشوا الأكل في السوق، بل كان يأتي آخرون من كرمه لتلك المهمة، كان في السوق رجل أزهرى، كان يدرس في الأزهر ثم أصابه مس كلّي ، فعاد وأستقر به المقام في البلد. كان يأتي الي السوق ويقيم ركن نقاش ممتع. يفتي ويفسر الآيات والأحاديث كما يريد. وله تفسيرات غريبة لبعض أي القرآن . وإذا غالطته كان يشتمك بكلمة (شهر بها فيقول لك (أسكت يا لوح). وكان جميل الخط . يمسح الأرض ويكتب عليها. أما أعجب ما في السوق فكانت الجزيرة. عجل صغير يذبحونه ويقطعونه فيتكاكا عليه أهل السوق جميعاً. في زحمة لا رحمة فيها' كل يريد نصيبه من ذلك (الأرج) او (الكُسُو) اللحم العجالي الطازج. يقفون أمام الجزار ويتصايحون في وقت واحد، هذا يطالب الجزار بنصف كيلو، وتلك تطالب بربع كيلو(ابقا ربو ويكا). وصاحب ميسرة يطالب بكيلو كامل، والجزار يعمل كالساحر. في خفة عجيبة جداً يقطع قطعة لحمه من هنا وقطعة من هناك، ثم عظم وشحم، ويضع كل ذلك في الميزان. وقبل أن يستوي الميزان وبسرعة خاطفة يرفع اللحمة ويلفها لك فلا تعرف ماذا أعطاك إلا بعد أن تصل البيت. وأثناء ذلك. عندما تقع يده علي لحم طري يقطعها ويلفها في فوط مشبوهة. ويدسها تحت الدرج. ذلکم للغواص. ولكل إمري خواص. وفي كل ذلك يطلق الجزار عبارات بذينة. ويتحدث بلغة غير نظيفة. لغة لا يستطيع

إستعمالها خارج الجزيرة، ولكن تلك محمية، يقول من داخلها ما يريد، فلا يحاسبه أحد ، كأنه في الهاید بآرك حیث كل حدیث مباح.

وكان أهل بدین یذهبون أيام الأحد الى سوق كرمة التزل . كانوا یسمون كرمة (اورتا) وسوقها (أرتان سوق) . و(اورتا) هذه محرفة من (الأورطة) . یعنی معسكر الجيش . لأن الجيش التركي في طريقه إلى الخرطوم نزل بكرمة . ومنها أخذت إسم كرمة التزل . وكان سوق كرمة التزل هو السوق الرئيسي للمنطقة كلها، يأتيه الناس من الشمال والجنوب، والذهاب الى سوق كرمة التزل بالنسبة لأهل الجزيرة كان فيه نوع من التزه والتغیر، وكانوا یستمعون تماماً بتناول وجبة في مطاعم السوق، او تناول (حاجة باردة) من المحلات القليلة التي بها ثلاثیات، كمحل محمد سعید كرشاب، أو تناول شراب ساخن كان إسمه (سحلب) من الأكشاك المنتشرة على شاطئ النيل، وكانت كرمة التزل على صغرها هي المدينة، وكان بها مركز بولیس فيه شرطة لا عمل لهم. یجلسون تحت الأشجار، یشربون الشاي، كنا نمر بكرمة في (الخميسات)، في طريقنا من وإلى البرقیق، حیث درسنا الثانوية العامة، ففي عام 1972 إنتقلنا، من مدرسة شبة الإبتدائية الى البرقیق الثانوية العامة، كأول دفعة من شبة، إنتقلت دفتنا بكاملها إلى البرقیق، وقد تكونت الدفعة من:

حسب الحروف الأبجدية، والإعتذار مُقدماً إذ سقط أحد الأسماء من الذاكرة:

الجزولي سعدالدين محمد

إبراهيم محمد إبراهيم (رحمه الله)

تاج السر عكاشة إدريس

سليمان عبدالواحد

(صلاح) صالحین محمد حامد

صلاح علي حسين ابوضروس (رحمه الله)

علي عبدالرحيم علي بشير

عبدالله عثمان محمد عادل

عبدالعظيم عبدون عبدالقيوم

علي محمد إبراهيم

عبدالله علي عمسيب

عوض جمعة محمد علي

عبدالرحمن عبدالرحيم محمد خير

عبدالله محمد عبدالله

عبدالله حسن نوري

فاروق عبدالقادر فضل
فاروق جمعة محمد علي
كمال سيد أحمد عثمان
محمود محمد طه
محي الدين عبدون طه
محمد لطيف عبدالواحد
محمود حسن محمود
محمد عثمان خليفة (رحمه الله)
ميرغني إدريس كبوش
محمود عوض الله طه
محمد أحمد فرح ترجمان
محمد لطيف عبدالواحد
محمد عبدالجليل أحمد
مصطفي إسماعيل عثمان
مصطفي عبدون (سُكراب)
محمد فقير علي

وهناك وجدنا أمانا الكثيرين من أبناء بدين من المدرستين الشمالية والجنوبية في الفصول المختلفة. كانت المدارس الابتدائية حتي ذلك الوقت تسمى (أولية). والثانويات العامة تسمى (وسطي). كنا في رابعة أولية نحس بالفخر والإعتزاز لأننا ممتحنون للوسطي. وكانت للمدارس الوسطي في ذلك الزمن (شنة وزنة). وكان طلبة الوسطي يتبخثون في الحي كأنهم في أكسفورد، ونحن في ذلك الحُلُم الجميل، إذا بالدكتور محي الدين صابر يخرج علينا بإختراعه سئى الذكر (السلم التعليمي)، والذي بموجبه تم إضافة فصلين دراسيين في الأولية لتصبح 6 سنوات، وتصبح المدرسة ((ابتدائية)، فتبخرت أحلامنا، وأجبرنا للبقاء في مدارسنا حتي العام الدراسي السادس، بعدها ذهبنا إلي البرقيق لنجدها وقد أصبحت (ثانوية عامة) بدلاً من وسطي. كان السلم التعليمي كارثة من كوارث السودان الكثيرة، فهناك سياسات تضرر بالبلد وأبنائها لفترات طويلة، والسلم التعليمي هو ما أوصل التعليم في السودان إلي هذا المستوي المتدني الذي نراه الآن. وعلي كل حال ذهبنا إلي البرقيق بكل ذلك التشوق لإرتياد مرحلة اخري، وبكل ذلك الإحساس المتضارب عن السكن في الداخليات، والتعرف علي (غرباء) ليمسوا من بدين. وكان للكثيرين منا هي المرة الأولى التي نخرج فيها من الجزيرة، فاذن هو مشروع اغتراب وابتعاد عن الأهل، ذهبنا ونحن نحمل شنط الصقيح، بها قليل من الملابس مع الرداء (الشورت) والقميص الكاكي، وكثير من البلع والقرقوش. والبرقيق تقع

جغرافياً في منتصف الطريق تقريباً. ما بين كرمة التزل وأرقو. جنوب كرمة البلد. شرق جزيرة أرتقاشي. وهي منطقة زراعية أساساً. بها احد اقدم واكبر المشاريع الزراعية في الشمالية. وكان بها ايضاً المستشفى الرئيسية للمنطقة باكملها. من قَرْيق شمالاً. الي حدود دنقلا جنوباً. والمدرسة. والمشروع الزراعي. كلها منشآت (استعمارية) من ايام الإنجليز. وكانت الفصول. ومكاتب المدرسين. والداخليات. والسفرة أي قاعة الطعام. وبيوت المدرسين مبنية بتخطيط رائع. الفصول ومكاتب المدرسين من الناحية الجنوبية. وامامها ساحة لطابور الصباح. وبها مسرح الجمعية الأدبية. وعلي البعد من هناك تري المستشفى بحديقتها الجميلة. ومن خلف هذه المباني من الناحية الشمالية. (فَسْحَة) كبيرة. بها ميدان كرة السلة أو الطائرة. لا أذكر. وبها ايضاً مبني صغير مكون من غرفة وبرنذة وحمام. كان هو سكن المدرس المشرف والمسئول عن الداخليات. وفي نهاية هذه الفسحة من الناحية الشمالية توجد مباني الداخليات. وخلف الداخليات ميدان كرة القدم. في مساحة كبيرة مفتوحة علي الفضاء. وفي نهاية الداخليات من الناحية الشرقية الجنوبية يوجد المطبخ والسفرة. وكانت السفرة تقدم طعاما شهيا ومتنوعا لا يعلم به الطلبة الآن . وكان عُمُ خميس من اجود الطباخين. شيف درجة أولي . ثم الطياخ عبدالرحمن . ومن إنجلترا كان يأتينا سردين إنجليزي عجيب. كنا نأخذ منه الي البيوت في الخميسيات. أشهي سردين ذقته في حياتي. ومن أيام الأكلات المفضلة في الأسبوع يوم الفاصوليا. أما أكثر الأيام الذي كان يتذمر فيه الطلبة فكان يوم (البراطيش). وهو الباذنجان الأسود المطبوخ بالبصل والصلصة . كنا ندخل السفرة متدافعين بالمناكب . ونأكل واقفون ومستعجلون . ليس لأمر ينتظرننا بل لنسبق الآخرين ببضع لقيمات . والجوع كافر . والطعام قليل . والقاعة ملأى باصحاب الكروش الكبيرة . من الذين كنا نراهم عمالقة . نحن أصحاب الأجسام النحيلة . أن تأدبنا عدمونا للكمة . فكان لا بد من (الهاميد) . ومن الطرائف هنا أننا بعد التخرج من البريقيق تفرقنا في المدارس الثانوية العليا. ومن الذين ذهبوا الي كورتي. الأخوة فاروق جمعة. وعبدالرحمن عبدالرحيم. وعندما سافروا الي كورتي توقفوا في احدي المحطات. ودخلوا احد المطاعم. وطلبوا اكلاً. ومن ضمن ما عدده لهم الجرسون كان الـ (مُسْقَعَة). وبدا لهم الإسم شهياً. فطلبوه. فإذا بالجرسون يأتيهم بالبراطيش. الذي تركوه خلفهم في البريقيق.

وعلي مسافة ليست بعيدة من مبني المطبخ والسفرة تري التربة. الجدول الرئيسي للمشروع الزراعي. ومن الناحية الغربية للداخليات بفاصل صغير توجد بيوت المدرسين. وكانت المدرسة بكل ملحقاتها تحتل مساحة كبيرة جداً. ولذلك لم يكن هناك سور. وعدم وجود سور يعطي المرء احساس بالحرية المكانية. وعدم الإختناق. عرفت الآن أنهم بنوا سوراً شوهوا به منظر المدرسة. بين المدرسة والمستشفى من الناحية الغربية. كان يوجد سوق البريقيق. الذي لم يكن يهمننا منه غير مطعم واحد. هو مطعم عُمُ عثمان . كنا نأكل عنده الفول. صباحاً او مساءً. اذا سمحت الإمكانية المادية. التي لم تكن تسمح إلا قليلاً. ثم مطعم عبده قسم . ودكان مسكن الذي كنا نشترى منه الطحنية . كنت أتمني أن أزور المدرسة لو سمحت الظروف. وقد أصابني حزن شديد حين رأيت صور المدرسة في المنتدى. فقد تهاكت تلك المباني الجميلة. وأصابها أفة الإهمال وعدم الصيانة. وتلك مصيبة من مصائب الحكومات السودانية.

مركزية أو ولانية ، فهي لا تعرف شيئا يسمى صيانة ، رغم أن الصيانة هي روح المباني ، وبدون الصيانة تهدم . ولكن لا حياة لمن تنادي .

عندما كنا (نسافر) من جزيرة بدين الي البرقيق . كنا نضرب مشواراً طويلاً (كداري) . الي مشرع البنطون في سقدان . مقابل كرمة النزل . ولكن في سنتنا الأخيرة في البرقيق دخلت اليكاسي بدين . وأصبحت تأخذنا من أمام بيوتنا الي مشرع البنطون في معدية كرمة . ثم من كرمة الزل . كنا تأخذ اليكاسي . ومن أشهر سواقي اليكاسي في ذلك الوقت ، محمد محمود . فضل أحمد . كلنتون . ومحجوب . وفي مشرع البنطون ومحطة اليكاسي كان يلتقي (الجمعان) . أولاد مدرسة البرقيق ، وبنات مدرسة كرمة البلد . هناك كان يتم كثير من حديث العيون ، ذو الشجون ، والفنون ، والفنون ، العيون الحوراء ، والساحرات ، والفاترات ، والناعسات ، والمكرات ، والكلاء ، والدعجاء ، والنجلاء ، وعيون المها ، والتي تجلب الهوي ، من حيث يدري الطلبة ولا يدرون . كلها كانت تنطق وتحدث . وتبتسم وتضحك وتقول . وتفيض في القول ، والأفواه صامتة .

أشارت بطرف العين خشية أهلها :::: إشارة محزون ولم تتكلم

فايقنت أن الطرف قد قال مرحباً :::: وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

وكانت تتم محاولات يائسة لتبادل الرسائل . القصيرة منها والطويلة . الجيدة والريكية . الصادقة والخبيثة . ثم تتحرك اليكاسي نحو الجنوب الي المدارس . البنات داخل اليوكس . والأولاد (مسطحين) . ثم نزل البنات في كرمة البلد . قبل البرقيق . فيحس الشباب بفراغ اليكاسي . وفراغ الأفئدة والقلوب . وتبدأ أحلام اليقظة . والإنظار المشوق للخميسيات القادمة . وزيارة البيت والحلة في هذه الخميسيات كانت مهمة . إذ تؤدي إلى تغيير إيجابي في نفسيات الطلبة . فقد كانوا ينعمون بدفئ الأسرة . ويستمتعون بكل البيت . ويعودون ببعض الزاد من قرقوش وبلح . وربما ببعض الزاد العاطفي من مقابلة حبيبة القلب .

كان مدير المدرسة علي ايامنا في بداية السبعينات هو الأستاذ فؤاد عثمان الشيخ ، من أبناء دنقلا . وكان قد أنجب ثلاث بنات . وكان يتفاهل بذلك . ويردد حديث الرسول(ص) . ويقول أنه سوف يحسن تربيتهن ليدخل الجنة . وكان للأستاذ فؤاد نكتة واحدة يرددها كلما طلب منه إلقاء نكتة . والنكتة تتحدث عن جن اليمنيين رغم أنهم ليسوا بجبناء . والنكتة تقول (خرج أربعين يماني لإصطياد الأسد . فقابلتهم الهرة بنت عم الأسد . عشرة هروا . وعشرة فروا . وعشرة طلوعوا الجبل . وعشرة جابوا الخبر) . جاءنا بعده الأستاذ الأمين علي إسماعيل مديراً . أما وكيل المدرسة فقد كان أستاذنا الكبير عبد الفتاح محمود . وكان هو المسئول عن الطابور . وكان عبد الفتاح مهيأ له شخصية طاغية . إلا أنه واجه إمتحاناً صعباً من الطلبة . ففي إحدي السنوات . ونحن علي أبواب الإجازة السنوية . إنطلقت إشاعة تقول أن وزارة التربية والتعليم سوف تمد السنة الدراسية . فأتفق الطلبة علي الخروج في مظاهرة احتجاجية . وفي صباح اليوم الموعد . وبعد الإنتهاء من إجراءات الطابور طلب الأستاذ عبد الفتاح من الطلبة التوجه الي الفصول . فما كان من الطلبة . حسب الخطة . وتحت دهشة الأستاذ وعدم تصديقه . إلا الدوران والتوجه إلي

خارج المدرسة. فنادي الأستاذ للناظر (يا فؤاد حصل أولادك)، في ذلك اليوم توجهنا من البرقيق إلى كرمة التزل، مشياً على الأقدام. ومن كرمة التزل مروراً بالبرقيق دون التوقف بها واصلنا إلى أرقو. ثم عدنا أدرانجا من أرقو إلى البرقيق. وفي كل هذا تلقينا الدعم الأكيد من الأهالي في كل المناطق، فزودونا بالأكل والشراب. ولكن الطريف أننا إكتشفنا في اليوم التالي أن الإشاعة لم تكن صحيحة، وأن الوزارة برينة من الإتهام.

وكان من المدرسين المحبوبين لديّ مولانا الأستاذ محمد الحسن محمد موسي، من خريجي الأزهر، وكان يُدرّسنا العربي والدين، وأتذكره تماماً وهو يكتب في السبورة بيده الشمال (أكل أحمد الكمّري) ثم يطلب من الطلبة الإعراب، رحمه الله، والأستاذ عبدالله علي (سخانة)، ولا أذكر أن جاءنا بهذا اللقب، أم أننا من أكرمناه به، كان استاذ لغة انجليزية ممتاز، كان اسماً قصيراً، يدخل الفصل وهو يحمل سوطاً أطول منه، كان يُدرّس المادة بعشق شديد، يضع اختبارات اللغة بصورة جميلة، مختصرة وشاملة في نفس الوقت، كان يوزع ورقة الإختبار علي الطلبة، وبينما هم مشغولون بالإجابات، يتجول في الفصل، ويراجع عمل كل واحد، ولم يكن يتحمل أن يخطئ الطلبة في الإجابة، فيصلح لك الإجابة الخطأ، كانت مادة اللغة الإنجليزية هي مادتي التي احبها، للأستاذ عبدالله التحية والتجلة اينما كان، ان كان ما زال علي قيد الحياة، وله المغفرة، اذا انتقل الي رحمة موله. ثم الأستاذ ابراهيم تركمان، والأستاذ جمال عباس، من كرمة البلد، كان ذو شعر كثيف، والأستاذ الأمين حسن خيري، أيضاً من كرمة البلد، مدرس لغة عربية، كان يلبس نوعاً معيناً من الجلابيب الملونة، كان جهوري الصوت، ساخراً، والأستاذ محمد ساتي زيادة، من جزيرة أرتقاشه، عرفت انه في مكان ما في امريكا، له التحية، والأستاذ محمد ابوبكر، والأستاذ عبدالمعطي هاشم، أستاذ الجغرافيا، تكرم عليه الطلبة فلقبوه ب(كوناكري)، وهي عاصمة غينيا وميناؤها الرئيسي، وكان الأستاذ ينطقها بطريقة بدت للطلبة طريفة فسموه بها، والأستاذ عبدالماجد سيد طاهر، من خريجي الأزهر، من وادي خليل، علي ما أذكر، والأستاذ محمد عبدالقادر قورتي، والأستاذ يوسف الفرجاني من أبناء السليم، والأستاذ عبدالمجيد محمد عبدالمجيد، من أرقو، كان هو المشرف علي الداخليات، وكان رغم قصره رياضياً ممتازاً، والأستاذ سليمان محمد علي، من أبناء مشروع البرقيق، والأستاذ جعفر قمر، والأستاذ عبدالرحمن عبدالرحيم، أما من أبناء بدين الكثيرين في المدرسة فكان هناك طالب اسمه هاشم، لا أذكر إسمه بالكامل، كان ضخم الجثة، طويلاً، عريض (المنكعين) كان بعض الطلبة ينادونه بصيغة الجمع، (هاشمقو)، ومن الطلبة المميزين والمتفوقين جداً، الأخ محمد عثمان سلامة، من أبناء أرتقاشه، تنبأ له الجميع بأول السودان، كان حاد الذكاء، متوقد الذهن، اول المدرسة دون منازع، كانت فيه إشارات لبعض القلق، وعدم الإستقرار النفسي، كان كثير الحركة سريعاً، لا يطيق الجلوس لمدة طويلة في مكان واحد، انتقل الي مدرسة دنقلا الثانوية العليا، ثم تحت ظروف غامضة انهي حياته انتحاراً.

ومن زملائي في البرقيق صديقي مولانا القاضي الشاعر الأديب عبدالإله زمراوي، وكنا صغار الحجم، نجلس في الصف الأول، ولعبدالإله أهل في بدين، فوالدته لها الرحمة من أسرة (حاكم) المعروفة في سقدان، كنا نحن نسكن في الداخليات، بينما كان هو (خارجي) من كرمة البلد، يأتي الي المدرسة ممتطياً حمارته البيضاء (الداراوي) وكانت

حمارة مولانا أثيرة لديه، يطلق عليها أوصاف عديدة . وكان يشرب لبنها لعلاج (الكتكوت)، تلك الكحة العجيبة، التي لم تكن تعالج إلا بلبن الحمير ، وكلنا تجرعنا تلك الكأس الحمارة الشافية ، وكان معنا من كرمة البلد أيضاً الإخوة محمد عبدالرحمن لونا، لاعب البرقيق الشهير، وعبدالحفيظ مظلوم، ومحمد حامد أبوبكر، وأنتقلوا معنا إلي عبري، وتوفيق حسن، وجمال عبدالناصر، وخالد فرجة، وقرشي محمد يعقوب، ونورالدين مدني، وعثمان الأمين، وآخرون نسيت أسمائهم، وكان معنا من أبناء المشروع الأخ مصطفى نصر. وكان من أصدقائي، كان شغره لا هو سبيبي ولا هو قرقد، وكان يبذل جهده ويقضي الوقت الطويل وهو يحاول تصفيقه، وعندما يأتي الي المدرسة يقول له الطلبة (ياخي ما تسرح شعرك ده) فيمتلئ غيظاً، أما أشهر لاعبي كرة القدم فهم محمد عبدالرحمن (لونا) ومحمد سيداحمد وكامل محمد سعيد وكمال حسن فرح والسر حسين ومحمد أحمد فرح (بوكو) ، ثم ثنائي الغناء إمام وجعفر وكان هناك معنا صديق الطلبة السقا عثمان ، والفراس كمال محمد أفندي.

أما مستشفى البرقيق فقد كانت من أولى المستشفيات (الدرجة أولى) التي أنشئت في الشمالية كلها ومعها مستشفى دلقو ، مستشفى متكاملة مبنية على طراز إنجليزي فاخر ، كانت مكتملة الأقسام ، بها ممرضين وممرضات مدربون ، عنابر نظيفة ، طعام مجاني ذو قيمة غذائية عالية ، غرفة عمليات مكتملة ، نظام دقيق ، أطباء في منتهى التأهيل والمعرفة ، وأشهر الأطباء الذين مروا على المستشفى هو الدكتور أمين صقر . طبقت شهرته أفاق المنطقة كلها ، حتى أنّ كثيراً من المواليد سموا بإسمه تيمناً . ومن العاملين في المستشفى في ذلك الوقت معنا السمانى كنة ، رحمه الله . وقد كان رجلاً أميناً أو شبه أمين ، تعلم الطب بطريقة ما ، وعمل صيدلياً يصرف للناس الدواء ، وكان يقوم بقرأة الوصفة (الروشته) المكتوبة بتلك المصطلحات الإنجليزية الصعبة ، وكان هناك أيضاً من الممرضين (جمعة جابر) الذي كان فنناً يعزف العود ويغني ، وكان في المستشفى جمع من الدراويش وفقادی العقل ، منهم الولي ساتي فقير ، الذي كان يهتم بالزراعة والأشجار في حدائق المستشفى ، وكان أثناء عمله يترنم بأغاني وردى في صوت جميل.

في عام 1975 م ، ونحن نأمل بالسفر جنوباً للإلتحاق بالثانويات العليا، أراد حظنا أن نساfer شمالاً، إلي عبري، فتجمعنا من الجزيرة، أنا، الجزولي سعدالدين، صلاح توفيق، محمود توفيق، يحيي فضل حاكم، عبدالخالق ساتي، حسين أحمد فضل، ميرغني إدريس، ومعنا من دقرتي محمد محي الدين زماروي وعبدالرحمن حسن أبوزيد، سبقني الجميع في الوصول الي المدرسة، التي كانت جديدة، وكنا أول دفعة فيها، تأخرت أنا قليلاً نسبة إلي مرض والدي رحمه الله، إذ بقيت معه في مستشفى البرقيق، ووصلت الي عبري بعد أسبوع أو أكثر من إنتظام الطلبة، ورغم عدم رضائنا في البداية عن المدرسة إلا أننا أحببناها وقضينا فيها سنوات جميلة، وجدت الداخلية مليئة بطلبة نوبيين من كل فري النوبة، ومعهم عدد بسيط من غير الناطقين بالنوبية، أذكر منهم إثنين من أبناء الشوايقة، عوض ... ومحمد سليمان، وأثنان من كرمة التزل، كان هؤلاء غربيي اللسان، خاصة أخونا الشايفي محمد سليمان، الذي كان يحس بغربة حقيقية، كان يتغلب عليها بالدندنة بالشعر والغناء الشايفي، أما بقية الطلبة فكانوا نوبة أقحاح، جعلوا من حوش الداخلية حلقة دائمة للغناء النوبي، وتدخين القامشة، والشغب والمطاردات التي تستمر طول

الليل، إستفدنا كثيراً من وجودنا في عبري في جانب الثقافة النوبية، خاصة اللغة، والتي وإن كنا نتحدث بها إلا أنها تختلف قليلاً عن لهجة حلفا والسكوت، ورغم أن الدخليات كانت في طرف المدينة الشرقي، إلا أنها لم تكن تبعد عن النيل كثيراً، شأن مدن وقرى النوبة الملتصقة دائماً بالنيل، فكنا نتمتع بالذهاب والتجول في الشاطئ، كما أن سوق عبري لم يكن بعيداً. فترتي الطلبة في مجموعات صغيرة، ذاهبين إلى السوق أو عاندين من الشاطئ، بينما تری الآخرين مجتمعين في ميدان كرة القدم، لمشاهدة عبدالحي ولونا وختمي، الذين كانوا يتفننون في اللعب، ويجتمع البعض الآخر قرب دكان عمنا (عباس)، لست متأكداً من الاسم، وكان تاجراً ظريفاً، إذا قلت له عندك طحنية يقول لك عندي جبنة، وإذا قلت له عندك صابون يقول لك عندي (ظَهْر)، لم يكن يحب أن يقول لا، بل يعطيك خياراً آخر.



نذكر من أساتذتنا الكرام. الأستاذ سيف، لا أذكر إسمه بالكامل، جاء ليُدرّس اللغة الفرنسية، التي كانت إختيارية، فتكاسل أبناء النوبة عن إختيارها، بحجة أنهم لم يتعلموا حتي اللغة العربية بعد، فلا حوجة لهم بالفرنسية. فحمل الأستاذ سيف متاعه وغادر المدرسة بعد أسابيع من بداية السنة، ونذكر الأستاذ محمد محمود، والأستاذ مصطفى توفيق، والأستاذ الشاعر الرقيق سراج سيد حمدون، ابن جزيرة أرنتي قرب عبري، الذي كان يسمعوننا من الشعر النوبي ما يشجينا، فنحفظ منه علي الفور، والأستاذ محمد عثمان، أستاذ التاريخ، والأستاذ محمد وهبة، أستاذ العربي والدين، كان من تيج علي ما أذكر، وكان هناك مدرسان مصريان، وواضح أنهما كانا من أبناء القاهرة، إذ اعتبرنا عبري منطقة شديدة بالنسبة لهما. كانا كمن ينحت الصخر. ولا بد أنهما كانا يرددان أبيات الطنطاوي القاسية في حق السودان، ثم نذكر الأستاذ الناظر قاسم (الصورة). لا أعتقد أن أحداً من الطلبة كان يعرف إسمه بالكامل، ولا أعتقد أن أحداً من الطلبة يمكن أن ينسي الناظر قاسم. فهو من الشخصيات التي تبقي في ذاكرة من يعرفه، كان مصري اللهجة، ساخراً من كل شيء، درّسنا الجغرافيا، وكان يسخر من أسماء المدن بما فيها الخرطوم. ثم نذكر السقا عبد الحميد، الذي ترقى فتحول إلي طباط. كان فناناً، يهوي الرسم، كانت له لوحات بديعة، ونذكر أيضاً الصول (اعتقد) أن إسمه كان عثمان. كان مرحاً يتضاحك مع الطلبة.

كانت مجموعة بدين بقيادة الأخ عبدالخالق ساتي، وكان عبدالخالق مرحاً يحب الحياة بصورة عامة، طيب القلب، عطوفاً، إلا أنه كان سريع الإنفعال، جاهزاً للعراك عند الإستفزاز. له كبرياء لا تقبل الضيم، يذكرني بالمثل المصري القدير محمود المليجي، لا أدري لماذا يخيل إلي أنه كان يمكن أن يقوم بأدوار محمود، كان من أصدقائه في المدرسة طالب من جزيرة (بنا) إسمه نصرالله، كان عبدالخالق كلما يلتقيه يناديه بصوت عالي (نصرالله وأجرك علي الله)، بعد التخرج تاه في الخرطوم قليلاً، ثم إغترب في السعودية مدة من الزمان، وإنتهى به الأمر مقيماً في بدين، ولكنه

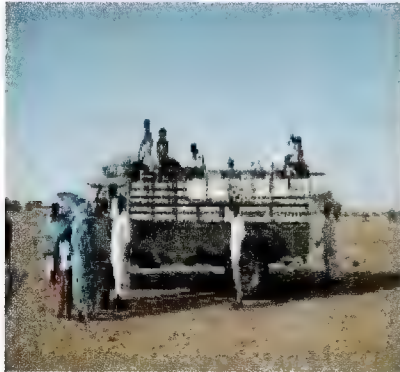
ارتحل إلي الخرطوم حيث يقيم الآن، أما حسين فكان ودوداً، صديق الجميع، لا يتعاطي السجائر ولا أي مكيفات أخرى، ميرغني إدريس كان فيه غموض ليس من السهل كشفه، كان له مجلس معروف أمام باب الداخلية، من مجلسه ذاك يكشف المدينة كلها، ويأتيك بالأخبار، أما الجزولي سعد الدين فلم يفهم أحد في المدرسة إن كان هو جادا أم هازلا، متدينا أو غير متدين، له ضحكة مجنّجة، يجاملك بها ويذهب، وقد أتى الحديث عنه في مكان آخر، أما صلاح توفيق فهو صديق العمر، وهو شقيق لي لم تلده أمي، وصلاح سريع التعارف، يستطيع خلق صداقات مختلفة مع الناس من الجنسين في وقت وجيز، كان من ظرفاء الداخلية، عمل في بنك النيلين لمدة وجيزة، ثم إنتقل الي بنك الراجحي في مدينة الرياض بالسعودية، حيث ترافقنا منها في رحلات ترفيهية لبعض الدول ، كان صلاح من المميزين في الوظائف المصرفية ، لو إستمر فيها لكان له شأن آخر ، ولكنه إختار الهجرة الي بلاد العم سام، وأتخذ من (philly) مقراً دائماً ، ولكن لا دوام لشئ في الدنيا ، فجاءنا في شيكاغو عندما كنا بها ، وكعادته ففي فترة وجيزة تعرف على المدينة أكثر من المقيمين بها سنوات ، إذ يمتلك ما يسمى في الإنجليزية (Sense of Directions) وهي موهبة خاصة لا يتمتع بها الكثيرون ، وأنا من هؤلاء الكثيرين والحمد لله ، فأنا أضيع داخل شقتي ، إذ يتعسر علي معرفة غرفة النوم من المطبخ ، وباب الشارع من باب الحمام . وبعد 20 سنة خدمة في تورنتو تختلط علي الإتجاهات . فأذهب جنوباً حين مقصدي الغرب ، وشرقاً حين مقصدي الشمال ، ولكن لله درّ العلماء . فليهم في كل حوجة دليل . وفي كل زنقة مخرج . فهم لم يتوقفوا بصناعة الطائرات التي إنزلقنا بداخلها فطارت بنا إلى ما وراء البحار . ولم يتوقفوا بصناعة العربات التي نمتطيها صباح مساء لنجوب بها شوارع المدينة ، بل صنعوا لأمثالنا من التائهين أجهزة صغيرة ، ركبوها لنا في العربات فوق رؤوسنا المعطوبة لنستدل بها في معرفة الإتجاهات ، ولما كثرت أسئلتنا لهم عن وصف الأماكن وخريطة الوصول إليها، ولما وجدونا تائهين في طرقات الأرض ومناكبها التي سرنا فيها نأكل من رزق الله ، صنعوا لنا ال (Global Positioning System) ثم إختصروا لنا الإسم إلى حروف ثلاثة فقالوا ال (GPS) فقلنا الهي بي أس . وما أدراك ما الهي بي أس . هو يا سيدي (نظام تحديد الموقع العالمي) والجهاز الذي نستعمله نحن هنا هي النسخة الأمريكية . فإذا أردت السفر من شقتي (المتواضعة) في شرق تورنتو إلى صديقي الأثير علي عبدالرحيم في بيته الأتيق في جنوب غرب فلادلفيا فما علي إلا أن ألقن هذا الجهاز العجيب عنوان علي . فيتولي هو (الجهاز وليس علي) رسم الخريطة أمامي . ثم تنبيهني بالصوت إلى كل ملف ومفترق . ثم إذا أخطأت بعد ذلك فبسرعة خارقة يعيد الجهاز رسم الخريطة من جديد ويواصل تنبيهني بالصوت ، وللجهاز الأمريكي مائل في أوروبا والصين والهند واليابان ، ومن القليلين الذين يملكون تلك الموهبة أيضاً الأخ محسن عبد اللطيف ، إذ يتمتع بذلك حاد في حفظ الأماكن والإتجاهات وإستعمال ال (Common Sense) في التوصل إلى إختصار المسافات . وفي شيكاغو عشنا حيناً من الدهر في صحبة إخوتي الأخيار ، صلاح ومحسن وعمر عبدالرحيم وعادل توفيق والصادق فرحان وصلاح علي (صلاح مشو) الرباطاني الذي (تدنقل) بمحض إرادته، أو محض إرادة (القسمه) . ومحمد حسن زبير (محمد لطيف).

وصلاح توفيق إيتني له عمارة في الشجرة حيث يسكن مع أسرته الكريمة ، أختي العزيزة خالدة وأبنائي رماح ومريم ومشكاة ، ثم إنتقل بأسرته إلى مدينة أيوا (IOWA) حيث يقيم الآن.

وعودة إلى عبري ، ومحمد محي الدين زمراوي ، أخ وصديق ، رجل عفوى نبيل، ذو إبتسامة دائمة، لا أذكر أنه تشاجر مع أحد أو أخطأ على أحد ، هو أيضاً عاني غربة السعودية لسنوات، ثم هاجر إلى أوريا حيث تنقل في دولها، ثم إستقر به المقام في بلاد الخواجات، أما عبدالرحمن فلم يكن كثير التداخل مع الطلبة، تركناه في الرياض وهاجرنا، ولم أعرف عنه بعد ذلك، أما محمود توفيق فقد كان من عقلاء القوم، بدأ مراحل الدراسة بمدرسة الأستاذ عبدالجبار في مدينة كوستي ، ثم إنتقل إلى مدرسة بدين الجنوبية الأولية ، وهي من المدارس الأولية العريقة ، ثم مدرسة كرمة النزل الوسطي (كروج) ، ثم زاملنا في عبري ، ومحمود من الذين يملكون رؤية واضحة وقراءة صائبة لمساحات المستقبل ، كما أنه من الذين يحددون الهدف ويسعون إلى تحقيقه بتأنٍ محسوب ، إلتحق بمصنع سكر عسلاية موظفاً ، وإلتحق في نفس الوقت بجامعة القاهرة فرع الخرطوم طالباً من منازلهم ، وتولي شقيقه صلاح إرسال المذكرات له في مقره في عسلاية ، تخرج من الجامعة وتدرج في سلك الوظائف في المصنع حتي أصبح المدير الإداري . ثم إنتقل إلى مصنع سكر حلفا مديراً إدارياً تم الجنيد حيث يعمل الآن ، خلال هذه السنوات الطويلة كان محمود عضواً في الهيئة النقابية بالمصنع ومسئولاً للإتصالات ، ثم أصبح رئيس الهيئة النقابية من 89 إلى 1993 ، يشغل الآن عضو النقابة العامة للصناعات الغذائية والسكر ، متزوج وأب لثلاثة أولاد وبنتين ، أما يحيى حاكم فقد كان مجتهداً طموحاً ، وإلى ذلك كان وسيماً جريئاً مغامراً ، تملك قلوب الحسان في عبري ، إلتحق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، درس القانون ثم إلتحق بسلك القضاء ، وترقى فيه ما شاء الله له أن يترقى.



إلى الجنوب من عبري توجد قرية تيج، وإلى الجنوب منها قرية كُيكة، وهي بلدة الشاعر النوبي الكبير الفاتح شرف الدين، صاحب قصيدة (قسكون دوي) و (جاين جدو)، وهي قرية الشيخ المشهور محبوب شيخ ادريس، وبها قبته ذات

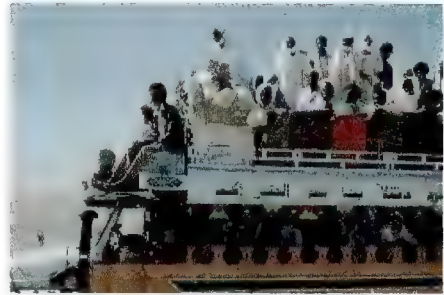


الطراز العجيب (الصورة) ، وهي قرية البروفسر نجم الدين محمد شريف، عالم الآثار، الذي كان أول مدير للهيئة القومية للمتاحف والآثار، كما أنها قرية الأستاذ محمد ميرغني مبارك الذي عمل وزيراً للخارجية في عهد مايو.

في سفرنا إلى عبري كنا ننحشر في باطن اللواري من كرمة النزل ، والطريق غير معبد ، واللواري سلحفائية السير ، وعلى غير عادة السلحفاء فهذه اللواري تئن وتتوجع ، تقطع المسافة بين كرمة وعبري في يوم ونصف ، وهي مسافة لم يكن ليزيد زمناها من

الساعات عن عدد أصابع اليد الواحدة إن صلح الطريق ، ولكن من يصلح الطريق؟ ، كان يقود هذه اللواري مجموعة من السائقين المعروفين ، أذكر منهم عوض محمد عيسى ومحمد عبدالله ودهب ، وكانوا كعادة سائقي اللواري والبصات يحبون مهنتهم ويعشقون عرباتهم عشق إمرؤ القيس لفرسه ، ولو قدر لهم لقالوا في (الحديد) أعجب مما قاله الجاهليون جميعاً في النوق والبعر ، فهم يهيمون في حب هذه العربات حتى أنهم يحملونها بكل زينة لامعة ، ويكتبون عليها من العجائب والغرائب جُمَل في منتهى الطرافة ، بعض هذه الجمل أبيات من أغان شائعة ، وبعضها الآخر أمثال متداولة ، ولكن بعضها تركيبات لفظية ما أنزل الله بها من سلطان ، ولهؤلاء السائقين طريقة خاصة في الكلام ، وهم يتعمدون القسوة البالغة في التعامل مع (المساعدين) ، الذين يبذلون جهداً خارقاً في التعامل مع هذه العربات في حالات (الوعلان) في الرمال أو الطين ، ويبقى لكل سائق طريقة خاصة أيضاً في العرف على (البوري) ، فلهم نغمات وألحان حصريّة ، تبقى ماركتها مسجلة باسم السواق المعين ، وفي زمان مضى كانت لهم مكانة مميزة في المجتمع ، إذ بالإضافة إلى ما مثله معرفة السوافة في ذلك الوقت من تميّز ، فالعمل كسائق لورى أو بص في الطرق الطويلة كان يضيف على الرجل قدراً إضافياً من الرجولة في نظر الناس ، فهو دليل على القوة العضلية والقدرة على مجابهة الصعاب.

وفي السفر بالبصات كان الرجال عادة يتركون النساء داخل البص ويصعدون إلى السطح حيث المكان أريح ، وفي سطح البص إلى الجهة الأمامية توجد (التندة) ، والتندة عادة مكان مريح جداً إذ يمكنك أن تمد رجليك ، وهي مكان يعده المساعدية لأنفسهم ، ولكنهم يضيفونك إماً لصلة رحم أو إذا إستشعروا فيك خيراً ، وهذا الخير (خشم بيوت) ، ربما تمثل في (نص عرقى) أو (سجارة بنقو) أو ربما شراب فاخر من (خمر النصارى) كتلك التي ذاقتها بت مجذوب في موسم الهجرة إلي الشمال وقالت لمحييميد تفاصيل ما إمتنع الناس عن قوله ، وكان السائقون والمساعدية يعدون الطعام



بأنفسهم في الغالب ، يحملون معهم اللحم والبصل بكميات كبيرة، ولا يدعون إلى (الحلة) إلا أهل الخير ممن سبق ذكرهم ، ورغم خشونتهم وبطولاتهم إلا أنهم كخلق الله جميعاً يصيبهم الخوف والتردد في بعض الأحوال ، ومثالاً فقد كانوا يتشاءمون من وجود امرأة واحدة في البص أو اللورى ، لدرجة أنهم كانوا يرفضون التحرك بإمرأة واحدة ، فلا بد من إمرأتين أو أكثر ، كما كانوا يتشاءمون من وجود سرج بين العفش . ومن الغرائب أنهم كانوا يتفاءلون برؤية الثعلب ، وكانت لهم حكاوى كثيرة عن (أبو فانوس) ذلك الجنى الذي كان يعتمد تنويه السائقين في الخلاء ، ومن أشهر السائقين في خط الشمالية على عهدنا بالسفر طه وسيداحمد نورا ، وكان السائقون يعملون كسعاة بريد ، إذ يحملون الرسائل من وإلى البلد.

كان فيما مضي هناك سكة حديد بين حلفا وكرمة، أنشأها الإنجليز أثناء حملة دنقلا في 1897 م. كانت محطاتها الرئيسية من الشمال هي حلفا وصرص وعكاشة وكوشة وأبوصاري ودلقو وكرمة ، ثم تعطل ذلك الخط لسبب ما ، فتهب الناس قضاياها الحديدية وسقفوا بها بيوتهم.

.7.

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

يقال أن في هذا البيت خطأ نحوي، فلا يجوز استعمال أن مع كاد، ولكن مالنا وما لذلك، المهم أن شوقي أمير الشعراء، والبيت يعجبنا .

أنشئت أولى مدارس الجزيرة في العام 1943، وهي مدرسة بدين الأولية بنين، ولكن الخال عبدالقادر همت، والذي كان دفعة (1948)، يقول لي انه يعتقد ان المدرسة أقدم من ذلك، ربما من الثلاثينيات، و أول مدير لهذه المدرسة هو الأستاذ عبدالمجيد قناوي، ثم الأستاذ سيد امام، وهم من ابناء دنقلا المدينة، ثم الناظر مصباح محمد إبراهيم، من أبناء شيخ شريف، وله صلة قربي باسرتنا، إذ أن جدتنا الكبيرة (ستنا حسنين باباتود) من شيخ شريف، وكانت المدارس قليلة في المنطقة، ومدرسة بدين احدي اقدم المدارس، كان يأتها التلاميذ من مناطق المحس المختلفة، في فترة لاحقة سُميت المدرسة بـ بدين الشمالية، لأنهم



أنشأوا مدرسة ثانية سموها بدين الجنوبية. أما المدارس الوسطي في ذلك الوقت فكانت تنحصر في حلفا . أرقو . القولد . ثم مروي ، وفي مرحلة لاحقة عبري ودلقو والبرقيق، ويحدثي عبدالقادر عن مدينة حلفا في ذلك الوقت، فلا أجد إلا الحسرة تملأني، إذ كانت المدينة في مستوي القاهرة وأجمل، بها شوارع مسفلة تغسل كل يوم، بها مدارس من طوابق عدة، بها فنادق راقية، سامح الله من أغرقها، وتأملوا معي هذه الصورة ، فهي لفندق في وادي حلفا في الثلاثينات من القرن الماضي.

في منتصف الخمسينات تم إنشاء مدرسة بدين الأولية بنات، إحدي أقدم مدارس البنات في المنطقة، ثم توالى إنشاء المدارس، بالعون الذاتي في الغالب، حتي بلغ عددها العشر مدارس من كل المراحل، وقد تم إنشاء هذه المدارس تحت إشراف أساتذة كرام من أبناء البلد، ومن الشخصيات التعليمية الكبيرة ممن تركوا أثر في البلد نذكر علي سبيل المثال لا الحصر، الأستاذ عبدالله صالح، من سقدان، ويرجع أنه كان أول من عمل مدرساً من أبناء بدين، وهو خريج معهد المعلمين بالدويم، جاء ليدرس في بدين في عام 50 او 52 ، ثم عثمان كنة من سلنارتي ونصر محمد نصر (شرايين) من آل فقير نسي، ثم الأستاذ عبدالله حسن، كان مدير مدرسة شبة الابتدائية علي أيامنا، وشبة الابتدائية أنشئت في العام 1966، ولكننا بدأنا سنة أولى في العام 1965 في منزل عمنا حسن عثمان عنبوج، (حسن برسي) الذي تصدي لمسألة التعليم فتبرع ببيته حتي يتم بناء المدرسة، رحمه الله، كان شخصا مثيراً للجدل، ولكنه كان هميماً بمشاكل الناس وهمومهم العامة، وبذل مجهوداً كبيراً في خدمة مشروع شبة وتشي الزراعي، وكان أول مدرس درّسنا في سنة أولى إسمه احمد حاج، من (بُلنارتي) ولا اذكر أنه إنتقل معنا إلي مباني المدرسة الجديدة، وكان

فراش المدرسة هو محمد عوض الله طه، وكان مدرساً أكثر منه فراشاً. إذ كان يقوم بتغطية الحصص مع الأستاذ أحمد، وفي عام 1966 م إنتقلنا الي مياي مدرسة شبة الابتدائية بنين . كما سماها من بنوها بالعون الذاتي ، وهو الإسم الذي خرجت به المدرسة عشرات الدفعات . وذهبت في إجازتي الأخيرة لأجد (الحكومة) وقد غيرت إسم المدرسة . وهو تصرف أحمق . فيه ظلم كبير للبلدة وأهلها . ولكن متى لم تكن الحكومات ظالمة؟؟؟.

الأستاذ عبدالله حسن شرقي، كان مدير المدرسة، درسنا الحساب في سنة رابعة، كان يلقي الدرس مصحوباً بهيبة من شخصيته الطاغية فلا ننسي ماقال، وكان بكوراً يأتي الي المدرسة في وقت مبكر من الصباح، فيأتي التلاميذ الي المدرسة ويدخلون في هدوء وأدب خوفاً من الأسد الرابض بالداخل، والأستاذ علي آدم، كان يأتينا من شياخة سقدان، طويلاً مبتسماً، كان جميل الخط، يكتب ملخصات من الدروس بخط عريض ويعلقها علي حائط الفصل، والأستاذ عثمان حمزة، من مشروع البرقيق، كان يلقي الدرس بهمة، ثم لا يمه بعد ذلك أن تفهم أولاً تفهم، تكتب الواجب أو لا تكتب، ويقول لك بالنوبية إذا ما دابر تكتب ما تكتب، وعندما يأتي المفتش الي المدرسة، كان في فصله يختار أسهل الدروس، درس يعرفه كل التلاميذ، (يُفَوِّتْ) به المفتش، والأستاذ محمود عثمان من سقدان أيضاً، كان يأتي الي المدرسة علي عجل، ويذهب علي عجل، وكانَ التدريس بالنسبة له عمل إضافي، والأستاذ عبدالفتاح فرج، كان يلقي الدرس وكأنه في مسرح، يرفع صوته ويخفضه، يستعمل يديه ورجليه حتي يفهم التلاميذ، والأستاذ خيرى ملجأب، درسنا الدين في سنة ثانية، ولا انمي أنه كان يبدا في قراءة سورة المسد وهو ما يزال في مكتبه وبصوت عالي (تبت يدا..) فتردد نحن في الفصل، وحتى يصل الفصل من المكتب تكون قد سمعنا السورة، والأساتذة عبدالله بكري ومحمد فرح، من جزيرة صاي، وكان عبدالله بكري يأتي الي المدرسة ويستصحب ابنته معه، وكان يتحدث ولكنه مصرية، وعندما يقول الرقم 11 كان التلاميذ يضحكون ، لأنه كان يقول(حضاش)، والأستاذ كامل الجندي الذي عندما نقلوه الي سالي وفي حفلة الوداع القي قصيدة لا أعرف إذا كانت من تأليفه، وقد إعتذر للتلاميذ عن اي عنف استعمله مع بعضهم، وطلب منهم العفو، ومن عادة المدرسين أن لا يعتذروا، وخليل أبوزيد، من كرمة النزل، كان سرع الحركة والمشي، وكان يدخل بشرافة، والأستاذ عبداللطيف علي الرشيد، اعتقد أنه كان من مشو، كان هادئاً، قليل الكلام، خافض الصوت، كان الوحيد من المدرسين الذي يصلي الصبح حاضراً في المسجد، والأستاذ جعفر أبويكر، محمي ساخر، لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، من اشطر المدرسين الذين مروا علينا، ولكن كان له عقاب مؤذ، وكان يدخل علي طريقة المدرسين الخاصة فيشبهك السجائر، والأستاذ محمد نصر من أكد، أزهرى تطبع قليلاً ببعض الصفات المصرية، والأستاذ محمد عثمان علي ، ثم الأستاذ عبدالشكور جبارة، مدرس لغة عربية من طراز ممتاز، (في الصورة مع زوجته الودودة مديحة في منزلهم العامر بكرمة البلد علي أطراف مشروع البرقيق) . ذهبت لزيارته في إجازتي الأخيرة مع بعض الزملاء فاستضافونا بكرم وحفاوة ، وقضينا معهم وقتاً ممتعاً ومفيداً ، فما زال الأستاذ هو نفسه ، لا يمكن أن تجلس معه ولا تستفيد من حديثه.

كانت له إهتمامات أدبية وثقافية فإستفدنا منه الكثير، درّسنا صفّي الخامس والسادس، ولا ننسي تلكم السنتين الإضافيتين في الإبتدائية، إذ جاءنا السلم التعليمي سبّئ الذكر، ونحن في سنة رابعة، نتأهب بكل الشوق لدخول الوسطي، وبدلاً من الإنتقال الي الوسطي جلسنا في نفس المدرسة سنتين



إضافيين علي مضض، وفي تلك المرحلة جاءنا الأستاذ عبدالشكور، وفي تلك الفترة المبكرة تعرفت منه علي نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، ويحدثني صديقي علي عبدالرحيم أنه قرأ (البؤساء لفكتور هوقو) في ذلك الوقت عند عبدالشكور، والأستاذة، في مراحل معينة من عمر الطلبة، هم الذين يكونون الطلبة، هم الذين يجعلون الطالب يحب المادة أو يكرهها، كما أن قوة شخصية الأستاذ أو ضعفها، وتمكنه من المادة أو عدم تمكنه، ينعكسان علي المادة نفسها، كان عبدالشكور يحبب المادة إلي نفوس الطلبة، وكان يحفظ الكثير من الشعر ويستشهد به فتعجب بذلك، وعلي ذكر الشعر فلا يفوتني أن أذكر الأستاذ عبدالعزيز صالح، رحمه الله، هو لم يدرّسنا في المدرسة، أنما كنا نلتقي به في الإجازات بعد أن إنتقلنا الي الثانوية العامة، كنا

نجتمع علي ضوء القمر في ميدان المدرسة فنستمع منه، كان جيد الحفظ ، متع الإلقاء، وهو من الذين حبيبوا إلينا الشعر، كان يضع (سفته) الضخمة ومن فوقها يلقي علينا شعر المتنبي، فنشتهي السفة ونشتهي الشعر :-

عيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتُ يَا عَيْدُ :::: بِمَا مَضَى أَمْ بِأَمْرِ فَيْكَ تَجْدِيدُ

أَمَّا الْأَجْبَةُ فَالْبَيْدَاءُ دَوْنَهُمْ :::: فَلَيْتَ دَوْنَكَ بَيْدًا دَوْنَهَا بَيْدُ

لَوْلَا الْعُلَا لَمْ تَجُبْ بِي مَا أَجُوبُ بِهَا :::: وَجَنَاءُ حَرْفٍ وَلَا جَرْدَاءُ قَيْدُودُ

وَكَانَ أَطْيَبَ مِنْ سَيْفِي مُضَاجَعَةً :::: أَشْبَاهُ زَوْنِقِهِ الْغَيْدُ الْأَمَالِيدُ

لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَيْدِي :::: شَيْئًا تَلَيَّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ

يَا سَاقِيَّ أَحْمَرُ فِي كُوُوسِكُمَا :::: أَمْ فِي كُوُوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِدُ

أَصْخَرَةً أَنَا مَالِي لَا تُحَرِّكْنِي :::: هَٰذَا الْمُدَامُ وَلَا هَٰذَا الْأَعَارِيدُ

إِذَا أَرَدْتُ كُنَيْتَ اللَّوْنَ صَافِيَةً :::: وَجَدْتُهَا وَحَبِيبَ النَّفْسِ مَفْقُودُ

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبْتُهَا :::: أَنِّي بِمَا أَنَا بِكَ مِنْهُ مُحْسُودُ

أَمْسَيْتُ أَرْوَاحُ مَثَرٍ خَازِنًا وَتِدًا :::: أَنَا الْغَنِيُّ وَأَمْوَالِي الْمَوَاعِيدُ،

ومن الأساتذة ذوي المكانة الكبيرة في الجزيرة، الأستاذ عثمان سيدأحمد كُنة، ويرجع له الفضل في توسيع وتجديد المدرسة الشمالية، وتم ذلك عن طريق العون الذاتي، وقام تلاميذ المدارس من أنحاء الجزيرة بعمل جبار أشرف عليه الأستاذ عثمان بجدارة، ويتعامل أبوي كبير مع التلاميذ ، وقد أورد الأستاذ جعفر عباس أن إنتقال الأستاذ

عثمان كنة إلى مدرسة بدين شكل قفزة كبرى في المسار الأكاديمي للمدرسة ، وقال الأستاذ جعفر أن مدرسة بدين كانت لسنوات سبقت وصول الأستاذ عثمان كنة والأستاذ نصر محمد نصر لا تتمكن من إدخال أى طالب للمرحلة المتوسطة ، وقد تزامن وصول عثمان مع وصول أول ناظر نوبي للمدرسة هو الأستاذ سيد أحمد ضرغام ، وفي أول عام بعد وصول الأستاذ عثمان تمكنت المدرسة من إرسال 19 تلميذ دفعة واحدة إلى البرقيق وأرقو ، بعد ذلك تم نقل الأستاذ عثمان إلى معهد الحفير مشو العلمى ، وهناك أيضاً تمكن في أول عام له من إرسال 10 تلاميذ إلى المدارس المتوسطة ، والأستاذ نصر محمد نصر (شرايين) وهو من آباء التعليم ورجالاته في المنطقة كلها ، رحمه الله ، وقد رثاه بعض تلامذته بشعراً بأس به ، وأيضاً الأستاذ عبدالفتاح محمود ، والأستاذ عبدالفتاح محمد علي ، الذي عمل فترة مديراً لمدرسة بدين الثانوية العامة ، والأستاذ عبدالمجيد فضل حاكم ، وعبدالعال محمد فرح ، والأستاذ الظريف حسن عبدالرحمن ، صاحب التعليقات الساخرة ، والأستاذ الصارم أرصد أحمد ، والأستاذ خيرى ملجاب ، والأستاذ محمد سعيد حسنين ، وأستاذ الإنجليزية الممتاز عبدالعال همت ، وأستاذة اللغة العربية مولانا الأستاذ محمد الحسن محمد موسى ، الذي درسنا اللغة العربية والدين في البرقيق الوسطي ، والأستاذ إبراهيم محمد فقير ، والأستاذ محي الدين زمراوي ، كان هؤلاء من الجيل الأول من مدرسي بدين ، وقد ذكرتهم علي سبيل المثال ، ولمن لم تسعف الذاكرة بإسمائهم العتي ، كلهم أستاذة أجلاء ، ننحي إحتراماً لهم ، وقد جاء بعدهم عدد هائل من أبناء بدين من الجنسين ، عملوا في مجال التدريس ، ولا يسع المجال لذكر أسمائهم ، لهم التحية والتقدير ، ومن الشخصيات التي كان لها وجود رئيسي مؤثر في المدرسة على أيامنا العم إدريس كبوش ، وهو أول فراش في المدرسة ، وجاء بعده ابنه المرحوم عبدالمجيد إدريس ، وأيضاً نذكر عمنا جلال وديدى ، الذي كان يبيع الأكل ، ثم التاجر الكبير صالح أبوضروس وزوجته ، فقد كانوا خير عون للمدرسين في مدهم بالطعام والشراب عند الحاجة أو عند قدوم بعض الضيوف إلى المدرسة ، ثم مجلس الآباء ، الذي تكون من عدد من رجال العمل العام في شبة ، لجمعهم التحية والإجلال ، وكانت المدرسة عند إفتتاحها تحفة رائعة مقارنة بالمباني الأخرى ، وكانت الجدران مطلية بالجير الأبيض الناصع ، وفي ساحتها الداخلية حديقة جميلة بها ممرات مزينة ، وكانت أرضية الفصول مبلطة بالأسمنت ، ومقاعد التلاميذ وطاولات المدرسين جديدة تلمع في لونها الأخضر.



في عام 1983 تم إنشاء مستشفى حديثة في الجزيرة بتمويل أساسي من أبناء الجزيرة المغتربين في دول الخليج والذين تبرعوا بسخاء كعادتهم دائماً ، وأول طبيب قام بإفتتاح وإدارة هذه المستشفى هو الدكتور كمال أحمد حسين الصائغ ، وقامت المستشفى علي أكتاف رجال أفاضل من أبناء الجزيرة ، رجال أفنوا أعمارهم في خدمة الجزيرة ، لمن توفي منهم الرحمة ، ولمن بقي طول العمر والعافية ، أما قبل ذلك ، وقبل ان تنشأ بعض نقاط

الغيار. فكان في الجزيرة مركز صحي واحد. فيه مساعد طبي وممرض. أما أشهر المساعدين الطبيين بالنسبة لدفعتنا فقد كان عمنا صندلوبة. كان يداوي الناس بالكلام الطيب أكثر مما يداوي بالأدوية . خلق وأسرته علاقات طيبة مع أهل الجزيرة وأمتدت هذه العلاقات حتي الآن . ومن الصدفة العجيبة أن إبنته تسكن الآن في البيت المجاور لبيت أخي الشقيق صلاح توفيق . والحقيقة أن المركز كان غير مكتمل ولم تكن هناك أدوية كثيرة. بعض القطن والشاش وشئ مثل الديتول، وحبوب السلفا، وشراب المزيج، وحقنة البنسلين، هذا كل ما كان متوفرا. كان شراب المزيج هذا دواءً لكل داء. وكان الناس يطمنون إلي تشخيص الحكيم إذا قرر لهم حقنة، ولكن إذا لم تكن هناك حقنة فيتململ الناس ويعودون إلي بيوتهم وهم غير مقتنعين بالعلاج، وربما أعادهم أهل البيت إلي العيادة مرة أخرى ليطالبوا الحكيم بحقنة بنسلين، وكان العلاج يعتمد علي براعة المساعدين الطبيين أكثر منه علي الأدوية.

ومن الممرضين الذي خدموا في البلد عبدالدائم حسن عثمان برسي. والمرحوم أخونا حسين عبدالرحمن آدم، والذي توفي شاباً. رحمه الله. كذلك عمنا عباس كيمبال، وعبدالهادي عكاشة رحمهم الله . جاءنا كثيرون من خارج الجزيرة كمدرسين ومساعدين طبيين وأطباء وممرضين. والحقيقة أن كل المهنيين الذين كانوا يأتون إلي الجزيرة للعمل كانوا (يركلسون) هناك. يجدون تلك البيئة الهادئة وجو الجزيرة المنعش واهلها الطبيين. فيطيب لهم المقام وتحلو الحياة. ومنهم من (عمل الحالة واحدة) وتزوج من الجزيرة وأستقر بها.

كانت الرعاية الصحية فيما مضى متطورة أكثر منها الآن . فبالإضافة إلي الإهتمام الذي كان يجده الإنسان في نفسه كان هناك إهتمام كبير بالبيئة . فقد كان لكل منطقة عامل صحة يعمل علي رش الببوت والمزارع وبرك المياه الواقفة بالمبيدات الحشرية. وكان عامل الصحة يستعمل مادة الـجيمكسين . ولكن هذه المادة منعت من الإستعمال عالمياً إذ ثبت أنها يمكن أن تسبب في أمراض خبيثة.

وعلى ذكر مرافق التعليم والصحة والخدمات الإجتماعية فلا بد أن نذكر شخصية بدينية بقدر ما كانت مثيرة للجدل فهي شخصية تفتت في خدمة أهل الجزيرة . وهي شخصية عمنا محمد عثمان فقير (موسوليني)

وموسوليني هو أحد أميز الشخصيات في تاريخ الجزيرة. وكان به ولع شديد للعمل العام من خلال حب مفرط للقيادة والزعامة . وبمؤهلات فطرية من دهاء وذكاء عرف بهما، وكان شيخ خلوة يعرف القراءة والكتابة. والذين يعرفون القراءة والكتابة كانوا قليلين في جيله . ورغم أنه في أحيان كثيرة كان يتعامل مع الناس بترفع (المثقف) كما كان يعتبر نفسه (مع فارق معني الكلمة). ومع أن ردوده للناس كثيراً ما كانت تعبر عن ضيق ساخر بجهلهم. إلا أنه كان محباً للدعابة ويتمتع بحس فكاهي رفيع، وكما وصف أستاذنا جعفر عباس فقد كانت ضحكته مجلجلة، تسمع في الأحياء المجاورة. ومن فكاهاته التي كان يدخلها في الوعظ الديني أنه وعظ الناس مرة وقال لهم أن مصافحة النساء لا تجوز، فسأله أحدهم قائلاً: ليه ما قلنا لينا الكلام ده من زمان؟؟ فقال: (أيقن إننا أيلين إريس) يعني أنا ذاتي عرفت الحكاية دي يا دوب.

كان مهتما بالتعليم فتصدي له. أورد الأستاذ جعفر عباس هذه الفقرة في حديثه عن الرجل في منتديات أبناء بدين : (وموسوليني هو أول من انتقل بفكرة الخلوة التقليدية (المسيد) الى روضة يتعلم فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة وعلم الحساب.. ولعل قليلين يعرفون ان تلك الروضة ذات الامكانات المتواضعة (كانت الكتابة غالبا بمسح التراب/الرمل ثم الكتابة عليه) كانت نواة مدرسة بدين الجنوبية.. فقد نجح موسوليني في اقناع السلطات بتحويل روضته التي كنا نسميها "ميمد اسمانتو"، ونقول عن الملتحق بها "ميمد اسمنتولا دافي".. نجح في اقناع الجماعة في المديرية بالدمار بترقيتها الى مدرسة صغرى.. ذلك ان بعض تلامذته استطاعوا الدخول في الصف الثالث في مدرسة بدين الابتدائية (الشمالية) لاحقا متخطين سنتين دراسيتين.. وكان اول مدرس ببدين الجنوبية يأتي معينا من قبل وزارة المعارف (التربية) يسمى بشير . وانتقلت مدرسة موسليني من المبني المتواضع الواقع خلف بيته الى غرفة في الداخلية التابعة للمدرسة الابتدائية وبعدها صارت هناك ضرورة لنقلها الى مبنى مستقل فكان ان تم تشيد مدرسة بدين الجنوبية (ووقفة عند حقيقة ينبغي ان يفخر بها كل بدناوي وهي اننا رواد في العمل التعاوني الناجح والفعال.. بعد الشفخانة ومدرستي بدين الشمالية والابتدائية للبنات لم تقدم اي حكومة خدمة لجزيرتنا).. كان موسوليني مهندس مشروع شبة الزراعي ومشروع جزيرة عثمانارتي واسمه الرسمي "مشروع بدين ص" والطاحونة التي تقع جنوب المدرسة الجنوبية وافتتح اول بقالة تعاونية شرق بيته بمحاذاة الجدول الذي يفصل منطقة المدارس القديمة عن خميس إكي.. وهو الذي سافر الى الدامر (رئاسة المديرية الشمالية) وأتى بتصديق مدرسة بدين الاولى للبنات وطاف على البيوت ليقتنع الآباء والأمهات بتسجيل بناتهم فيها) إنتهي حديث الأستاذ جعفر عباس .

كان عمنا موسوليني ((سقراطياً، مشاء)). يمتطي حمارته ويطوف بالبلد ويقف هنا يتحدث . وهناك يلقي ببعض الفكاهة، وهناك ببعض التوجيهات والمواعظ . وكما أنه تصدي للتعليم تصدي أيضاً للمشروع الزراعي، فكان من المؤسسين لمشروع شبة وتشي الزراعي وقضي علي رئاسته مدة من الزمن، ومما ينقل عنه أنه وبعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية أبرق الملك بريطانيا مهناً إنتصار الحلفاء، وعندما تلقى الرد من جلالة الملك جمع الناس وقال لهم أنه لم يفعل ذلك للشهرة بل ليعلم الملك أن جزيرة بدين في السودان توجد بها وسائل إتصال، وليعلم الحاكم العام في السودان أن أهل الجزيرة في إمكانهم أن يتخطوه ويخطبوا لندن مباشرة.

وقد كافح عمنا موسوليني كفاحاً مستميتاً لتثبيت مشروع زراعي تابع لمشروع البرقيق كان موقعه شرق بلدة البرقيق مقابل جزيرة أرتقاشه. وقد حدثت منافسة ضارية بين أهل بدين وأهل جزيرة أرتقاشي، ووصلت القضية إلي المحاكم، وكان موسوليني يمثل بدين. وعندما سأله القاضي في خبث شديد أين تقع الأرض المتنازع عليها. مقابل بدين أم مقابل أرتقاشه. قال للقاضي : مقابل السماء، وبعد صراع طويل تمكن أهل أرتقاشه من الإستيلاء علي المشروع بعد وفاة موسوليني . كانت فيه . رحمه الله . موسولينية معدلة، حسب المعطيات المحلية، ومن هنا أخذ الاسم، كان يتمتع بثقة مفرطة في نفسه، أخذ من الدنيا أكثر مما أعطته .

في ربي القرآن الكريم
شعر عبدالله الحطامي

مفتوحه تسمى سورة (٢٥)
صادق يدع ادماء في العندة سنة من موافق
الاولى للمرأة بشرجه شوط لوجه فوزا من سرعا كلابعد
به وه والها قد انزح الاول والزوج اوصيهم
يتقسم الذي الى مجبر وعي حورفا مجبر معا الى الوشيد اوصيه
لا ب الرشيده ان حرمته الصغيرة ورويا والكلد ابالله
في شلوه ويطايعين سنة الا الذي عاعة كسر مجبر
ومجنونة وادرس ويجدوم وسائر العيسين بصير يرب به الزوج
كاتبه كوا حقيقة
ماده ٢٤
ماديه السفيرة فان قاعن وي يحرمت ايعا والكلد ابالله
تعيين الزوج وتزوج بنته كيمية فيهم فقد زوجه الاول
مقد السفيرة طوبه اعطاه انه حسن ولله
الصغيرة التيب او اخلع من زوجها من اولاد سم طغته
فلا تخرج على الزوا
مجدد الام بنته طالفة تولى زلت بكارتها بمقد زنج سم كوله
عقله اليه الزوج يد الله ولا يشك كليمه
مده لها بعد طوله لها رقة قد اوفى به اوصيه ولا يشك
التي اقامت بشما السالكه لجهته وزوجها سنة من طوبه الزوج
ولا تلتك الطوطه بعد فراقه واقفا الزوج ام لا لا انا اعلم
سلوه الزوج كما تليز جمع منها وبوا قامة معك
ماده (٢٧)
نار النسيم اذا ظهر فساد حاله بعد وليها من صرنا عي من

يا أيها الكلم العلى الشان
يا من أضأت غياهب الإنسان
ما دمت فينا لن يتوه سفيننا
فالحرف نور في يد الربان
من عند ربي قد أتيت مفصلاً
وبقيت وحياً دائم التبيان
هو حبل ربي للوجود جميعه
جمع الأمور وصاعاً كل بيان
هو قول حق غير ذي عوج أتى
أنعم به - قد جاء من منان
وتكفل الله الحفيظ بحفظه
ليعيش صرحاً كامل البنيان
يا أيها العطشى تعالوا نرتوي
ونعيش أماناً في ربي الفرقان

كان في الجزيرة عدد كبير من حفظة القرآن، حفظوا القرآن في خلاوي كبيرة في مقاصر (الشيخ هارون)، وشيخ شريف، والترعة، ومناطق أخرى، ثم عادوا وفتحوا الخلاوي في الجزيرة فدرس خلق كثير علي أيديهم، من هؤلاء الشيوخ جدنا الشيخ شيخ طويل، وجدنا الشيخ عثمان فقير، وعثمان فقير كان من العلماء الكبار، ف بجانب حفظه للقرآن كان فقيهاً مفتياً، كما أنه كان المأذون الشرعي للمنطقة، وله بعض الكتابات الشرعية ولكنها ضاعت ولم يبق منها إلا منشور واحد خاص بمسائل الزواج، مكتوب بخط يده، وهو نفسه غير مكتمل، وقد بدأ الكثيرون حفظ القرآن على يده ولكنه توفي صغيراً، ثم تولى أمر الخلوة جدنا محمد فقير، ثم والدي فقير علي، الذي قرأنا الخلوة علي يديه، ومن الحفظة أيضاً جدنا الشيخ بشير صالح تور، وإبنه الشيخ سعيد بشير تور، وجدنا الشيخ عثمان محمد صالح تور، ووالدنا الشيخ عبد الحميد محمد، الذي كان من القلائل الذين يحفظون القرآن علي أكثر

من رواية، وبتجويد متمكن، كان جيد الحفظ جيد التجويد ، ومرة أثار خلافاً فقهياً، فقد كان يتلو من المصحف في المسجد، وداهمته غفوة ، فتوسد المصحف تحت رأسه ونام، فأيقظه عمنا عبدالله شريف، الذي كان مشاعباً، ولامه علي توسد المصحف ، فوجد الشيخ لنفسه مخرجاً فقهياً بأن أشار الي رأسه قائلاً ان رأسه في الحقيقة مصحف، فلا تعدو المسألة من أن تكون مصحف فوق مصحف، وكان لغوياً يحفظ الكثير من قواعد اللغة المتعلقة بالقرآن، كما أنه كان يحفظ ألفية ابن مالك، وكان بعض الأحيان يقرأ منها فلا يعرف إن كان الكلام عربياً أو شيناً آخر، فلم تكن نفهم منه شيئاً ، ولم نعلم أنه ألفية ابن مالك إلا لاحقاً :

وكل حرفٍ مستحقٍ للبناء*** والأصل في المبني أن يسكننا
ومنه ذو فتحٍ وذو كسرٍ وضَمٌ*** كأينَ أَمْسٍ حيثُ والسَّاكنُ كم
والزَّفْعِ والنَّصْبِ أجعلنِ إعراباً*** لاسمٍ وفعلٍ نحولنِ أهَاباً
والإسمُ قد خُصَصَ بالجرِّ كما*** قد خُصَصَ الفعلُ بأنْ ينجزماً
فازفَع بضمٍ وانصُبْنِ فتحاً وجرَّ*** كسراً كذكر الله عبدهُ يسُرُ
واجزُمُ بتسكينٍ وغيرُ ما ذكر *** ينوبُ نحو جاً أخو بني نمر
وارفعِ بواوٍ وانصبِ بالألفِ*** وأجرِرْ بياءٍ ما من الأسماءِ أَصِفُ
من ذاك ذو إن صحبة أبانا*** والفمُ حيثُ الميمُ منه بانا
أبَّ أحمَ كذاكَ وهنَّ*** والنقصُ في هذا الأخير أحسنُ
وفي أبٍ وتاليه يندرُ*** وقصرها من نقصهنَّ أشهرُ
وشرطُ ذا الإعرابِ إن يَضِفَنَّ لآلِيا كجأ أخو أَيْكَ ذا اعتلا
بالألفِ أرفعِ المثني وكلا*** إذا بمضمِرٍ مضافاً وصلّا

ومن الحفظة أيضاً الشيخ سيد عبدون (سيد مايو) (والد الأستاذ عبد الوهاب سيد)، وأيضاً الشيخ عكاشة حاج محمد أرو، والشيخ الحاج حمزة حاج، والشيخ حاج محمد أحمد الأمين، والشيخ فضل أبويكر، والشيخ علي محمد

خير عنبوج، والشيخ بشير فرح أورسابل، والشيخ فقير أحمد عثمان، والأستاذ محمد حسنين (والد الأستاذ سعيد محمد حسنين)، والشيخ عوض الله طه، والأستاذ محمد علي محمد موسي، والشيخ حامد شوكت الشهير بـ"فقير بحرية"، والشيخ حاج فرحان، والشيخ محمد حاج عبدالعزيز، وأخيه الشيخ عثمان حاج، والشيخ محمد عبدالعزيز الزين، والشيخ فقير همت، ووالدنا الشيخ محمد طه صالح (الصورة على اليمين) وكان من القلائل الذين يجيدون قراءة القرآن على أكثر من رواية ، بدأ الحفظ في خلوة شيخ طويل



محمد نور على يد الشيخ عثمان فقير، ولكن الشيخ عثمان توفي في سن مبكرة ، كان الشيخ محمد طه قد حفظ بعض أجزاء القرآن ، ثم إنتقل إلى خلوة سلنارتى ، وتلمذ على الشيخ محمد الأمين لمدة سنتين ، ثم إنتقل إلى قرية

شيخ شريف . حيث خلوة الشيخ حاج سعيد أحمد حاج سعيد ، وهي الخلوة التي خرجت العشرات من حفظة القرآن ، هناك أتم الشيخ محمد طه حفظ القرآن ، ولأنه كان من المتفوقين والمجيدين للحفظ فقد طلب منه الشيخ حاج سعيد كتابة مصحف بخط يده ، كان ذلك كما ذكر الشيخ محمد في عام 1941 ، وذكر الشيخ محمد أنه بعد إكمال كتابة المصحف تجهز للسفر إلى بدين ، وبعد أن صعد إلى العربة تذكر أنه نسي تشكيل صغير ، ربما فتحة



على حرف من حروف إحدى الآيات ، فنزل وركض إلى الخلوة ووضع الفتحة على الحرف في الآية ثم سافر ، بعد ذلك سافر الشيخ محمد إلى أمدردمان ، والتحق بالمعهد العلمي ، ولكنه لم يكمل دراسته هناك ، إذ اضطرت ظروف أسرية إلى العودة إلى بدين . فاستقر بها ، وأفتتح خلوة لمدة قصيرة ، ثم عمل بالزراعة والتجارة ، وأذكر أنني عندما كنت أعود ليلاً من منزل جدي الأمين إلى قبة ، كنت أمر بجانب دكانه فكنت أسمع الشيخ يتلو القرآن ليلاً على ضوء مصباح صغير بعد أن يغلق الدكان ، رحمهم الله جميعاً وأثابهم بالقرآن. ومن الحفظة أيضاً الشيخ عبد الله محمد موسي (عبدالله فقير) ،

والشيخ أبو زيد حمزة ، والأستاذ طاهر سيد ترجمان ، والشيخ عبدالله محمد همت (عبدون ميمد) ، ومن الجيل الجديد الأستاذ الشيخ أنور عبدالصادق ، وعبدالباقي إدريس كجر ، وعبدالغفور محمد علي محمد موسي.. والشيخ أمير السر سيد أحمد. من الخلاوي القديمة والمعروفة في جزيرة بدين خلوة الشيخ شيخ طويل في شبة. التي تولى أمرها أجدادنا حتى انتهت أمرها إلي والدي فقير علي الذي كان آخر شيخ في تلك الخلوة. وخلوة الشيخ عبدالحميد محمد الذي قرأنا عنده بعض الوقت. وكانت خلوته في مكان مدرسة شبة الابتدائية بنين الحالية. هناك كنا (نكنس) الحوش بأيدينا، كنا نقف صفاً في خط مستقيم ثم ننحني ونغرس أصابعنا في التراب ونمشي للخلف (حركة ورا) ونحن نشهد:

أَقْبَيْنُ قِسْرَ وَلَا جَلْبُو

تَكَا جَلْبُونُ قِسْرَ وَلَا جَلْبُو

وكان الشيخ عبدالحميد حليماً ، ولكنه عندما يغضب كانت له شراسة لا تقاوم. كان يحمل العصا ويحجز الطلبة في ركن ويضرب حيث إتفق، يُنزل العصا ولا يبالي. وكان إذا غضب من طالب يجلدّه (فلقة) بأربعة كبار وهو يسأل الطالب:

إر كجيا؟ (يعني هل أنت حمار؟ فيقول الطالب (أَيّ) يعني نعم

فيقول: قيديتا فْكُنّا (يعني هل تأكل القش) فيقول الطالب (أَيّ)

فيقول :: دقزكا أَكْزْ دوقوا (يعني هل نضع عليك السرج ونركبك) فيقول الطالب نعم

فيقول: نزلوه.

وكانت هناك خلوة الشيخ محمد شوكت الكبير في تشي. وجاء من بعده الشيخ حامد صوفي الكبير. ثم الشيخ حاج



فرحان، وخلوة الشيخ عبدالله محمد موسي والتي
مازالت مستمرة، وخلوة الشيخ محمد الحاج عبد
العزیز في سلنارتي، التي تولى أمرها لفترة الشيخ محمد
عبدالعزیز الزين، وخلوة الشيخ إسحاق يعقوب في
سقدان، وفي سلنارتي أيضاً خلوة الشيخ محمد أحمد
حاج علي (صايم). وهو من خريجي الأزهر في 1845
ميلادية، وكانت الخلوة ((مسيداً)) صغيراً ثم قام
أحفاده بتحويلها الي جامع كبير ملحق به خلوة تقوم
الآن بتحفيظ القرآن وتخصص جائزة كبيرة للحفظة في
رمضان من كل عام، ثم خلوة (آل خطيب) الشيخ حاج

شوكت إمام جامع سلنارتي، وخلوة الشيخ أبوزيد حمزة التي خرجت بعض الحافظات من النساء في السنوات
الماضية، والخلوة لها فرع في أبسقان، ثم هناك مركز الشيخ صالح شبر الإسلامي في سقدان، والذي اسس في العام
1998 . جاء في تعريف المركز في منتدي بدين هذه الفقرة : ((ويقوم المركز بأعمال الإشراف والتنسيق للمحاضرات
والندوات والدروس الدينية العلمية بجزيرة بدين وما جاورها من الجزر والقرى والهجر، مسترشداً في ذلك ومهتدياً
بالشيخ صالح شبر (رحمه الله) الذي كان يوزع محاضراته ودروسه وكلماته التوجيهية في جميع جوامع جزيرة بدين
وماجاورها ..

كما يشرف المركز على أحد عشر داراً لتحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية للنساء داخل جزيرة بدين موزعة توزيعاً
جغرافياً على الشياخات الأربع ، كما يشرف على ثلاث خلايا لتدريس وتعليم القرآن للناشئة من الجنسين تلقيناً ثم
باستخدام الألواح الخشبية للمتفوقين في مراحل متقدمة حسب التقاليد التراثية . دون إغفال الوسائل الحديثة ..
كما يعمل المركز على إحياء دور ورسالة المسجد داخل الجزيرة وخارجها.)) والشيخ حنفي عثمان الطيب هو إمام
الدعوة وإمام وخطيب مسجد المركز.

وكان من المتعارف عليه في كل أنحاء السودان، عند اكتمال قبول الحوار في الخلوة أن يقدم ولي أمره هدية للشيخ
حسب طاقته وإمكاناته، يبدأ الطالب الجديد بكتابة الحروف على الأرض ويظل يكررها في كل يوم إلى أن يستقر
رسمها في ذهنه. وتسمى هذه العملية عندنا (أرمي) بعد ذلك يستحق الغلام حمل (لوح) وهو عبارة عن قطعة
مستطيلة من الخشب، وفي الخلاوي الكبيرة ألواح مشهورة اكتسبت شهرتها من كثرة عدد الحيران الذين حفظوا
علمها فيتنافس عليها الحيران الجدد ويتفانون بها، وتجري عملية التعليم الأولى في اللوح بأن يكتب الشيخ للطالب في
البداية بنواة التمر على اللوح المطلي بالجير الأبيض، ثم يمرر الحوار القلم عليها إلى أن يثبت القلم في يده ثم يوالي

الكتابة كل يوم وبذات الطريقة حتي يتمكن من الكتابة بنفسه مباشرة علي اللوح .

يجري في الخلاوي استعمال وسائل وأدوات معينة في التعليم، وهذه الأدوات جلبها من البيئة المحلية المحيطة بالخلوة؛ فنجد أن اللوح الذي يكتب عليه الطلبة هو من خشب الأشجار الموجودة في نواحي القرية، كما أن القلم المستخدم في الكتابة يجري صنعه من مواد محلية أشهرها سيقان نبات الذرة (مري) أو أشجار البوص (القنا) وهي أشجار رقيقة ومجوفة فيصنع كل طالب أقلامه بنفسه ويضعها في (كنانة) يسميها الحوار قلامة أو مقلمة، كذلك على الطالب في الخلوة أن يؤمن لنفسه حبر الكتابة ويسمى (العمار) ويصنع من الصمغ مضافا إليه السخام الذي يتكون أسفل أواني الطهي بالجمر والحطب والأثافي ويسمى في عامية اهل السودان السكن، ووبر الغنم (شنقرتي) أو (دلتي)، وبعد أن يكمل الطالب صناعة العمار يصنع له أثناء خاص لوضع العمار يسمى (الدواية)، وحسب حديث والدنا الشيخ حمزة أبوزيد الذي حفظ في خلوة شيخ شريف فقد كانت

مدة الحفظ تتراوح ما بين الخمسة إلي السبعة

أعوام، وكان الطلبة موزعين علي البيوت في القرية، يستضيفهم الناس بفرح وسرور وتفاؤل، وقد قرأ هو وجيله بقراءة ورش ولكمهم الآن يعلمون التلاميذ بقراءة حفص لصعوبة ورش، وختم القرآن كان أهم مهرجانات الخلوة، والختمة (الختمى) كانت تتم عادة في يوم أربعاء معين في شهر صفر، وفي كثير من مناطق السودان تقام وليمة (كرامة) كبيرة بعدها أهل الطالب الحافظ، وبعد تخرج الطالب جرى العرف إذا كان الطالب ممن يجيدون الخط أن يكلفه الشيخ بكتابة مصحف هدية للخلوة.

أما إذا كان المتخرج لا يجيد الخط فعليه أن (يدلي) يتلو القرآن مائة مرة ويهدي ثوابه لمؤسس الخلوة. وكلا الأمرين ليس شرطاً ولكن أغلب الخلاوي تأخذ به. غالباً ما كانت الخلاوي ملحقة بالمساجد (المسيد) كما يعرف، كان يوجد في الخلوة حجر كبير مقعري يسمى حجر (الحماية) وهو الإناء الذي تمعي (تغسل) فيه الألواح المكتوبة كل صباح لتعاد الكتابة عليها مرة أخرى، وفي وسط الخلوة يلاحظ الداخل موضع ناروحي معلم كبير في الخلاوي (نار القرآن) أو التقابة، وتبدأ قراءة القرآن عندها مع مغيب الشمس، فتشعل النار بالحطب الذي يحضره الطلبة، ويجلس الشيخ والطلبة (الحيران) ملتفين حول الحلقة. وكان المشايخ قديماً يهتمون بتعليم الطلاب ألفية ابن مالك التي تحوي قواعد اللغة بعدما يكون الطفل قد بلغ مرحلة "الشرافة" في القرآن أي حفظ ربع القرآن وما فوق؛ وعندها يلبس ثياباً جديدة ويزين لوحه ويخرج في زفة مع أقرانه ليطوف على أهله وجيرانه فرحاً بما أنجز، فهبونه كل بحسب سعته من المال ما يعطيه لشيخه.

ويقوم نظام التحفيظ على القراءات السبع المتواترة برواياتها المختلفة وخاصة روايتي حفص عن عاصم وورش عن



نافع والأخيرة يعتقد عدد غير قليل من شيوخ الخلاوي أنها رواية أهل الجنة: لأن أهل المدينة المنورة يقرءون بها. ويأتي علم التجويد على رأس العلوم التي يتلقاها طلاب الخلاوي بقواعده وأسمه وتعاليمه وهي إخراج كل حرف من مخرجه وإعطاءه حقه دون تكلف أو تعسف، وهو واجب على كل مسلم بالغ يحفظ القرآن أو جزءاً منه. ومن الأمور العجيبة في الخلاوي أن الشيخ يستطيع تصحيح كل الطلبة عندما يخطئون رغم أنهم يقرءون في سور مختلفة، وفي نهاية اليوم وعندما ينتهي "الخيران" من عرض ألواحهم يقومون بوضع الألواح في مكان مرتفع، يسمي عندنا (الكُتَب) وهو شئ مربع أو مستطيل كالشبكة منسوجة من أخشاب رقيقة مربوطة بخيوط من الجلد أو سعف النخيل يعلق من الأربعة أركان في سقف الغرفة بحبال متدلية.

في كل شياخات بدين عدد كبير من المساجد، ففي شُبة مسجد بدين ساب والذي أسسه وقام علي إمامته والدنا الشيخ عبدالرحيم محمد أباد رحمة الله. ثم مسجد جبرين. وكان قائماً في موقع جميل جداً فوق شاطئ النيل مباشرة، وكان يؤم الناس فيه البشخ المتمكن عبدالحميد، ثم تم بناء مسجد جديد بعيداً عن القديم. قام عليه الشيخ عمرنوري لفترة من الزمن. ويتولي أمره الآن الأستاذ الشيخ أنور عبدالصادق، ثم مسجد قبة وهو من أقدم المساجد في الجزيرة. كان يقوم علي الإمامة فيه جدنا الشيخ شيخ محمود فقير علي، وشيخ محمود من أوائل من عرفناهم من (السلفيين) أو أنصار السنة. لم يكن يحب التصوف، وكان له هيبة في شخصيته بطوله الفارع وملبسه الأنيق ولحيته البيضاء الطويلة، رحمه الله. ثم جاء بعده والدنا الشيخ محمد طه صالح، رحمه الله. ثم الأستاذ نجم الدين عبدالمجيد نصر. وهناك جامع شُبة الشرقية وكان يؤم الناس فيه عمنا الشيخ عثمان محمد خليفة رحمه الله. ثم مسجد أبسقان. وفي دقرتي مسجدان. وفي شياخة تشي هناك مسجد كبان. ومسجد بدين كنج، ومسجد ابجاسي. ومسجد سابلي. ومسجد تشي الشرقية (فنتي أرمن تو) وفي كل من سقدان وسلنارتي عدد من المساجد.

وكل بقاع السودان ففي الجزيرة قباب واضرحة عابقات الطيب، لمشاخ متصوفة أجلاء، فتحوا الخلاوي وأوقدوا نار القرآن، وأشاعوا في جو الجزيرة روح تسامح وإخاء، مشوا علي الأرض هوناً. تحميم أغنياء من التعفف، مثلوا الدين في بساطته فاخذ الناس دينهم من هؤلاء الشيوخ بالحكمة والموعظة الحسنة. وإنظمتهم طريقة صوفية في العقائد والعبادات. مارس الناس شعائرهم في يسر وسهولة. كانوا يؤدون الصلاة دون أن يحفظوا شيئاً من القرآن. ولا أية واحدة. أحسنهم كان يحفظ الفاتحة. يسبقون الوضوء دون أن يعرفوا له سنة أو فرض. كانوا يتوجهون في صلاتهم بالدعاء إلي الله باللهجة النوبية. يصومون ويتصدقون. يخرجون الزكاة من محصول البلج. كانوا يقيمون ليالي المولد النبوي بالمديح الجميل. والمديح من العوامل التي صاغت وجداننا بما فيه من حب وشجن وصباغة ولحن جميل. ومن أكثر الأشياء التي حزنت لها في السودان هو ادخال آلات الموسيقى في المديح، وتحولها إلي اغاني كالغناء العادي، وهذه افقدت المدائح نكهتها الخاصة، وكثر شعراء المديح، الذين اخذوا يكتبون المديح دون التمتع

بذلك الارتباط الروحي الخاص بالله. ودون التمتع بالمقدرة الشعرية واللغوية التي تمتع بها الكبار. مثل (حاج الماحي) و(البرعي). ولن تجد اليوم من يستطيع ان يقول مثل ما قال حاج الماحي.

طالبين ام رمال قام الحبيج عجلان	في نمرة الظهر جمعوا الفروض باحسان
فوق عرفة الطلوع يتحنن الليمان	مزدلفة المبيت جمعوا الحصي الحبان
العبد في مي ورجمنا للشيطان	حلقنا الشعور دهبوا الهدايا سمان
فرحان الحبيج يتلابس القمصان	والعجب العجايب لية الشيلان
نوصل في مدينته النائرة ام بنيان	وادونا الاذن ندخل علي السلطان
نلقي الخير موجد والنعيم كيما	سيد الدار ضمن قال يا عبيد امان

انظروا الي حلاوة هذه الأبيات، وكيف التزم الشيخ بحرف النون في شطري البيت، ذلك من اصعب فنون الشعر . أكثر ما ذكره في مجال المديح عندنا، جدنا سعدالدين وهو يصدق بالبردة و قصيدة زهير (بانت سعاد) بصوت جميل ولغة صحيحة. يبدأ القصيدة كما هي بالغزل:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	مُتَيِّمٌ إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغن غضبض الطرف مكحول
أرجو وأمل أن تدنو مودتها	وما أخال لدينا منك تنوّل

ثم ينتقل الي المديح:

نُبئت أن رسول الله أوعدي	والعفو عند رسول الله مأمول
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب ولو كثرت في الأقاويل
إن الرسول لنور يُستضاء به	مهتد من سيوف الله مسلول

الي آخر المديح في القصيدة.

وكان والدي ينشد بردة البوصيري :

مولاي صلي وسلم دائماً أبدا
على حبيبك خير الخلق كُلهم
الله بالمصطفى المختار فضلنا
على كثير وبالاسلام خولنا

ونرتعي أنه للفوز أهلنا

مُذ لاح نور الهدى الهادي وهل لنا

نادي منادي الهنا في حيننا علنا

بشرى لنا معشر الاسلام إن لنا

أما كبير مادي المنطقة كلها فهو الشيخ المادح عبدالعزيز عبدالكريم قورتي الملقب بـ (شرقاوي) ، كان رحمه الله ذو صوت جميل عذب وله تسجيلات في الإذاعة السودانية.

كان من الأحداث الكبيرة أن يسافر أحدهم لأداء فريضة الحج. يجتمع الناس في بيته في وليمة كبيرة علي كبش أقرن، ثم يزفونه إلي مشرع المركب في سيرة ضخمة وهم ينشدون نشيدا دينيا مصحوبا بدقات قوية من طبل (نوبة) دائرية كبيرة تدق بالجنين. كان يربطها عمنا النور علي كتفيه بحبلين لتتدلي أمامه، ويحمل عصاتين في يديه يضرب بهما الطبل بالجنين بإيقاع معين فينشد معه المجموعة. ولأن عمنا النور كان يعرج قليلاً فتأتي ضربة الطبل مع العرجة فتخاله يرقص، ولعرجته حكاية طريفة لا استحضرها الآن. يودعون الحاج كأنه لن يعود، وعندما يعود يستقبلونه بوليمة اكبر كأنه غزا الروم او هزم الفرس. وكان من العادة أن يعتكف الحاج في بيته سبعة أيام لا يخرج منه، يُزار ولا يزور.

قلت أن في الجزيرة عدة قباب، فهناك قبة الشيخ (شيخ طويل ابورابحة)، والصورة على اليمين هي القبة المذكورة وتاريخ بناء القبة وكيفية بناؤها والمدة الزمنية لبنائها ألغاز لا تفسير لها ، ولا يعلم عنها أحد شيئاً على وجه التحديد. يقول الأخ تاج السر عكاشة أنه سمع من والده أن هذه القبة قديمة جداً ، وأن والده سمع من أبيه أن القبة كانت مبنية على أيامهم ، وشيخ طويل هو جدي والد جدتي، وتقول الأسطورة أن الشيخ توفي ليلاً، فدفنوه في مكان حدده هو قبل ان يموت، وفي الصباح وجدوا تلك القبة الضخمة مبنية، وحسب



رواية جدتي رابحة فقد بناها الملائكة ليلاً، ويقال ايضاً أنه حدث أن إبتلع التمساح صبياً من الحي، فلجأوا إليه، فأخذ إبريقه ونزل الي النهر غاضباً، وبغرفة واحدة من إبريقه (نشف) النيل، فافتضح أمر التمساح، ووجد نفسه في العراء، وعندما حاول الهرب جرياً في اليابسة، ناداه الشيخ، فجاء يرتجف، فأمره أن يلفظ الصبي، فأطلق الشيخ سراحه، وأعاد النيل من إبريقه إلي مجراه فشرب منه الناس، وما زالوا يشربون الي يومنا هذا ، وبالقرب من قبة شيخ طويل، هناك قبة جدنا الشيخ فقير علي (نيسقو) يعني أبوقرون، وهي القبة الظاهرة في الصورة على اليسار مع جزء من الجامع القديم ، تقول الأسطورة أن فقير علي عندما كان يغضب، كانت تنبت له قرون ينطح بها الخصم فيرسله الي القبر ، ولذلك سُمي (نيسقو). والقبة ملحقة بها مأذنة صغيرة ، سلالم كان يصعد بها المؤذن إلي أعلي القبة ليرفع الأذان ، وعندما كنت أصور كان معي أبنا (حجمد) فصعد السلم في خفة شديدة ليمثل الطريقة القديمة للأذان.



وهناك قبة الشيخ عبدالحكم، وعبدالحكم هذا مجهول الهوية، لا يعرف أحد عنه شيئاً، وتوجد أمام القبة شجرة (مور) ضخمة، قالت الأسطورة، انك اذا قطعت فرعاً من تلك الشجرة ودخلت بها البيت، فسوف يشتعل البيت ناراً، فتفادي الناس الحرائق بأن امتنعوا من الإقتراب من الشجرة.

وهناك في منطقة جبرين، في شياخة شَبّة، قبة الشيخ (جبرين)، شيخ جبرين شيخ نَوَار كما يسميه أهل المنطقة، ويقولون (أَيْقَا تَبْتَوِجِي) يعني ثَبْتْنَا، وفي منطقة (حركيا) هناك قبة تعرف بإسم حبس السنين ، ولا أعرف اذا كان هذا الاسم تحريفاً من اسم الشيخ صاحب القبة، وهناك في ابجاسي، في شياخة تَشِي، قبة الشيخ (محمد . شوكت الكبير)، وهو والد حامد(صوفي) الكبير، والذي هو والد بحرية وحاج فرحان، وبحرية هذا هو والد آمنة فقير، رحمها الله ، والتي هي والدة أستاذنا جعفر عباس. وهذه الأسرة حسب الأخ (حسن حامد)، تُكْنِي اي حامد في الأسرة بلقب (صوفي)، والإمام الحالي لجامع شوكت، هو عمنا محمد حامد(صوفي)، وفي تلك المنطقة ، وعلي شاطئ النيل، كانت هناك مقبرة تنسب الي شيخ اسمه (شيخ موسي ود بُرو)، وكان الأطفال عندما ينزلون الي النهر للسباحة ينادونه ويقولون (شيخ موسي ود بُرو، أَلْنِ أَقْلًا كُكُنْدِي وَيْكََا إِدْز)، الأَلْمُ هو التمساح، والككُنْدِي هو حجر صلب ضخم قوي، يدق به (الكُجَر) في الأرض، والكجر هو الودد الذي تربط فيه الهائم، وكان النداء كأنه يقول، امنع عننا التمساح بان تضع في فمه حجراً، ويقال انه في الفيضانات ، كانت المياه تغرق المنطقة التي فيها القبر ولكنها لا تغرق القبر، وقد نُقل قبر هذا الشيخ من قرب الشاطئ الي المقابر ، وحسب إجتهد الأخ معتصم عبدالفتاح ، وهو إجتهد اراه صائناً، ان الأجزاء الجنوبية من جزيرة بدين جديدة لحد كبير مقارنة بالمناطق الشمالية منها، والقباب مبان قديمة، ولذلك فلا توجد قبة في سقدان وسلنارتِي .

كان رمضان كما في كل السودان والوطن الإسلامي له طعم خاص، ويتكون الإفطار من البلح والنشا الساخن والـ ()



أَبْرِي قيل) يعني الحلومر ، وبعض العصائر وطبعاً القراصنة، أما في السحور فكانوا يأكلون شعيرية بلدية سميكة الجدران تقوم النساء بعملها قبل بداية الشهر، وكان عمل هذه الشعيرية مناسبة تجتمع فيها نساء الحي في بيت واحد، وفي نفس الوقت يبدوون عمل الحلومر ، وكانوا ينمون مبكرين ويصحبون للسحور لأكل وجبة كاملة ، ونذكر عمنا عبيدي أبسكو الذي كان يدور في البلدة وقت السحور ضارباً صفيحة بالعصا منادياً النيام للقيام.

ورمضان هو رمضان، يَل عليك في كل عام بطعمه الخاص والفريد ..وحتى من لا يصوم رمضان يحبه .. ويستحلي طقوسه .. ويجد فيه تغييراً من رتبة باقي شهور العام .. وهو رمضان حتي لو جاء في آب (الليل فيه ساعة :::: ونهاره

يوم الحساب) كما قال ابن الرومي .. لا يتساءل فيه الناس كيف جاء ولم جاء .. إنما يستعدون للقياء بالحب والعزيمة .. وشبهة مفتوحة .. تمر باقي شهور العام بطريقة روتينية لا يحس الناس فيها بالوقت كإحساسهم به في رمضان .. يمر اليوم .. ربما ثقيلاً بعض الشيء .. بين إحساس مختلط ما بين الجوع والعطش و(خرمة) المكيفات .. وما أن يقترب الإفطار حتي يشعر كل واحد أنه انتصر علي نفسه .. أو علي الوسواس الخناس .. وكلما مر يوم .. كلما كبر ذلك الإحساس بالانتصار .. حتي ينقضي الشهر ويهل العيد .. وأما العيد فأمره مختلف .. العيد يوحي بالتأمل ويغري بالتساؤل .. يتأرجح بك بين السعادة والحزن .. وأصل العيد في اللغة هو ما اعتادك من هم وشوق .. قال الشاعر (والقلب يعتاده من حُبها عيد) .. وعلي ذلك كان تساؤل ابوالطيب (عيدٌ بأية حالٍ عدتْ يا عيدُ == بما مضي أم لأمرٍ فيك تجديدٌ)؟؟ .. منذ أن أطلقه الأستاذ فهو سؤال حي .. ينظر إليه الأعمى ويسمعه من به صمم .. يردده الدهر .. ينقله جيلٌ الي جيل ..سؤال يتحاور في أذهان الناس .. وفوق رؤوسهم .. يطفو علي ذكريتهم .. قالوه جبراً أو سراً .. العيد يوقظ في الناس الشجون .. يفتقد فيه الناس بعضهم البعض .. يتزاوون ويتصافحون ويتسامحون .. يغمرهم فرح جميل .. والفرح الجميل دائماً مغلف بحزن نبيل .. وليس السر إلا في ذلك الحزن النبيل ... هو الذي يملأ قلوب الناس ودأ وتسامحاً ... في العيد يفتقد الناس موتاهم ... حتى أنهم كانوا يزورون المقابر ... يترحمون على الموتى ... ويغرسون الجريد الأخضر في طرفي القبر .. ويرشون الحبوب فوقه ... في العيد يفتقد الناس مغتريهم .. يفتقد الناس كل من هو بعيد .. اربعة وثلاثين عاماً منذ أن شهدتُ احتفالات العيد في قريتي في بدين .. يااااااااه ... ياله من عمر طويل .. كل هذه الأعوام وأنا أعيدُ في المراق البعيدة الغربية .. كل هذه الأعوام وأنا أستيقظ في صباح العيد فلا أجد نفسي بين أهلي وعشيرتي .. إستيقظت ذات صباح عيد فوجدت نفسي في الخرطوم ... وإستيقظت ذات صباحات أعياد أخرى ووجدت نفسي في مدينة الرياض في السعودية ... إستيقظت ذات صباح عيد فوجدت نفسي في باريس وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في القاهرة وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في مطار روما ... وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في أديس أبابا وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في شيكاغو ... وإستيقظت ذات صباحات أعياد كثيرة ووجدت نفسي في تورنتو .. تورنتو التي إنخذتها سكناً دون مدن الأرض ومازلت أتساءل لماذا فعلت ذلك ... تلك الصباحات العديدة الكثيرة لا تساوي صباح عيد واحد شهدته في مسقط رأسي .. في قرية صغيرة تتكون من سبعة أو ثمانية بيوت (قبة) .. في شياخة صغيرة (سمها شبة) .. في جزيرة في شمال السودان (سمها بدين .. هناك بين والدي وأخوتي .. بين عماتي وخالاتي .. هناك كان العيد له طعم شهري بهي حبي .. له طعم جديدٌ مديدٌ سعيد ..

كل صباح عيد يطرق أسماعي صوت إحداهن وهي تهفي في نبرة ملؤها الإخلاص:

Koreegon aaja nalana

Salmayeenta saleemayeentan

Gem ingalg hawlingalag

Bitani onigoodani assi onigodani

Oreen dolly malladani

onna geegintan

Odi wayini weeri jammini

Magissi samallowgo need nolologo

Oyun werwaka gara najjam

Afian koreiayeentan malleedo keroragam

(عيد سعيد وعمر مديد لكم ولأطفالكم واحفادكم .. وتمنياتى بزيادة الخلفة .. وشفاء المريض .. وعودة البعيد ... يعود عليكم العيد بالصحة والعافية عاماً بعد عام ... وحولاً بعد حول .. لنحضن بعضنا البعض بفرحة وإبتسامة .) ... تلكم كانت تهنئة العيد ... كما كنت أسمعها ... ثم بعد كل تلك المدة الطويلة التي غبتُ فيها عن أعياد البلد ذهبُ هذا العام (2013) لأشهد العيد في بدين .. ولكن لم يكن للعيد طعمه القديم ... ولم تطرق سمعي تلك التهنئة الحميمة .. فقد تغيرت كما تغير كل شئ .. وفقدت ذلك الإحساس المتفائل ... والذي كنتُ أحسه في ما مضى ... في سنين العمر الفرحة المرحه .. المليئة بالتفائل .. لم أكن قد عشتُ ما عشتُ .. ولا جريتُ ما جريتُ .. ولا رأيتُ ما رأيتُ .. ولا قلب لي الزمان ظهر المجن .. كان ذلك قبل أن يماطلني زماني ما منيتُ نفسي به من آمال .. كما ماطل العباسي من قبل ... حين كان (العود أخضر .. والأيام مشرقة .. وحالة الأنس تغري بي وتغريني) ... كان ذلك قبل أن أعرف أن (الدنيا بتهينك والزمان يوريك == وقِل المال يفرُقك من بنات واديك) ... كان ذلك قبل أن نثقلنا الهموم .. قبل أن تذري بنا الأوجاع .. حينئذ كانت الدنيا ممتدة أمامنا كسهل منبسط ... في ذلك الوقت لم تكن المدن البعيدة من أحلامي .. ولا كانت الهجرة من خواطري ... لم يكن المتنني من معارفي ... ولم يكن شعره من رفقاني .. ولم أكن (قلقاً كان الريح نحني) ... أمّا الآن فأين المفر من كل ما كان؟! أين المفر من كل ما تراكم؟! أين المفر من لواجج الذكري وتبارح الحنين ..

*لَمْ يَتَرَكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَيْدِي شَيْئًا تُنَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جَيْدٌ

*يَا سَاقِيَّ أَحْمَرِي كُؤُوسَكُمَا أَمْ فِي كُؤُوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدٌ

*أَصْرَحَرَةُ أَنَا مَا لِي لَا تُخَرِّكُنِي هَٰذَا الْمُدَامُ وَلَا هَٰذَا الْأَغَارِدُ

*إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً وَجَدْتُهَا وَخَبِيبَ النَّفْسِ مَفْقُودٌ

*مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبُهُ أَتَى بِمَا أَنَا شَاكٍ مِنْهُ مُحْسُودٌ

هكذا قلتُ فرددتُ صدي قولك القلوب .. هكذا قلتُ فكان قولك مورداً للنفوس .. وها أنذا أجد في قولك العزاء .. ها أنذا أنسأله اليوم ماذا لقيتُ من الدنيا ؟ .. أشتكي من غريبي .. وأعاني من بُعدي .. هذه الغربة اللعينة ليست أكثر من ستره حال .. أنجرع فيها كؤُوس الهم والتسفيد .. وفيها ما فيها من كُميت اللون أصناف صافية وممزوجة ..

بيضاء وحمراء وصفراء. ودون ذلك وفوق ذلك مختلف ألوانها.. (لا تنزل الأحزان ساحتها=إن ممتها حجز مسنته سراء) .. لها في هذه المنافي بيوت وصلات .. وأديرة وحانات .. ومقاصد ومقامات .. مبدولة لشاربها .. تنفي بالأنها وتسمى بأحسن أسمائها .. من نسل الكرخية والأندريتا .. من الصبهاء والحميقاء.. من أم ليلى والسلافة والمشعشة .. من البكر والشمول والراح .. من كل مدامة للأغتياب والأصطباح .. من مثل (المعتقة منذ دهر في جرار:: ختموها بالأفاويه وكافور وقار) .. ومن بنات العنب زجاجات لبن هدير .. مثل التي أذهلت الأخطل قديماً.. فخرج يجر الذيل نهباً كأنه علي أمير المؤمنين أمير .. من كل (قهوة تأتيك قبل مزاجها عطلاً :: فيليبسها المزاج وشاحا) .. أو كقهوة الوليد بن يزيد .. التي زانها تقادماً حتي تجلت ورق جوهرها .. فتبدت في منظر عجب .. ومثل الذي شرهها الأعشي علي لذة .. ثم تداوي منها بها .. كل تلك متوفرة في المنافي .. تناولك إياها أسيلات الخد .. ممشوقات القد .. مملوخت اليد .. مسبلات الطرف .. بالغات الظرف .. ساهلات العرف ... يسقيتك من اليد خمراً ومن الفم خمراً فما لك من سكرين من بد .. كما لم يكن للحسن بن هانئ من بد .. في دير حنة من ذات الأكبراح .. أو قطرل .. أو قبة الفرك من أكناف كلواذ .. كل ذلك لا يسلي ولا يفيد ولا يداوي .. كل ذلك كان لي قبل هذا اليوم فيه هوي أطيعه وحديث ذو أفانين .. كل ذلك كان في زمن مضي وعمر إنقضي .. وأنت يا سيد الشعراء لماذا سقتني إلي كل ذلك .. هلاً حدثني الآن بحديث آخر ..

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوَى يَا رَسُولَ أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمُتَبَوِّلُ

كُلُّمَا عَادَ مَنْ بَعَثَتْ إِلَيْهَا غَارَ مَتِي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

زُودِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَا دَامَ فَحَسُنَ الْوُجُوهَ خَالَ تَحُولُ

وَصَبِيلُنَا نَصْلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْمَقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

نَحْنُ أَذْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطْوِيلُ طَرِيقُنَا أَمْ يَطْوِيلُ

وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقٌ وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَغْلِيلُ

لَا أَقْمُنَا عَلَى مَكَانٍ وَإِنْ طَابَ وَلَا يُمَكِّنُ الْمَكَانَ الرِّيحُ

أما أنا فأقيم بالمكان إن طاب .. وألفه إن أليف .. ربما ملته .. ربما رحلت عنه .. وسافرت منه ... إلا أنني أعود إليه .. وأقيم في ربوعه وكأنني ولدت به .. علي أن إحساس المقيم ذاك لا يدوم صافياً ... إذ يبرق أمامي مكان آخر .. أشتاق له وأحن إليه .. مكان آخر يطوف في خاطري .. يلوح أمام ناظري ... هو دار أبي .. التي إن دخلتها كنتُ أمناً .. ولكن أين مي دار أبي .. وأين مي الأمان .. منذ أن فارقت دار أبي فارقتي الأمان .. قطعت البوادي وعبرت المحيطات .. فقط لاكتشف أن ما جدت أبحث عنه هنا تركته وراني هناك ..

* أَنَا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُ مَا أَغْهَدُ هُوَ تَوَامِي لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا يُؤَلَدُ

* وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ سَطَاطِنَهُ لَمَّا عَلِمْنَا أَنَّ لَا نَخْلُدُ

* وَإِذَا الْجِيَادُ أَبَا الْبَهِيِّ نَقَلْتَنَا عَنْكُمْ فَارْدَأْ مَا رَكِبْتُ الْأَجُودُ

* من خَصَّ بالفراق فإني مَنْ لا يرى في الدهر شيئاً يُحَمِّدُ

هذا رحمك الله شعر مجيد .. وقول فريد .. فرغم أن (البيّن) لا يولد إلا أنه يصبح توءماً للأنام .. يصطفي منهم من يشاء .. يتخير منهم من يريد .. ثم يلزمهم ملازمة الظل .. فلا يجدون منه فكاكاً .. يذهب في فنون التفريق مذاهب، يمعن في القسوة .. ونبالغ في التجريح .. ولا يملك المرء إلا الطاعة والإذعان .. وأنا لم تنقلني عن الأحبة تلك الجياد التي نقلتك .. ولم أقطع المسافات بالأيام والليالي .. ولم أعاني وعناء السفر وكأبة المنظر .. ولم أصل إلي محطتي أشعث أغبر .. إنما إنتقلت إلي هنا بالسيارات المكيفة .. والنفاثات الفارحة .. ولم يغن عني ذلك شيئاً .. ومثلما كانت جياذك أردأ ما ركبت لأنها أبعدتك عن الأحبة، فإن النفاثات أردأ ما ركبت أنا .. فهي لم تفعل شيئاً غير أنها أبعدتني عن دار أبي .. ومنازل قومي .. عن أغنام أمي ودجاجها وخماتها .. عن مزرعة جدي التي أطعمتني.. و(أزبان) جدتي التي روتني .. عن شجرة اللالوب التي ظلت طفولتي .. عن تل الرمل الذي إرتيمت فيه في ليالي القرية المقمرة .. عن أشجار النخيل التي تحف بيتنا الطيني الوديع .. عن الجدول وصوت البربخ .. عن الجامع والخلوة وصوت المؤذن .. عن شفاوة أطفال القرية .. عن مراتع الصبي ومرابع اللهو

*أني الزمان بنوه في شبيبته فسرتهم وأتيناه علي الهرم

إن قلت هذا قبل أكثر من 1000 عام فماذا أقول أنا .. هل جئت أنا إلي الدنيا في (الزمن الضائع) ... هل جلتها والزمان (شرم برم) .. هل جلتها وهي (فرنديس) أم جلتها وهي (دبنقة) .. وكيف لي أن أعبر عن زماني إلا بمفردات لا تفهمها .. هي مفردات العصر .. 1000 عام يا صاحبي .. ألقيت كاملة .. تبدلت فيها الدنيا .. تبدلت فيها المفردات .. تبدلت فيها المعاني .. تبدل فيها الشعر كله .. هذا زمان ردي .. أصابت رداءته حتي الشعر فأصبح حديثاً وحرأ ومبتذلاً وركبكا ... ولكن لا عليك .. أسمعي مما قلت .. وما أحسن ما قلت .. العزاء ، كل العزاء فيما قلت ..

لَبَّ يا مَنَازِلَ في القُلُوبِ مَنَازِلَ	أَقْفَرْتُ أَنتِ وَهَنَ مَنِكَ أَوَاهِلَ
يَعْلَمُنَ ذَاكَ وما عِلْمَتِ وَإِنَّمَا	أَوَّلًا كَمَا يُبْكِي عَليهِ العَاقِلَ
كَمْ وَقَفَ سَجَرَتَكَ شَوْقًا بَعْدَمَا	غَرَبَ الرَّقِيبُ بنا وَلَجَ العَاذِلُ
إِنْعَمَ وَلَدُ قَلَامُورٍ أَوَاخِرَ	أَبْدَأَ إِذَا كَانَتْ لَهُنَّ أَوَائِلُ
ما دُمْتُ مِنْ أَرْبِ الجِسانِ فَإِنَّمَا	رُوقُ الشَّبَابِ عَلَيكَ ظِلٌّ زَائِلُ
لِلْهَوِ أَوْنَةُ تَمُرُ كَانَتْهَا	قُبُلٌ يَزُودُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ
جَمَحَ الزَّمانُ فَلَا لَذِيذَ خَالِصٍ	مِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُورَ كَامِلُ

نعم.. أقفرت منازل قريتنا.. ديار حوت طفولتنا وصبانا .. شهدت حكاويتنا وغرامياتنا .. وعواطفنا الاولى .. أقفرت كما أقفر علي غيبٍ من أهله ملحوب .. أراها من هنا .. من هذا البعد السحيق .. أراها مرة تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد .. كما لاحت لطرفة بريقة ثمب .. أو كما لاحت للحارث بريقة شمأ ورياض القطا والإبلاء .. لا أري من عهدتُ فيها فأبكي .. ولا يُحيزُ البكاء.. وأراها مرة أخري كما أراها إمرو القيس بسقط اللوي بين الدخول فحومل .. وأراها مرة

ثالثة بعين زهير .. فتبدو كديار الرقمتين .. مراجيع وشم في نواشر معصم. ولأياً عرفت الدار بعد توهم .. وأكاد أشكو إليها وأكلمها. أكاد أسمع صوتها كما فعل ذوالرُمة . غيلان .. أكاد أدع الدمع ينحدر . لعله يعقب راحة .. ولكن ليست لي رواحل .. وليس لي خلآن .. لأسوقهم إلي هناك .. كما فعل ذوالرُمة بجرعاء حزوي :

خليلي عوجا من صدور الرواحل ... بجرعاء حزوي فابكيا في المنازل

لعل انتحار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أويشفي نحيّ البلابل

وأراها مرة رابعة كما رآها الشريف الرضي .. ومثلما فعل قلبه .. تلفت قلبي .. وما زال يتلفت..

ولقد مررتُ على ديارهم وطلولها بيد ألبلى نهبُ

فبكيتُ حتى ضيخ من لغب نضوي ولجّ بعذلي الركبُ

وتلفتت عيني فمدّ خفيّت عني الطلولُ تلفت القلبُ

أقفرْتُ كما أقفرت ديار بالجواء علي عنترة بعد أم الهيثم .. وعفت كما عفت ديار لبيد في مني بحمي ضربة ومدافع الريان .. وأقوت كما أقوت دازمّة علي النابغة بالعلياء والسند .. فوقف فيها أصلاً يسألها . فعيتُ جواباً . فما بالربع من أحد .. وقفتُ منازلنا خاوية علي عروشها .. هاجر منها من هاجر شرقاً .. وهاجر منها من هاجر غرباً .. وهاجر منها من هاجر من الدنيا الفانية .. أقفرت تلك المنازل .. ولكن لها في قلوبنا منازل أهلة بذكرها .. ملينة بالشوق إليها .. فاض بها الحنين .. وطال بها الشجن .. وكيف لا .. فيها مسقط الرأس .. وذكريات الأُمس .. رونق الشباب وموطن الأحباب .. حين كان للحسان فينا إرب .. ولنا فهن مثل الذي لهن .. وأكثر .. ولكنك تقول يا سيّد القول أنّ للأمور أواخر كما كانت لهن اوائل .. وللهو أونة تمر كأنها قيلُ يزودها حبيبٌ راحل .. نعم .. ذاك يا سيدي طبع الزمن .. وسنة الحياة .. وضيمة الدهر .. وما الدهر!! ماذا قلت ؟؟ .. وكيف قلت ؟؟ ..

*وما الدهرُ إلا من رواة قصائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ منشداً

*فساربه من لا يسير مُشمرأ وغني به من لا يغني مُفردا

*اجيزني إذا أنشئتُ شعراً فإنما بشعري أذاك المادحون مُردداً

*وذغ كلُّ صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الصائغُ المخكّي والأخرُ الصدي

تماماً كما أفعل الآن .. أسير بشعرك مُشمرأ .. ولكنه سير كسير الكسح .. وشَمَرُ وادٍ ضعيف .. كببت العنكبوت .. وأغني بشعرك مُفرداً .. ولكنه غناء كغناء النائح .. لم يلجني إليه إلا الحزن والشجن .. إلا الغربة والألمى ..

كيف لم أتخير من شعر الأستاذ إلا ما تغيرت .. وهل كان لديه شعر فيه فرح وسعادة .. هل كان لديه شعر فيه مرح وفكاهة .. أما كان صوته جريعاً .. ولحنه حزيناً .. وقلبه مفعجاً .. ألم يكن شعره ممتعاً في المدح .. منصفاً في الرثاء .. ممعنأ في الهجاء .. مات المتنتي في اليوم الثامن والعشرين من رمضان .. فجاء العيد بعد يومين من وفاته .. ذلك العيد كان يحمل الجديد من أمر الدنيا .. فقد مات مالؤها وشاغل الناس فيها .. قُتل فارس الشعر الأبني علي مشارف بغداد .. فتك به قاطع طريق اسمه فاتك بن أبي جهل الأسدي .. وما أوردته الردي إلا قصيدة هجا بها ابن أخت

فاتك. ضبة بن يزيد. هكذا قضى نحبه علي أعتاب شعره .. أودع الزمان قصائد من عيون عيون الشعر .. ونام قريح العين للأبد .. وما زال الدهر يروي قصائده .. وما زال الخلق يختصم في شعره وبشعره .. فهو الخصم في الشعر والحكم.

ليس لي من مجال لإنهاء هذا الجزء من الكتاب ، والحديث فيه عن الدين ، دون ذكر شخصية دينية اساسية في تاريخ الجزيرة ، وهي شخصية شيخنا المبجل الراحل صالح شبر.

وهو صالح إدريس صالح شبر. أكثر الشخصيات الدينية شهرة في بدين وما جاورها. كان شيخنا الأستاذ صالح شبر. عليه الرحمة. ازهرياً مجيداً. جاءنا من الأزهر بعلم غزير. والي علمه الغزير. كان شيخنا صالح. بهي الطلعة. طاغي الحضور. قوياً مهاباً. وكنت في منتهي الحيرة كيف أكتب عنه. وماذا أقول. ولكن صديقي وأخي علي عبدالرحيم ابسكو. كفاني صعوبة تلك المهمة. فأرسل لي هذا الحديث الشائق عن شيخنا الكبير صالح شبر. واليكم حديث الأخ علي:-

((بعد خصام طال مع القلم. وعشقاً مات في داخلي مع الأدب ، كما ماتت أشياء كثيرة أخرى. استمبحك أخي محمد عذراً. لأحاول الكتابة هنا. عن الرجل الرمز. الرجل الأمة. الرجل الذي تصدي لإصلاح مجتمع بدين وحده. في زمن كان فيه. بعض أئمة المساجد عندنا. كما في كثير من بقاع الوطن الإسلامي. يدعون لنصرة السلطان عبدالحميد. كانوا يدعون لنصرته. في خطب كتبت قبل مئات السنين. دون ان ينتجوا الي أن السلطان مات وشيع موتاً. هذا الرجل الرمز هو الشيخ صالح شبر. ومن بدين لا يعرف صالح شبر. وانا لا ادعي اني الأجدر بالكتابة عن هذا العبقري. ولا ادعي معرفة كاملة عن حياته. ولكفي ساكتب عنه. لحدث شهادته. وما زالت أحداث ذلك اليوم عالماً بذهني. بكل تفاصيله. رغم تمتعي بذاكرة خربة.

صالح شبر. يا أحبتي. كان مدرسة تربوية. ومصلحاً دينياً. وعالماً إجتماعياً. وصاحب رسالة. عاني ما عاني من أجلها. تحمل الأذى الكثير. حتي انه تعرض للضرب المبرح. ولكنه تحمل من أجل رسالته النبيلة. كان الشيخ صالح عبقرياً في وطن اخص بضاعة فيه هي العبقرية. كما قال المبدع الراحل الفاضل سعيد. كان ازهرياً متعمقاً في امور الدين. وكان واعظاً يمر علي كل مساجد بدين. والقرى القريبة. الي الشرق من الجزيرة والي الغرب. كنا نراه في مسجدنا مرة كل ثلاثة اشهر. وما كنا نجرع من بحر معرفته. تفوق ما تعلمناه في سنوات من غيره. كان صالح الصالح هذا. يملك موهبة في الخطابة. وطريقة بسيطة وسلسة في توصيل المعلومة. لم ار مثلاً حتي هذه اللحظة. كان يملك (الكارزما) ، وهي ميزة عرفنا اسمها العلمي فيما بعد. ولكننا كنا نحسها فيه. الكارزما التي يتباهي بها ساسة العالم اليوم. لم يستعمل كلمة واحدة فوق استيعاب البسطاء من اهلنا. الا وقام بشرحها بأسلوبه المبسط الخفيف. كان ظرفياً يضحك كل من في المسجد. ولكنه كان يستعمل الظرف ليغلف به جرعات قوية من امور الدين والعقيدة.

تملك ناصية اللغتين العربية والنوبية. كانت خطبه ومواعظه بليغة وممتعة. كان يلقي خطبه بالعربية وبصوت جهوري. ثم يترجمها الي (النوبية) . وكان كثيراً ما يطلق الكلمة بالنوبية فلا يعرف الناس معناها. فيضطر الي شرحها. وكان له مقدمة خاصة به. يقولها قبل الخطب. ولم أسمع مقدمة أبغ ولا أشمل من تلك المقدمة. لو وجدتھا لكتبتھا هنا. ولكنها ضاعت ولم تسجل. كالكثير الذي ضاع وكان جديراً بالتسجيل. وكان لا يخاف في الحق لومة لائم. يهابه حتي الأئمة والوعاظ ، شعاره قول الفاروق رضي الله عنه (الرجل اذا مشي اسرع. واذا تكلم أسمع. واذا ضرب أوجع). وكانت له غضبات مضرية في حق الله. يفقد صوابه معها فيخاف الناس ويعيشون في رعب. كان له الفضل في محاربة الكثير من البدع والعادات التي لحقت بالدين الحنيف. كان يتحدي أئمتنا ويحاول ان ينتقل بهم الي مرحلة ادراك وفهم صحيح للدين. كان يحاول ان يقول لهم ان المساجد ليست لأداء فرائض الصلاة فقط . بل منها تنطلق حركة اصلاح المجتمع بأسره. كانت رسالته واضحة وصريحة. لا بد من تطابق قولك مع عملك. تلك كانت فلسفته التي طبقها في نفسه. قبل ان يطالب الناس بها. وعدم تطابق القول مع الفعل. هو بالضبط ما يفسر امتلاء المساجد بالناس. وفي نفس الوقت تفشي الفساد الكامل في المجتمع .

في عهد الطاغية نميري. تم زيادة اسعار السكر والقمح. وأخذ هذا المصلح موقفاً من هذه القرارات الجائرة. فحرم علي نفسه اكل منتجات القمح والسكر حتي مات. ويحكى ايضاً ان احدي نساء الحي. جاءت لتسال الشيخ عن رأي الدين في امر ما. ولم يكن الشيخ موجوداً. فاجتهدت زوجها من عندها وأفتت للمرأة في المسألة. وكانت مخطئة. وعندما علم الشيخ بما حدث. لم يتوان في ان يحكي هذا الموقف في كل المساجد. محذراً الناس من خطورة ان يفتي من لا علم له في امور الدين. لم يكن غرضه التشهير بزوجه. ولكنه احس بخطورة الأمر وما يمكن ان يترتب عليه. ولنقارن هذا بكل ما يحدث الآن. الكل يفتي ويكفر ويفسر كما يريد. الكل يتحدث في امور الدين كما يتحدث عن مباراة كرة قدم. دون معرفة. كثرت الاجتهادات فكثرت الخلافات. وكثرت الفرق الدينية.

أما الموقف العجيب الذي شهدته مع هذا الشيخ. فإنه كان علي خلاف مع إمام احد مساجد الجزيرة في مسألة دينية. ولكن الإمام حول الخلاف الي مسألة شخصية. فعندما جاء الشيخ صالح الي المسجد للوعظ بعد صلاة الجمعة. وفور الإنتهاء من الصلاة. غادر الإمام . وطلب من المصلين مغادرة المسجد فور صعود الشيخ للمنبر. فتنهه البعض. ووقف الشيخ في المنبر يتابع الخارجين بهدوء. ثم قام بعد من بقوا من الرجال في المسجد. وكان العدد إتنا عشر رجلاً بالضبط . فقال الشيخ صالح. سبحان الله. هذا هو نفس الموقف الذي مر به الرسول(ص)، عندما جاءت القافلة التجارية بعد طول غياب. تركه الناس واقفاً وذهبوا الي تجارة ولهو. فزلت الآية (وإذا رأوا تجارة ولهو أنقضوا إليها وتركوك قائماً) وشرح الشيخ صالح كيف ان الرسول قام بعد من بقي من الرجال فكان نفس العدد. ووضح كيف ان الرسول قال للمصلين في ذلك اليوم. ان الله رحم اهل هذه الديار. وحماهم من مصيبة محققة. بفضل هؤلاء الإثنا عشر رجلاً. ثم وجه حديثه الي المصلين في صوت حزين وقال. لا ادري ماذا كان

سيحدث في هذا البلد اليوم ان لم تبقوا، هذا موقف حضرته بنفسه. ويعيش في داخلي من ذلك اليوم، ألا رحم الله صالحاً، واسكنه الجنة ، وبارك في ذريته، لم تمهله المنية ففقدته المنطقة كلها في عمر مبكر.))
الي هنا وانتهي حديث الأخ علي، والحقيقة أن الجزيرة إحتفت بذكره العطرة، فأقامت بعض المراكز باسمه، كمركز صالح شبراإسلامي في سقدان، والذي جاء ذكره في مكان آخر من هذا الكتاب.

منذ نهاية القرن السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثامن عشر والرحالة الأوروبيون يجوبون مجري النيل ويسجلون ملاحظاتهم واكتشافاتهم وانطباعاتهم ، متحملين في ذلك مشاق الطرق وعواقبه الكثيرة . ورغم أن غرضهم الأساسي كان إكتشاف منابع النيل إلا أنهم توقفوا في مناطق مختلفة علي إمتداد المجري ولمدد مختلفة . وكان لآثار المنطقة النوبية النصيب الأكبر من هذا الإهتمام . ومنذ تلك المرحلة من الزمن والي يومنا هذا . وإعتماداً علي ما تركه الأوائل من معلومات ووصف ورسوم . مازالت الحفريات تتم والإكتشافات تترى . وما زالت المنطقة تُذهل العلماء والباحثين والمهتمين بما هو مدهش وثمانين . مازالت المنطقة تخرج من وعائها العامر والغني : تخرج الدلائل وتثبت بالبراهين أن حضارة وادي النيل بدأت هنا . في الجانب الجنوبي من الوادي ثم إمتدت شمالاً . في هذه المنطقة المعروفة حالياً بمنطقة النوبة . قامت حضارة كوش التي امتدت من شمال أسوان الي سهل البطانة جنوباً . وحضارة كوش هي إحدى أهم وأكبر وأعرق حضارات العالم القديم . ولم تكن تلك الحضارة ملكاً للمنطقة النوبية ولا (للسودان) الحالي . بل لعبت حضارة كوش دوراً كبيراً وأساسياً في تطور القارة الأفريقية . إذ كانت هي الوسيط بين أفريقيا وما حولها من حضارات . وعلي إمتداد مراحلها الأساسية الأولى في ممالك كرمة . نبتة . ثم مروي . تجمعت عند كوش أفكار وعقائد حضارات العالم القديم . وقد قامت كوش بدور تاريخي في نشر هذه الأفكار والعقائد والقدرات الفنية الي جنوب وغرب القارة . وقد إكتشف المنقبون أن شطراً من أهل أفريقيا كبير عبدوا نفس الآلهة التي عرفتها مروي ودانوا بنفس الديانات .

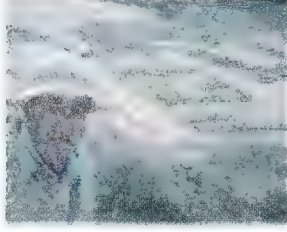
رغم أن تجربة كوش الحضارية هي أكبر تجارب ما يسمى الآن بالسودان . ورغم أنها الأوفر حظاً ومقدرة للإجابة علي سؤال الهوية وإشكالاتها المعقدة . ورغم أنها الوعاء الذي ينضج بالتفاعل الحضاري في السودان بغلفتها المتوسطية والأفريقية . إلا أن البعض (يمن فيهم بعض الباحثين) يميلون إلي إهمال دراسة تجربة كوش باعتبارها حضارة قديمة سادت ثم بادت . والأفقع من ذلك . أن البعض الآخر ينادي بعدم إبتعاث الكوشية القديمة باعتبار أن ذلك تأصيل للعودة الي ما قبل العروبة والإسلام (راجع محمد أبو القاسم حاج حمد . المأزق التاريخي) . والثقافة السودانية لا يمكن أن تمثلها مرحلة تاريخية احادية واحدة بعينها . وتراث السودان الحضاري الأصيل سابق بكثير علي التكوين الحديث للسودان . وإختزال كل تلك الحضارة السابقة في الوجود (العروبي) . والدعوة الساذجة الي حصر الثقافة الحضارية السودانية في الإسلام والعروبة هي مغالطة سخيفة . فالتاريخ ثوابت غير قابلة للتجاهل ولا للمغالطة . التاريخ حقائق مجردة يجب أن تعرض بأمانة . وعدم الإعتراف بالحقائق التاريخية ليس إلا نكراناً للشمس في وضع النهار . وإذا أردنا أن نصل إلي سلام مع أنفسنا . إذا أردنا أن نخرج من مأزق الهوية وأزمته . فعلينا التأسيس للإرتكاز علي التاريخ الكوشي النوبي . تاريخ وادي النيل . الذي هو مهد الحضارات قاطبة . نحن الآن والحمد لله مسلمون . ولكن منطقتنا هي المنطقة الوحيدة التي جريت الأديان في كل صورها . بدءاً من ديانات كوش/كرمة/مروي المتعددة والتي إنتهت الي ديانة أختانتون الذي كان أول من دعي إلي التوحيد . ثم اليهودية . ثم

المسيحية ثم الإسلام . وقد تقبلت المنطقة كل تلك الديانات بطوعها وإختيارها ، ولا يخفي علي أحد أثار تلك المراحل وتأثيرها الموجود الي الآن . كما لا يخفي علي أحد كل المظاهر العقدية والأفكار الفلسفية والطقوس والتقاليد المشتركة بين تلك الأديان . ورغم أن صوتي هذا (أذان في مألطة) لا يسمعه أحد ، إلا أنني أقول أن الهوية السودانية لن تتعدد . ولن تبن لها ملامح إلا بالعودة إلي الدراسات الكوشية . وإدخالها في مناهج تربيتنا الوطنية . إلا بالعودة إلي الأصل . إلي المنبع . إلي القرن السابع قبل الميلاد . إلي حضارة كوش . ذلك التاريخ التليد . تلك الحضارة الإنسانية المتفردة والعظيمة . التي يسميها بعض المستعربين المتأسلمين (ثقافة تيه وضلال) . والحديث عن تلك الحضارة . وإثباتها . وإستخراج عِبَر التاريخ منها . لا ينتقص من صحة إسلامنا شيئاً ، ولكن ما أسخف الإنسان حين ينقصم .

هناك الكثير من الأبحاث والدراسات التي تعني بحضارة كوش . وهذه الدراسات والأبحاث متاحة للقارئ العادي من أمثالي . وما كتابتي هنا إلا تلخيص لما قرأت قديماً وحديثاً . وأنا أكتب من خلفية قارئ مهتم وليس من خلفية باحث متخصص . أود أن أثبت ذلك . ثم أقول أن هناك تسميات كثيرة أطلقت علي السودان من قبل المصريين القدماء . مثال تا سيتي (أرض السهام) . تا نتجر (أرض الآلهة) أو تا نهسي (الأراضي الجنوبية) أو (نيو) . أو (واوات) أما الإغريق فممنذ أزمان هوميروس أطلقوا علي بلاد النوبة تسمية (اثيوبيا) وهي تعني ذو اللون الغامض أو المحروق . أما الإسم الرسمي والأكثر تداولاً للدولة التي قامت في المنطقة فهو (كوش) . وقد إستخدم المصريون هذا الإسم منذ عهد المملكة الوسطي . كما إستخدمه الآشوريون والفرس في مدوناتهم . وبهذا الإسم ذُكرت البلاد في الكتاب المقدس . ومن الثابت أن ملوك كرمة ونبتة ومروي أطلقوا علي بلادهم إسم كوش . ثم جاءت تسمية (النوبة) في وقت لاحق . ولسبب ما غطت علي تسمية كوش . وبدأ تدوين الحضارة الكوشية تحت مسمى الحضارة النوبية . وبغض النظر عن أصل هذه الكلمة (نوبة) فإنها تدل دلالة قَبَلِيَّة . بمعنى أنها تمثل إسماً قَبَلِيّاً مثل أسماء القبائل الأخرى في السودان . وقد أضرت هذه التسمية بحجم حضارة كوش وحصرتها جغرافياً . فعند ذكر النوبة أو الحضارة النوبية ينحصر مفهومها عند السودانين الآن علي مجموعة قبلية صغيرة (المحس) تعيش في رقعة جغرافية صغيرة في شمال السودان . حتي أن بعض السودانين أوروباً غالبية لا يعرفون أن الدناقلة نوبة . رغم أن معاهدة البقط المشهورة كانت في دنقلا . أما سكان المنطقة الممتدة من القولد إلي ما بعد سويا جنوباً فليس لديهم أدني معلومة عن حضارة كوشية أو نوبية . رغم أنها حضارتهم ورغم أنهم كوشيون نوبيون . ورغم أن هذه الحضارة إمتدت حتي سهل البطانة . ودخلت في صراعات مع مملكة اكسوم الأثيوبية . كما أنها إمتدت شمالاً حتي ساحل البحر الأبيض المتوسط . ودخلت في تنافس كبير مع الإمبراطورية الآشورية من أجل السيادة علي سوريا وفلسطين . إذن فمفهوم الحضارة النوبية بأفقه الضيق لا يتطابق مع الواقع التاريخي الحقيقي لهذه الحضارة . ولذلك يجب أحياء وإبتعاش اسم كوش . ولا يقع عبء تلك المهمة إلا علي عاتق النوبيين لا غيرهم .

تلك الأبحاث والدراسات سألقة الذكر تتحدث عن كوش من العصر الحجري القديم والمتوسط والحديث ، إلا أنني أتناول كوش بدءاً من حضارة كرمة ، التي إمتدت في مراحلها المختلفة من سنة (3000 الي سنة 1550 ق . م) ، وكانت كرمة في تلك المرحلة هي عاصمة كوش ، ولذلك حملت حضارة كوش في تلك المرحلة إسم حضارة كرمة (مملكة كرمة). وحضارة كرمة تمثل تطور الدولة في كوش بصورتها الأساسية والفاصلة.

علي اليمين صورة الدفوفة، مركز حضارة كرمة ، وهي حسب حديث د. بونيه (علي اليسار)، كانت مبنى رئيسياً



متعدد الإستعمال ، فبالإضافة الي أنها كانت المركز الديني لكوش ، فقد كانت أيضاً محل لتصنيع وتخزين السلع النادرة قبل تصديرها إلي مصر شمالاً وإلي مناطق مختلفة في أفريقيا جنوباً ، ويشير د. بونيه

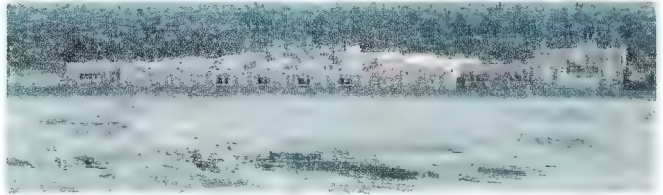


إلي ملحوظة أساسية وبالأغة الأهمية ، وهي (أن الصعود الي أعلي الدفوفة يتم عبر سلم جانبي وليس عبر سلم يتوسط المبنى مثلما هو الحال في المعابد المصرية) ، ويشير د. بونيه إلي أن (كرمة كانت قوية لدرجة أنها أخافت الأنظمة

في مصر وجعلتها في قلق دائم)، وفعلاً ، فقد دخلت في صراعات متتالية مع الأسر المصرية ، فبعد طرد الهكسوس من مصر تفرغ ملكها (أحمس) لمواجهة التهديدات الخطيرة التي مثلتها مملكة كرمة ، توفي أحمس تاركاً العرش لابنه أمنحوتب الأول ، الذي شن حملات مكثفة على كوش ، وهي حملات استمر في تنفيذها كل من تحتمس الأول وتحتمس الثاني، إلا أن القضاء على المقاومة الكوشية في منطقة كرمة اكتمل فقط في فترة الحكم المشترك لتحتمس الثالث وحتشبسوت وتم تأسيس السلطة المصرية حتى الشلال الرابع في العام الحادي والثلاثين من حكم تحتمس الثالث 1460 ق.م.

كان من حسن حظ حضارة كرمة وأثارها المجيدة ، أن توفّر لها عناية الدكتور شارل بونيه، وهو عالم أثار سويسري يعتبر من أكبر علماء الآثار في العالم الآن ، ترأس بونيه فرقة سويسرية عملت في أثار كرمة لمدة 43 عاماً ، ورغم أن التنقيب في أثار كرمة بدأ منذ سنوات بعيدة ، إذ كان الباحث الأمريكي جورج رايزنر قد نقب فيه في بداية القرن الماضي ، أي في حدود 1914 و 1918، ويعتبر رايزنر ممن أضروا التاريخ الكوشي ضرراً بالغاً ، إذ بعد تنقيب مكثف في بعض مناطق الآثار الكوشية توصل إلي أن تلك الأثار ما هي إلا بقايا غزوات مصرية . وأعتبر أن الحضارة الكوشية إمتداد متخلف للحضارة المصرية .

وكان في ذلك مخطئاً وعنصرياً منحازاً ، وعموماً فمن مصائب التراث الكوشي أن كل الذي وصلنا



تقريباً تم كتابته بأيدي غربية ، والأيدي الغربية في جملها مأكرة ، ملفقة ، وغير آمنة ، إلا أن العمل الذي قام به دكتور بونيه ، وبالإضافة إلى عظمته ، فقد كان فاصلاً تصحيحياً لمغالطات راينر وغيره ، مرة بعد مرة أثبت بونيه أن هذه الآثار لم تكن بقايا غزوات مصرية ، بل كانت لحضارة أصيلة نشأت في هذه المنطقة ، وضمن دلائل كثيرة يقول شارل بونيه أن أكبر دليل على ذلك هو العثور على معبد ذي هندسة دائرية مثل ما هو موجود في روما أو اليونان ، ولا يوجد له مثيل في كامل مصر أو على طول وادي النيل "مرة بعد مرة دعمت إكتشافات بونيه الفرضية القائلة أن كل حضارة وادي النيل القديمة بدأت في الجنوب ، في كوش ، في كرمة ، ثم إتجهت شمالاً ، ثم يوضح د. بونيه أن هذه الإكتشافات لها دلالة كبرى بالنسبة لكامل القارة الإفريقية . وإنها حضارة أسطورية غير معروفة بما فيه الكفاية ، وبعد الإكتشافات المهمة التي حققها د. بونيه والفريق العامل معه ، والتي إستمرت كما سبق القول 43 عاماً ، توج د. بونيه هذه المجهودات الجبارة بإكتشاف تماثيل الفراعنة السود ، وقد مثل هذا الإكتشاف ثورة لدي الآثاريين غيرت العديد من المسلمات السابقة ، ووضعت أجوبة متكاملة لكل ما كان مشكوكاً فيه ، تحدثت عن هذه الإكتشافات جهات إعلامية كثيرة ، أما الجهات المتخصصة في كل العالم فقد أصابها الدهول ، لكثرة المعلومات التي وفرها هذا الإكتشاف العظيم ، وبالإضافة إلى ذلك الإكتشاف فقد قام د. بونيه بمساهمة أساسية في إنجاز مشروع هام وكبير ، وهو تشييد مجمع حضارة كرمة (متحف كرمة) ، الصورة إلى اليمين والمتحف يحتوي . بالإضافة إلى تماثيل الفراعنة السود . علي مواد وتماثيل أثرية تغطي كل الحقب التاريخية التي مرت بها المنطقة.



في هذه الصورة (من متحف كرمة) تظهر تماثيل الفراعنة السود التي قام د. بونيه بإكتشافها في (ذكي قيل) غير بعيد من الدفوفة. تهارقا الذي يتوسط الجميع بقامته الطويلة ، متوسطاً تماثيل لتانوت آماني ، وفي الأمام إلى اليمين واليسار، نجد تمثالي سنكامانسكن بلباسه الديني وبغطاء الرأس الذي يحمل شعار الملوك الذين حكموا كوش ومصر ، وإلى اليمين، نشاهد تمثال أنلاماني بغطاء الرأس الذي يحمل إلى جانب شعار ملوك كل من مصر وكوش، يحمل قرون الإله آمون ، أما التمثال الصغير الذي يتقدم الجميع فهو للملك أسبلتا ،

ويقول د. بونيه أن أسبلتا على الرغم من صغر قامته مقارنة مع قامته أسلافه، فإنه كان من أقوى الملوك الذين حكموا المملكة لأكثر من 25 عاماً ، وهو الذي نقل عاصمة المملكة من نبتة إلى مروي|البجراوية.

بعد حملة تحتّمس الثالث علي كوش والتي إحتلت الأراضي الكوشية حتي الشلال الرابع . يبدو أن الكوشيين اخذوا وقتاً طويلاً حتي استعادوا السيادة الكاملة علي كوش . ولما كانت كوش تدار بتنظيم قائم علي مشيخات وإمارات ، ولما ضعفت السلطة المركزية في مصر . دخلت هذه المشايخ والإمارات في صراعات داخلية . ولكن . وتحسباً لغزو مصري جديد . فقد بدأت محاولات لتوحيد كوش . فكانت بداية مملكة نبتة . ونبتة هي المدينة التي إنتقلت إليها العاصمة في (725 ق . م)

وتم توحيد كوش في عهد الملك ألرا . الذي توج ملكاً بعد صراع مرير مع منافسيه.

وألرا هو أول ملك معروف من ملوك نبتة . حكم ما بين (790 إلى 760 ق م)

أحكم سيطرته تماماً علي كامل النوبة العليا . وجعل من مدينة نبتة الواقعة أسفل الشلال الرابع . عاصمة دينية لملكته.

ثم جاء بعده الملك كاشتا (760 إلى 747 ق . م)

ويرجع أنه كان أخاً لالرا . نجح كاشتا في مد حدود كوش الي أسوان . وهو والد الملك الشهير البطل بيأ (بعانخي) 747 إلى 715 ق . م

الذي أكمل طموحات والده وتمكن من احتلال مصر كلها وإخضاعها تماماً في حوالي (740 ق . م) . وأسس دولة قوية إمتدت من البحر الأبيض المتوسط حتي الحدود الحبشية . وكما فعل والده فقد حكم بعانخي بإسم الإله أمون قانلاً (الآلهة تصنع الملك . والناس يصنعون الملك . إلا أن أمون قد جعلني ملكاً . وهبني أمون النبتى حق حكم جميع البلدان). ويعتبر بعانخي هو أول من حكم مصر وهو في كوش . إذ بعد حملته (الدينية المقدسة كما أعتبرها) علي مصر ترك حكم مصر لخلفاءه في (طيبة) التي كانت العاصمة الدينية لمصر في تلك المرحلة وعاد الي عاصمته نبتة التي أخذ في تجميلها وإنشاء المعابد الكبيرة فيها . ومن هناك حكم مملكته مترامية الأطراف . وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين التي حكمت وادي النيل لمدة 80 عاماً . توفي بعانخي في (715 ق . م) ودفن في نبتة حسب الطقوس الكوشية .

وكاشتا هو أيضاً والد الأميرة الكوشية المعروفة (أمانى ريديس) التي صاحبت أخاها بعانخي الي مصر . وأصبحت زوجة للإله أمون الطيب . وبدلت إسمها الكوشي بالإسم المصري الكهنوتي (اماني ريديس) . فكانت الزوجة الإلهية . كانت من حيث المرتبة ملكة وإلهة حية . وأصبحت مسئولة عن مصر العليا نيابة عن أخويها بعانخي وشباكا . عاشت أمانى ريديس في مصر أربعين عاماً . من بعدها . أصبحت الأميرة (شبينوت) إبنة الملك بعانخي زوجة للإله أمون.

خلف بعانخي علي العرش أخوه شباكا (شايako) . الذي أصبح ملك كوش ومصريين (716 و 702 ق . م) وفي عهده تجلت الأطماع الاشورية علي مصر وكوش . فاضطر شاباكا الي البقاء في مصر مقيماً في منف . مبقياً نبتة عاصمة للمملكة . ولم يود شاباكا الدخول في حروب مع الآشوريين فتوصل الي إبرام إتفاق دبلوماسي معهم بتسليمهم أحد

المتמרدين المطاردين من قبل الملك الآشوري سرجون الثاني ، كما أنه تقرب للنخبة الكهنوتية للإله بتاح في منف والإلهة تاست في بوباستس وغيرهم حتي كسب ودهم فأحس بالإستقرار ، عندما توفي حنط جثمانه ونقل إلي الجنوب حيث دفن في هرمه الصغير في مقبرة الأسرة في الكرو قرب نبتة.

بعد وفاة شباكا إعتلي العرش شبتاكا (شبتكو) (702 الي 690 ق . م) ، ومن غير الواضح لعلماء الآثار حتي الآن إن كان شبتاكا ابن بعانخي أو ابن شباكا . بمجرد أن أصبح شبتاكا ملكاً وجد نفسه أمام أزمة خطيرة ، إذ أصبحت التهديدات الآشورية القادمة من شمال العراق علي اراضي البحر الأبيض المتوسط حقيقية ، فأضطرت إلي السفر إلي مصر ، ومن هناك إستدعي أخيه تهارقا (تهارقا) للقدوم إلي مصر علي رأس جيشه من كوش ، ثم إتصل بحكام سوريا وفلسطين في محاولة لتكوين جبهة لمواجهة الأطماع الآشورية ، ثم جاءه طلب مساعدة من حرقيا ، ملك مملكة يهوذا ، فاستجاب له وأرسل حملة عسكرية بقيادة تهارقا ، دخل تهارقا مع الآشوريين في معارك متعددة ، وأبدي هو وجيشه بسالة شديدة ، ولكن لم يكن تهارقا مضطراً لمواصلة الحرب ، إذ تراجع الغزاة وذلك بفعل مرض فتاك إنتشر بينهم وأدي إلي وفاة الآلاف منهم ، وهكذا عاد تهارقا وسلمت المملكة من الغزو الآشوري ، توفي شبتاكا في مصر ، ورحل جثمانه إلي مقبرة الأسرة في الكرو قرب نبتة.

بعد وفاة شبتاكا أصبح تهارقا ملكاً (690 الي 664 ق . م)



توج في مصر ، وهو ابن بعانخي وشقيق شبتاكا ، كان محارباً عظيماً ، جلدأً شديد المراس ، تولى قيادة الجيش وهو في العشرين ، خاض غمار العديد من المعارك ، وهو من أكثر الذين تتحدث عنهم كتب التاريخ الخاصة بالحضارة النوبية ، كما توفرت عنه معلومات كثيرة من النقوش الحجرية التي تم العثور عليها في مصر والسودان ، وقد كتب عنه أعداؤه الآشوريون ، وذكر مرتين في الكتاب المقدس ، ولكن باسم خاطي ، وقد إنتشر ذلك الإسم الخاطي بين الكثيرين ، وهو (ترهاقا) ، ذلك نطق خاطي للإسم يستعمله حتي بعض النوبيين ، كما أن الإسم الآخر (تهارقا) خاطي أيضاً ،

ولو أنه أقرب للصحيح ، علي كل حال ، فتهارقا هو الأكثر شهرة بين ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، وينظر إليه كواحد من الملوك الفاتحين العظماء ، كان معروفاً في سوريا وفلسطين وفينيقيا وعسقلان ومملكة يهوذا ، فقد ادعي شرعية سيادة كوش علي الممتلكات المصرية السابقة في سوريا وفلسطين ، تلك الطموحات هي التي أدخلته في حروب عديدة مع الآشوريين بعد ذلك ، ففي عهده أصيبت الإمبراطورية الآشورية ببعض الضعف بالإضافة إلي أنها إنشغلت بالحروب والإنفاضات الداخلية ، فعاشت مصر وكوش فترة إستقرار خالية من التهديدات الخارجية ، وقد أثبتت الحفريات ودراسة رسومات ونقوش تلك الفترة أنه وفي العام (684 ق . م) إرتفع منسوب مياه النيل إلي درجة غير مسبوقة ، كاد الفيضان يغرق المملكة كلها ، ولكنه تحول إلي فيضان خير ، فتوفرت محاصيل إستثنائية زادت

المملكة ثراء . وفي ذلك قال تهارقا في مدونات وجدت في تانيس بمصر وبكوة في السودان . ((أيًا أمون يا أبي. يارب عرشي القطرين، لقد أنعمت على بأربع معجزات في غضون سنة واحدة، وهو العام السادس من تنوبي ملكاً. عندما فاض النيل ليلعب مستوى يمكن أن يسبب انجراف المواشي وإغراق سائر البلاد، ولكن ظلت المناطق الريفية جميلة على مد البصر، ولم يسمح لرياح الجنوب أن تقضى عليها، وماتت القوارض والزواحف وطردت أسراب الجراد. وهكذا استطعت أن أحصد حصاداً وفيراً بكميات لا تقدر من أجل بيت الغلال المزدوج)) . كما توفرت ثروة كبيرة من الضرائب المفروضة علي المواطنين في كوش ومصر . بالإضافة الي العائد الكبير من العمل في مناجم الذهب في الصحراء الشرقية . فشهدت السنوات الأولى من حكم تهارقا ازدهاراً هائلاً . وتم تشييد العديد من المشروعات الحيوية . كما تم بناء الكثير من المعابد في كل من مصر وكوش ، وقد توسعت مملكة نبتة في عهد تهارقا جنوباً حتي مكان يسمى (رتيهوقابت) وشمالاً في آسيا الي مكان يسمى (كيج حور) ولكن المواقع الحديثة للمكانين غير معروفة حتي الآن . ومن النصوص الكثيرة المكتشفة في (كوة) . وكوة هذه ليست هي (الكوة) التي تقع علي النيل الأبيض بل هي مركز أثري كبير يقع علي الضفة الشرقية للنيل في مواجهة دنقلا العرضي . من النصوص المكتشفة هناك فإن المعابد وجدت دعماً كبيراً حتي تحولت في كوش الي مراكز علمية كما هو الحال في مصر ، ووجد في معبد أمون بكوة آثار لمنجمين استطاعوا تحديد الوقت بحركة الأفلاك بمساعدة أجهزة متخصصة . ومن المرجح أن أعمال صهر الحديد في مروي (كبوشية) قد بدأت في عهده . حيث بدأ العمل علي تطوير الأسلحة لمواجهة التهديد المستمر من قبل الإمبراطورية الآشورية . وبالفعل فقد شن الآشوريين في عام 647 ق . م هجوماً عنيفاً علي الكوشيين في مصر . ولكن تمكن تهارقا من إلحاق الهزيمة بهم . ثم عاود الآشوريون الهجوم بعد ثلاثة أعوام ونجحوا بقيادة ملكهم أسارحادون في الوصول الي منف حيث المقر الملكي لتهارقا . فخرج تهارقا من منف تاركاً زوجته وأبناءه فوقعوا في الأسر . بمن فيهم ابنه (أوشي ناحورو) الوريث الرسمي للعرش . ولم ينعم الآشوري أسارحادون كثيراً بانتصاره الكبير إذ عاد تهارقا منتصراً الي منف في عام (669 ق . م) . وفي عام (666 ق . م) جدد الآشوريون هجومهم علي مصر بقيادة ملكهم آشور بن بعل . ووصلوا منف . فتراجع تهارقا من منف الي طيبة في جنوب مصر. ثم الي نبتة . ومات هناك في عام 664 ق.م قبل أن يتمكن من العودة لاستعادة منف . وترك الصراع بين مملكة نبتة والإمبراطورية الآشورية علي أشده . دفن تهارقا في جبانة جديدة أنشأها في نوري. بلغ ارتفاع هرمه 150 قدماً وكان الأكبر من بين الأهرام التي شيدت في كوش . ومثلما حدث لمدافن أسلافه فقد تعرض مدفن تهارقا الي النهب والتخريب . ولم يتبق من جثمانه غير أجزاء من رجليه . ومن مرفقاته بعض الأواني العجبرية وبعض التماثيل. ولكن يبدو أن الكوشيين في مرحلة ما . ربما في عهد تهارقا . وصلوا الي فلسطين . فهناك الكثير من الكتابات (اليهودية) التي تدل بوضوح علي وجود أثريوني كبير في تاريخ القدس . والتوراة نفسه فيه الكثير من أخبار كوش . مثال ذلك كتاب (The Rescue of Jerusalem) لمؤلفه اليهودي (Henry T. Aubin) الذي يقول أنه لولا الحماية النبوية للقدس ضد الغارات الآشورية لما بقيت اليهودية ولما كانت هناك مسيحية علي الأرض. ويجدر بنا هنا أن نذكر أن العالم الكبير بروفيرس وليام آدمز

ذكر في كتابه الشهير (النوبية رواق أفريقيا) أن تهارقا في الغالب مدفون في منطقة آثار صادنقا شمال صلب. وأن مدفنه في نوري ما هو إلا مدفن تذكاري. والبروفسر آدمز وكتابه المذكور من مصادر التاريخ النوبي الموثوقة.

بعد وفاة تهارقا ، والصراع محتدم بين مملكة نبتة والإمبراطورية الآشورية للسيطرة علي مصر. تولى العرش في نبتة الملك تانوت أماني (تالتماني) الذي حكم بين (664 إلى 653 ق.م) . وكان أحد أبناء شباكا . وفي عهده فقدت نبتة السيطرة علي مصر نهائياً . وهو الملك صاحب (لوح الحلم) الذي عثر عليه مع ألواح ملوك كوش الآخرين في جبل البركل . يشير اللوح الي حلم شاهده الملك في نومه . تُرجم ما في اللوح الي ((وفي عام تتويج جلالته رأى في المنام أفعيين ضخمتين واحدة علي يمينه والأخرى على يساره. فاستيقظ جلالته وبحث عنهما دون جدوى. وتساءل جلالته: ماذا حدث؟ فقدم له البعض هذا التفسير: إن البلاد في قبضتك، وبقي أن تفتح شمالها أنهما السيدتان اللتان ظهرتا فوق رأسك لتمتلك البلاد دون منازع)) وكما فعل والده شباكا وجده بعانخي . ولتحقيق ذلك الحلم الملكي . فقد توجه تانوت أماني الي مصر لاستعادة السيطرة عليها بعد أن تراجع الآشوريون . فوصل طيبة في جنوب مصر وزار معبد الإله خنوم . ثم سار الي منف وحاصرها واستولي عليها دون مقاومة تذكر . لما علم آشور بن بعل أو (آشوربانيبال) بسيطرة الكوشيين علي مصر مجدداً أرسل علي الفور جيشاً جراراً . كانت الإمبراطورية الآشورية هي القوة العسكرية العظمي الوحيدة في المنطقة في تلك الفترة . لم يصمد تالتماني أمام القوة الآشورية الغاضبة . فترك منف الي طيبة ثم تراجع الي كوش . فدخل الآشوريون طيبة ودمروها ونهبوا ما فيها . عاد تالتماني الي نبتة واستمر ملكاً علي كوش حتي توفي في 653 ق.م . وكان بذلك آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين . بعد ذلك لم تطأ أقدام الملوك الكوشيين أرض مصر . دفن تالتماني في مقابر الأسرة مع أسلافه في الكرو قرب نبتة . له تمثال وحيد عثر عليه في جبل البركل . يوجد حالياً في متحف تليدو للفنون في أمريكا.

بعد تانوت أماني حكم نبتة مجموعة ملوك من نفس الأسرة . خلفه علي العرش ابن عمه أتلانبرسا (653-643 ق.م) هو أحد أبناء تهارقا ، وهو من الملوك الذين تحدث عنهم المؤرخ الإغريقي هيرودوت . له تمثال ضخم منحوت من الجرانيت عثر عليه في جبل البركل ويوجد الآن في متحف بوسطن للفنون الجميلة في أمريكا.

خلف أتلانبرسا علي العرش إبنة سنكامانسكن (643-623 ق.م) الذي لا توجد له نقوش تاريخية . عُرف من آثاره فقط . له معبد صغير في جبل البركل . وتمثال ضخم يوجد الآن بمتحف السودان القومي للآثار في الخرطوم.

إعتلى العرش من بعده إبنة أنلاماني (623-600 ق.م) تعرف عليه الآثاريون من مسلة عثر عليها في كوة . شرق دنقلا العرضي . وجد له تمثال بالحجم الطبيعي في جبل البركل يوجد الآن بالمتحف القومي للآثار . أما قاعة عرشه الفعلية فموجودة في جبل البركل.

جاء بعده شقيقه أسبالتا (600-568 ق.م) . وأسبالتا من الملوك الذين توفرت عنهم ومنهم نصوص طويلة تحتوي علي معلومات كثيرة . فقد وجدت منه في جبل البركل نصوص تشرح عملية إنتخاب الملك وتركيب الدولة وبنيتها في كوش . هذه النصوص تشرح أن عملية إنتخاب الملك كانت تتم وفق تقاليد صارمة . كان الكهنة يثبتون أن الروح

الإلهية أشارت إليه . ثم تتم الموافقة من قبل المحاربين(الجيش) . وكان للكهنة أيضاً سلطة إقصاء الملك . والنص الثالث من نصوص إسبالتا يُعرف عند الأثاريين بـ (نص التكريس) ، فقد قام إسبالتا بسن قوانين جديدة أراد بها احتكار السلطة وإملاك صلاحيات الحكم كاملة في يديه . تلك الإجراءات أدت الي مواجهة بينه وبين الكهنة فأمر بقتلهم ، ويبدو أنه كان طموحاً . فقد فكر في غزو مصر وإعادة مجد كوش . ووصلت أخبار طموحاته الي بسماتيك الثاني . ملك مصر في ذلك الوقت . فغزا كوش بجيش جرار كما سنيين بعد قليل . عند سماعه بخبر الغزو المصري . وفي عام 593 ق.م قام أسبالتا بنقل العاصمة من نبتة جنوباً الي مروي (البجراوية) ، عُثر له تمثال ضخيم من الجرانيت يوجد حالياً بمتحف بوسطن للفنون الجميلة، ويوجد أبوهول له في المتحف القومي للآثار في الخرطوم، هرمه موجود في نوري ويعد من أفضل المدافن وأكثرها اكتمالاً من بين المدافن والأهرام الملكية الكوشية، وهو أقلها تعرضاً للنهب.

ونذكر هنا أن طريقة الدفن في الغالب خاصة في مرحلة حضارة كرمة كانت تتم علي الطريقة الكوشية والتي كانت تختلف عن المصرية . إذ كان الدفن الكوشي يتم بوضع الجثمان في عنقريب وليس في تابوت . وكان الجثمان يوضع ممدداً علي جانبه الأيمن . وتم الكشف في آثار بعض المواقع عن مقابر جماعية . إذ كان علي الرقيق أن يرافقوا سيدهم الي العالم الآخر . فكانوا يدفنون أحياء بجانب مقبرة الملك . ، ففي احدى المقابر وجد عدد من الموتى مكدسين جوار الحائط كأنهم ماتوا وهم يحاولون الخروج . كما عثر على بعضهم و هو يضع يده على عنقه . وبعضهم و هو يغطي وجهه أو يضع يده على رأسه . و قد عُثر في احدى المقابر على رفات ثلاثمائة شخص من العاشية تم دفنهم مع الملك . وأيضاً تم إكتشاف بقايا حيوانية تبدو أنها من ممتلكات الميت . إحتوت مقابر الملوك والأمراء والمملكات علي أواني من البرونز ، وفخار . ومصنوعات من المرمر وأدوات للزينة وقطع ذهبية . ومن الواضح بالذات عند المرويين أنهم كانوا شديدي الاهتمام بحياة ما بعد الممات . وقد خلفوا في مدافنهم أدبا جنانزيا وأغراض أرادوا بها ضمان حياة أبدية لأنفسهم . أما التحنيط فلم يظهر له أثر إلا عند الملوك الذين دفنوا في الإهرامات بدلاً من المدافن التقليدية . وجدير بالذكر أن عدد الإهرامات في السودان يبلغ الثلاثمائة هرم . بينما عدد إهرامات مصريبلغ نصف هذا الرقم.

سبق القول بأن تانوت أماني كان آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين . والذين حكموا كوش ومصر . بعده تأسست في مصر الأسرة السادسة والعشرين . بقيادة بسامتيك الأول . وإستمرت العلاقة بين نبتة ومصر في هدوء . ربما مشوب بالحذر . إذ لم يتغل ملوك كوش عن إدعائهم بشرعية وراثتهم للتاج المصري . ومن جانبهم عاش ملوك الأسرة السادسة والعشرين في مصر في قلق مستمر من أن يعاود الكوشيون غزو مصر . خاصة وأن الشعور العام في الأوساط الشعبية في مصر كان موالياً للكوشيين بإعتبارهم أبطالاً وفروا الحماية لمصر من شر الحكم الأشوري . هذا بالإضافة الي أن الملوك الكوشيين في الأسرة الخامسة والعشرين ظلوا في نظر الدوائر الكهنوتية المصرية هم حماة الدين والتقاليد . وذلك ما يفسر السياسة التسامحية التي إتخذها ملوك مصر نحو من بقي من الشخصيات

الكوشية الكبيرة ، ففري أن عابدة الإله شبنويت (إبنة الملك بعانثي) تبنت نيتوكريس إبنة بسامتيك الأول. كذلك لم يتم إبعاد أفراد الطبقة الأرستقراطية الكوشية الذين بقوا في طيبة من المناصب العليا التي كانوا يشغلونها في السلك الإداري، أو في الدوائر الكهنوتية . ورغم التسامح الظاهري من ملوك الأسرة السادسة والعشرين نحو كوش وملوكها إلا أنهم كانوا يضمنون الشر ، وفي عهد بسامتيك الثاني بدأت إجراءات تهينة الرأي العام المصري لغزو كوش . أصدر بسامتيك الثاني أوامره بإزالة أسماء الملوك الكوشيين أينما وجدت في مصر وإحلال اسمه بدلاً منها . كما بدأ حملة مكثفة لتغيير صورة الملوك الكوشيين في أذهان المصريين من حماة للعقائد القديمة ومحربين لمصر من الغزاة الأشروريين وإحلال صورة جديدة تظهر الكوشيين كغزاة مستعمرين دمويين اغتصبوا السلطة الشرعية من الحكام المصريين ولبسوا التاج المصري من غير حق ، كانت مصر قد دخلت في الصراع الدائر لإقتسام تركة الإمبراطورية الآشورية المحتضرة في آسيا ، وتطلب ذلك تأمين الحدود الجنوبية من غزو مفاجئ من الكوشيين، بالإضافة لحاجة الإقتصاد المصري لذهب كوش ومنتجاتها الأخرى . وهكذا ، ومع بداية عهد الملك الكوشي إسبالتا ، قاد بسامتيك جيشاً كبيراً تألف من مصريين وجنود مرتزقة من الأغريق واليهود والفينيقيين والليبيين ، وتقدم بهم حتى ثبت الحدود مؤقتاً عند الشلال الثاني.

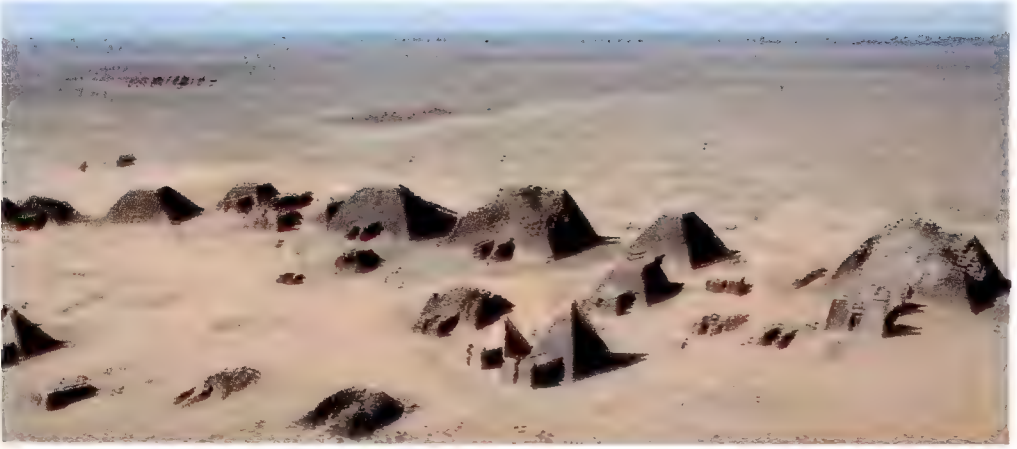
كانت حملة بسامتيك من العوامل الرئيسية التي أدت إلى نقل العاصمة الكوشية من نبتة إلى مروى بعيداً إلى الجنوب. وربما كان هناك تفكير سابق من ملوك نبتة لنقل العاصمة إلى مروى . فموقعها أكثر إستراتيجية من الناحية العسكرية والاقتصادية من نبتة ، فهي ملتقى للعديد من الطرق التجارية التي تربط البحر الأحمر بغرب القارة ، والطرق التي تربط الشمال بالجنوب. بالإضافة إلى أن الأراضي المتاخمة لمروى أغزر أمطاراً وأكثر خصوبة ، ورغم أن إسبالتا هو الذي نقل العاصمة من نبتة إلى مروى ، ورغم أن هناك عدد من الملوك حكموا مروى بعد إسبالتا إلا أن الأثاريين يعتبرون المؤسس الحقيقي لمملكة مروى هو الملك أركاماني. كه (270 . 260 ق.م) . وهو من الملوك النادرين الذين ذكرهم المؤرخون الأغريق بالإسم. من تقاليد الدولة الكوشية أنه كان للكهنة الحق في تعيين الملوك وإقصائهم ، وعندما تولى أركماني الحكم سعى إلى إجراء بعض الإصلاحات في نظام الحكم ، وكما حدث مع إسبالتا فقد دخل أركماني في مواجهة مع الكهنة ، وكان الكهنة إذا أرادوا إقصاء أحد الملوك يبعثون إليه برسالة يأمرونه فيها بالانتحار ، بإعتبار الرسالة صادرة عن الإله مباشرة ، تسلم أركماني إحدى تلك الرسائل ، وبدلاً من الانتحار زحف بجنده إلى معبد آمون النوبي في جبل البركل وأباد الكهنة عن آخرهم . وقاد ثورة حقيقية على الدولة الدينية ، فألغى ألوهية الإله آمون ، وقام بتعيين الإله الأسد أبادماك إلهاً رسمياً لدولة كوش . وأصدر مرسوماً صادر به حق تعيين وإقصاء الملوك من الكهنة . ويعتبر أركاماني أول العلمانيين في العالم . كان أول ملك من بين ملوك العالم القديم الذي نادى بفصل الدين عن الدولة . إذ فصل الممارستين الكهنوتية والسياسية ، ويثبت الأثاريون أن أركماني كان قد نال قدراً كبيراً من التعليم الإغريقي ، وتشير الأبحاث إلى ازدهار الصلات التجارية بين كوش والإغريق والرومان من جهة ، وبين كوش والبطالسة في مصر من جهة أخرى . وقد تواجد العديد من التجار

والعلماء والرحالة والكتاب في مروي في ذلك الوقت . وعلي سبيل المثال فالعالم الإغريقي سيمونيد عاش خمس سنوات كاملة في مروي، ووضع كتاباً كاملاً عن كوش وثقافتها ، وفي عهد أركماني بدأ الكوشيون التحرر الكامل من آثار الغزوات المصرية، فطوروا أساليبهم الفنية والمعمارية الخاصة بهم ، واخترعوا الكتابة المروية التي حلت محل المصرية . كان أركماني أول من شيد هرمه في مروي بدلاً من نبتة . مات في مروي ودفن في هرمه الرائع الذي يعكس مدي التطور الفني والتقني الذي حققته مملكة مروي في تلك المرحلة.

بجانب ملوك كوش العظام في مروي ، والذين جاؤوا بعد أركماني ، أمثال أديكالاماني وشناكداختي وباركسنا وتانيد أمانى ، كانت هناك ملكات مشهورات ، نذكر منهن أمانى ريناس (أمانى رينا) 10.40 ق.م. ، ورغم أنها لم تكن أولى الملكات إلا أن شهرتها كانت أكبر ، وهي زوجة الملك تريتكاس ، وأعلنت العرش بعد وفاته ، لقبت بـ (كوري) ، بالإضافة الي لقب (كنداكة) الذي كان لقباً يمنح لكل ملكات كوش . اشتهرت أمانى رينا لأنها دخلت في حروب مع الإمبراطورية الرومانية التي سيطرت علي مصر بعد هزيمة البطالسة . بدأت أمانى رينا الحرب بالهجوم علي أسوان ، واستولي جيشها علي تمثال للقيصر نفسه ونقلوه الي نبتة ، وقرر الرومان إستعادة التمثال ، فغزو كوش حتي وصلوا الي المدينة المقدسة نبتة . لم تكن الملكة في نبتة ، ولكن الرومان لم يواصلوا سيرهم الي مروي . بل عادوا الي مصر بعد تخريب نبتة، وتركوا حامية في برميس في الحدود . عادت الملكة الي نبتة . وهددت بالهجوم علي الرومان من جديد ، ولكن توصل الجانبان الي إتفاق ، سحب الرومان بموجبه تلك الحامية من برميس . وأعادوا الأسري الكوشيين ، وتم إعفاء مملكة مروي من الجزية ، وتم ترسيم الحدود بين كوش ومصر الرومانية.

خلفت أمانى ريناس علي العرش كنداكة أخرى ، هي الملكة أمانى شاخيبي (10 الي 1 ق.م) . ربما كانت اخت الملكة أمانى ريناس . أو ربما كانت هي الزوجة الثانية للملك تريتكاس ، تشتهر عند الأثاريين بحيا للقوة والثراء ، إذ شيدت مجموعة قصور ومعابد ، وإقتنت كمية كبيرة من الحلي والمجوهرات ، هرمها في مروي (البجراوية) من أكبر الأهرام التي بنيت ، تظهر الملكة في رسوم مدفنها متزينة بجواهرها ، حاملة أسلحتها تقتل بها الأعداء.

بعد أمانى شاخيبي جاء الي عرش مروي ملك وملكة في ثنائية فريدة ، حكما معاً كزوجين ، وهذا الثنائي من أكثر ملوك العصر المروي شهرة ، هما: نتاكاماني و أمانى تاري (1 ق.م الي 20 ميلادية) . ورغم كثرة النقوش الخاصة بهما إلا أنهما لا يظهران منفردين علي الإطلاق ، شيدا مجموعة مباني جميلة علي إمتداد المملكة أشهرها وأكبرها هو معبد آمون بالنقعة.



زوال مملكة مروي

عاش غالبية سكان كوش في مجموعات زراعية رعوية ، كانوا يقضون جزءاً من العام في مواقع إقامتهم على ضفاف الأنهار ، يزرعون الأرض ويحصدونها ، وبعد الحصاد ينتقلون بقطعانهم إلى الداخل ، إلى المناطق الرعوية ، إلا أن سكان بعض المناطق المتاخمة للنيل كانوا مقيمين بصورة دائمة ، ومنذ عصر حضارة كرمة عرفت كوش علي إمتدادها حتي سنار ، عرفت نظام الري الصناعي ، وقد وجد الأثاريون سلسلة من الحفائر في مناطق مختلفة ، ويبدو أن المشايخ والزعماء والملوك إمتلكوا أعداد كبيرة من القطعان ، وكان للمعابد نشاطها الزراعي والحيواني الخاص ، كما عرفت كوش زراعة القطن ، وبالإضافة إلي ما وفره النظام الزراعي والرعوي فقد كان لمناجم الذهب والحجارة الكريمة أثر كبير في ثراء كوش ، ولأنسي أن كوش كانت أولي الدول جنوب الصحراء التي دخلت عصر الحديد ، وقد وجدت أكوام عالية في مروي هي آثار الحمم التي كانت تخرج من أفران صهر الحديد ، ولكن ، ومنذ بداية القرن الميلادي الأول بدأ الضعف يعتري مملكة مروي ، وبدأت العلاقات في الإنقطاع تدريجياً مع عالم البحر الأبيض المتوسط ، ومنذ إنتقال عاصمة كوش إلي مروي ، إتجهت التطلعات السياسية والإقتصادية نحو الجنوب ، وأصبحت المدن والقرى في الشمال مهجورة ، وتغير المناخ ، وقلت الأمطار ، وبالتالي إنخفضت مساحات الزراعة والرعي ، وتزايدت حملات قبائل البدو الرعوية علي المدن والقرى النيلية ، وأدت الأزمة المعيشية الداخلية إلي ضعف القوة العسكرية لكوش ، وتحرر مشايخ القبائل من سلطة مروي ، لذلك كله ، ونتيجة للضعف الذي أصاب مملكة مروي من جانب ، والإمبراطورية الرومانية من جانب آخر ، فقد ظهرت في شمال كوش وجنوب مصر قوة كاسحة أجبرت ملوك كوش كما أجبرت مصر الرومانية علي التعامل معها كقوة لا يستهان بها ، تمثلت تلك القوة في قبائل البليميين البدوية في الصحراء الشرقية والتي كانت تعيش بين تلال البحر الأحمر ووادي النيل ، وهذه القبائل تنتمي إلي اثنية البجة ، وهم معروفون بـ (المدجاي) في النصوص المصرية القديمة ، شكّل البليميون و (النوباديون) خطورة كبيرة علي مصر الرومانية ، ولأن الإمبراطورية الرومانية لم تود في الدخول مع هذه القبائل في حرب ، فقد

توصلت مع المجموعتين الي إتفاق . وحسب هذا الإتفاق إستقر البليميون والنوباديون في مدن وقرى علي النيل في أسوان وجزيرة الفنتين وجزيرة فيلة . وهكذا إستقلت النوبة السفلي عن سلطة مروي . لذلك كله فقد قل الأثر الحضاري في تكوين المملكة . وفقدت دورها الحضاري المركزي علي المحيط الأفريقي . وفي عهد قسطنطين الأول (306-337 م.) أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة في مصر . وبدأت محاولات نشرها الي كوش.

في نفس بداية القرن الميلادي الأول . وفي الوقت الذي ضعفت فيه مملكة مروي . كانت مملكة أكسوم في أثيوبيا في عنقوان إزدهارها . واكسوم إمتدت علي ساحل البحر الأحمر من باب المندب الي سواكن . وبيدو حسب الدراسات الأثرية لنلك الفترة أن العلاقة بين المملكتين كانت ودية وسليمة . حتي أن بعض العلماء يقولون أن الأكسوميون كانوا أصدقاء الملوك مروي . وأنه كانت هناك هدايا متبادلة . وقد تم الكشف في مدينة أكسوم علي مواد أثرية تطابق تماماً مواد أخرى وجدت في فرس في شمال كوش . وقد حملت هذه الأثار رسوم مربية أصيلة . هذا بالإضافة الي ملاحظة التأثير المعماري المروي علي معمار أكسوم . وبيدو أن العلاقات بين المملكتين توترت بسبب أو آخر . ودقت طبول الحرب . والتقي الجيوش علي ضفاف نهر (التكازي) . نهر عطبرة حالياً . ومازال النهر يسمي تكازي في الجانب الأثيوبي . كان ذلك في عام 350 م . وانتصر عيزانا ملك أكسوم إنتصاراً ميبناً . وتفككت مملكة مروي العتيقة . وتحولت الي أقاليم متفرقة . وقد سجل عيزانا مسار المعركة وتفاصيل إنتصاره في نص طويل أورده الدكتور أسامة عبدالرحمن النور في مجلة الآثار السودانية في موقع (arkamani.org) من ترجمته عن الترجمة الروسية للنص إذ لم يترجم النص للعربية كما أوضح . يقول النص:

((بقوة سيد السموات الذي حقق النصر في السماء وعلى الأرض ضد (كافة) المخلوقات، عيزانا بن علي أميدا، بسخاليئا، نجاشي أكسوم، و حاكم حمير وريدان وسبأ وصالحين، و حاكم سيامو والبجة وكاسو، نجاشي النجوش، ابن علي أميدا غير المهزوم أمام الأعداء، بقوة سيد السموات الذي وهبني السيادة على الجميع، جاعلاً مني محبوباً لديه، الملك غير المهزوم أمام الأعداء، لا يقف في وجهي عدو، ولا يطاردني عدو من ظهري بقوة سيد الجميع، هجمت على النوبا حين أشهر أهلها الحرب وتفاخروا : لن يجتاز التكازي قائلين لأهل النوبا، أساءوا معاملة أهالي مانجوروتو والغاسا والباربا على الزرق هجموا وعلى الحمر هجموا، وخنثوا بعهدهم مرتين وثلاث . وقاموا مرة أخرى بقتل جيранهم بلا رحمة، دع عنك سفيرنا وكل من ذهب من طرفنا وكل من أرسلته لهم لإعادتهم للتصبياع، فإنهم سلبوهم ونهبوا ممتلكاتهم وسرقوا منهم صولجاناتهم، وحين راسلهم مرة أخرى فإنهم لم يصغوا إلى ورفضوا العدول عن أفعالهم وتمادوا يراوغون ويمارسون الشرور، حينها هجمت عليهم، شرعت في حملة بقوة سيد الأرض، وتعاركت معهم عند نهر التكازي ومخاضة كيماكي حتى لاذوا بالفرار وما توقفوا، تعقبت القارين على مدى عشرين يوماً وثلاث فقتلت وأسرت واستوليت على الغنائم والأسرى الذين جلبتهم قواتي التي نفذت الهجوم، حينها حرقت مدنه (النوبا) تلك المشيدة بالحجر وتلك المشيدة بالتبن، ونهبت القوات حبوبهم وقضبهم وحديدهم ولحمهم المقدد، ودمرت رسوم معابدهم ومخازن حبوبهم وقطنهم، ورميتهم أنفسهم في نهر سيدا ومات الكثيرون منهم غرقاً أعدادهم غير معروفة.

عندها صعدت قواتي إلى داخل مراكبهم المليئة بالناس رجالاً ونساءً. أخذت في الأسر زعيمين كانا قد وصلا على ظهري جنبليهما للتجسس واسميهما ايمسكا وبوتلى. كذلك أسرت إنجا بنتسا الكبير. أولئك الذين لقوا حتفهم من الزعماء دانوكفي. وداجالى. وأناكفي. وحابارى. وكاركارا. وجرح كاهنهم بداية ونزع عنه تاجه الفضي وخاتمه الذهبي. وأولئك هم الزعماء الذين لقوا حتفهم ووصلت إلى إقليم كاسو وقتلت منهم وأسرت عند ملتقى نهري سيدا والتكازى. في اليوم الثاني بعد وصولي (إلى هنا) أرسلت كتائبي: كتيبة ماحازا، وكتيبة حارا، وداماو. وفلاح، وسيرا إلى أعالي سيدا حيث المدن المشيدة بالحجر وتلك المشيدة بالتبن. وتسمى مدنه (الكاسو) المشيدة بالحجر علوة و دارو. وقتلت (القوات) وأسرت ورميت في الماء ورجعت بدون خسائر أصابها بعد أن أدخلت الرعب في قلوب الأعداء وأخضعهم لإرادة سيدالأرض. بعد ذلك أرسلت كتيبة خالين، وكتيبة لاكن، وكتيبة صابرات، وفلاح، وسيرا إلى أسفل سيدا إلى مدن النوبا المشيدة بالتبن: نجفس. وإلى المدن المشيدة بالحجر والتابعة للكاسو لكن النوبا سلختها عنهم: تاييتو وفيرتوتى. ووصلت القوات إلى مناطق خاضعة للنوبا الحمر. ورجعت قواتي بدون خسائر أخذه في الأسر بعد أن قتلت وسبت مواشيهم بقوة سيد السموات. ونصبت عرشاً في موضع ملتقى نهري سيدا والتكازى ضد المدن من الحجر التي هي في هذه الجزيرة. كل ما وهبني إياه سيد السموات: 214 أسرى من الرجال، و415 أسرى من النساء، كل ذلك كان 629 الرجال الذين قتلوا 602، والنساء اللائي قتلن والأطفال 156 كل ذلك كان 700 و58 وكان الأسرى والقتلى 1378. وكانت الغنائم من الأبقار 10.500 و60، ومن الضان 51.500. ونصبت عرشاً هنا في شادو بقوة سيد السموات الذى وهبني المساعدة وحباني بالملوكية)) إنتهي .

وكما فعل ، وما زال يفعل ، الملوك والأباطرة والحكام في كل أنحاء العالم ، في كل العصور ، فقد إدعى عيزانا أيضاً أنه يحكم بأمر الله ، وأن الله هو الذي يساعده ويوفر له العناية الإلهية. وأن الغنائم التي غنمها فإنما هي هبة من سيد السموات، وكما نعلم فكلمة النجاشي لفظة حبشية، وهي لقب لمن ملك الحبشة، كقيصر لمن ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، وخاقان لمن ملك الترك، وفرعون لمن ملك مصر، في منتصف القرن الرابع تحول الملك عيزانا للمسيحية وارتبط بالكنيسة المصرية القبطية.

ومدينة مروى القديمة هي البجراوية الحالية ولم يتم حفر الأ مقبرتها الملكية وبعض قصورها ومرصد اسلبتا الفلكي ويعتقد الاثاريون ان مروى كانت مدينة كبيرة وان الحفر الاثاري في محورها سوف يكشف الكثير من الأسرار، وربما سيقود حتي الي فض اسرار اللغة المروية .

ممالك النوبة المسيحية الثلاث:

نوباديا - المقررة - علوة

بزوال مملكة مروى وقوتها المركزية تحولت المنطقة كلها الي أنظمة حكم محلية في أقاليم ومشيخات مستقلة . ثم وصلت المسيحية الي مصر ، ومثل كل الأنظمة والأديان التي حكمت في مصر فقد سعت مصر المسيحية الي الانتشار جنوباً فيما تبقي من كوش . كانت كوش في تلك الفترة ، وبعد التفرق والإنقسامات التي سادت ، كانت كوش في

حوالي عام 540م قد إنتظمت في ثلاث ممالك ناشئة . مملكة بإسم نوباديا (نوباتيا) في أقصى الشمال بين مصر وكوش (تسمى بمملكة المرس أيضاً) . إتخذت من كلايشة عاصمة لها في البداية ثم حولت العاصمة الي فرس . وهي مملكة النوبيادين . الذين إشتق العرب من إسمهم تسمية (نوبة) والنوبيين فيما بعد. ولم يأت لفظ (نوبة) إلا في المصادر العربية . مما يدل علي أن التسمية جديدة . ثم قامت مملكة ثانية بإسم (المقرة) إمتدت من فرقة جنوب وادي حلفا الي حدود الشلال الخامس . إتخذت من دنقلا العجوز عاصمة لها (قرية القدار الحالية) . أما المملكة الثالثة فهي علوة . وقد إتخذت من سوبا في جنوب الخرطوم عاصمة لها . إمتدت هذه المملكة من الشلال الخامس كحدود شمالية . أما حدودها جنوباً ففيه خلاف . ولكن الغالب أنها إمتدت في الجنوب الشرقي الي الحدود الحبشية . وإمتدت غرباً الي كردفان . ومن الثابت حسب المصادر أن نوباديا والمقرة أتحدتا وكونتا مملكة نوبادية مقررة موحدة سُميت (المقرة) كانت عاصمتها في دنقلا العجوز. إلا أن الجزء الشمالي (نوباديا) إحتفظ ببعض الإستقلالية وكان حاكم المنطقة الذي يعينه الملك يعتبر نائباً للملك في دنقلا . ومملكة المقررة الموحدة هي المملكة التي توصل معها المسلمون الي معاهدة البقط فيما بعد.

في القرن السادس الميلادي . وفي عصر الإمبراطور الروماني جستنيان. تحولت تلك الممالك الكوشية الثلاث الي المسيحية . وعملت الإمبرطورية البيزنطية علي دمج نوباديا في مصر تأميناً لحدودها الجنوبية . فالكوشيون غير مضمونين . فهم شكلوا علي مدي التاريخ خطورة بالغة وقاموا في احيان كثيرة بشن هجمات مباغة علي حدود مصر الجنوبية. وكما فعل الإسلام بعد ذلك . فلم تنتشر المسيحية في كوش بالسرعة التي أرادها المبشرون الغزاة . ولكنها إنتشرت بالتدرج ودان سكان كوش بالمسيحية علي المذهب الأرثوذكسي القبطي . وأنشئت الكنائس والأديرة . وصبغت التقاليد المسيحية عادات السكان في الولادة والسماية والزواج . وتغيرت طقوس الدفن المتبعة في الديانات المصرية والكوشية . وتم قفل المعابد القديمة تدريجياً . وأخذت العلاقات بين ممالك كوش والأنظمة في مصر تتأرجح بين مستقرة ومتوترة . حتي بدأت الفتوحات العربية الإسلامية والتي وصلت مصر في حوالي عام 20 هجرية / 640 ميلادية . وكالعادة . دخل المحتل الجديد في مصر في مناوشات مع الممالك الكوشية . وبدأ العرب في التسرب الي الأراضي الكوشية . وبالذات الي الصحراء الشرقية . وفي عام 641م تم غزو ديار النوبة (المقرة) رسمياً . ودارت معركة حامية بين المقيمين والمسلمين إنتهت بعقد معاهدة البقط المشهورة والتي سبق الحديث عنها . بدأ الإسلام في الإنتشار تدريجياً . أما اللغة العربية فقد واجهت صعوبات شديدة في الإنتشار ومازالت . بالذات في مناطق كوش الشمالية . بين أسوان في الشمال الي الدبة جنوباً . مازال السكان متمسكون باللغة النوبية كلفة مخاطبة . وبقاء اللغة النوبية وعدم إندثارها . كما قلت من قبل . وعدم مقدرة اللغة العربية محو النوبية والحل محلها . إنما يعود الي التداخل المحدود الذي حدث بين السكان النوبيين والعرب الغزاة . فعلي عكس ما يفهم البعض ويدّعي . وتنفيذاً لبنود إتفاقية البقط . لم يستقر العرب في مناطق النوبة إلا فيما ندر . وعليه فلم يتم التزاوج الذي يدعيه (المستعربون) الذين يتنكرون لأصولهم النوبية النقية . الذين يتمسحون بأعتاب الإنثية العربية دون لزوم . وعلي

كل حال فتلك قضية أخرى . المهم أن مملكة المقرة بعد معاهدة البقط بقيت علي الديانة المسيحية . واستمر ملوكها علي دينهم لعدة قرون.

في عام 1268 اعتلي عرش المقرة في دنقلا ملك مسيحي (إسمه داؤد، بعث الملك داؤد الي السلطان المملوكي في مصر، الظاهر بيبرس، طالباً منه الإعتراف به ملكاً علي المقرة، فطالب بيبرس داؤد بالعودة الفورية الي الإلتزام ببندو (طيبة الذكر) إتفاقية البقط . وكان الملوك المقرين قد تخلوا عنها، وبدلاً من الإستجابة لطلب السلطان، قام داؤد في عام 1272 م بمهاجمة ميناء عيذاب، أهم الموانئ الحيوية لمصر، في ردة فعل عنيفة قام الممالك بإجتياح المنطقة الشمالية للمقرة (نوباديا) وأسروا حاكم المنطقة، وأخذوه الي مصر حيث أعدم.

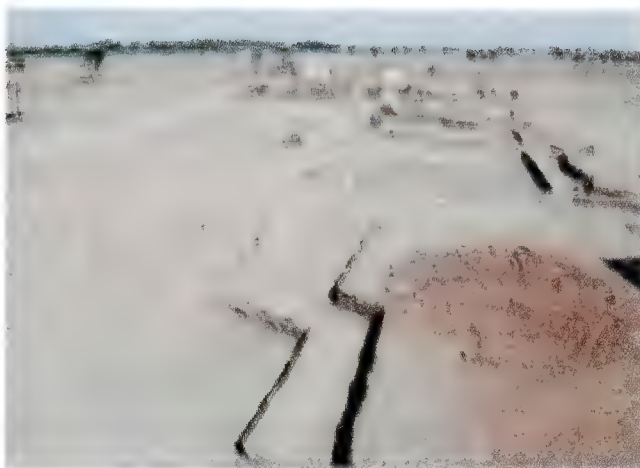
في عهد داؤد بدأت الدسائس السياسية تسيطر علي المملكة . وبدأها ابن أخت داؤد . الأمير النوبي (شكندة) . إذ سافر الي مصر وطلب من الممالك مساعدته لخلع خاله داؤد عن العرش وتنصيبه ملكاً علي أن يكون مطيعاً للسلطان المملوكي . لم يفكر الممالك مرتين . بل وافقوا فوراً علي مساعدته . ووضعوا قوة عسكرية كبيرة تحت أمره . في بداية عام 1276 م وصلت حملة شكندة شمال المقرة . فما كان من حاكم المنطقة الشمالية إلا الإنضمام الي الحملة . في أبريل من نفس العام وصلت الحملة الي دنقلا العجوز . فهرب الملك داؤد . وعادت الحملة الي مصر بعد تنصيب شكندة ملكاً علي عرش المقرة . وأخذ الممالك بعض الأمراء كرهائن . ولكن لم يدم شهر العسل طويلاً بين الممالك وشكندة . إذ سرعان ما تآمر الممالك ضد شكندة وأغتالوه عن طريق (براك) الذي نصبوه ملكاً . ثم تأمروا علي براك فأرسلوا الأمير سمamon الذي كانوا قد أخذوه رهينة . جاء سمamon الي الملك بمكر تعلمه في مصر . فأخذ في مراوغة الممالك . وفشل الممالك مرات كثيرة في أسره أو قتله . فاستمر ملكاً علي مدي اثني عشر عاماً . جاء بعده الملك أمي . الذي لم يستمر كثيراً . إذ تم إغتياله . وخلفه علي العرش أخوه كودنباس (كُرنبس) الذي كان آخر الملوك المسيحيين في المقرة . جاء بعده علي العرش (كتز الدولة) وقد تم تنصيب كتز الدولة من قبل أهل المقرة المسيحيين رغم أنه مسلم . احتراماً للتقاليد والأعراف، فقد كان "كتز الدولة" من أم دنقلاوية مسيحية (شقيقة ملك المقرة كُرنبس) ومن أب نوبي مستعرب مسلم من قبيلة الكنوز . ولكنه علي كل حال ابن أخت الملك . فحق له الملك . بعد ذلك إختلط الحابل بالنابل . وأصبح كل ابن أخت يفتال خاله ليعتلي العرش . ثم يُقتل بدوره . وتوالي علي عرش المقرة التاريخي ملوك (لحم راس) . إذ تعارك علي العرش بنو كتز وبنو جعد وبنو ربيعة وبنو عكرمة وبنو هلال وكل عارب ومستعرب من (الناهيين البدو) كما سماهم ابن خلدون . وظلت كذلك حتي زالت تماماً في عام 1323 م . وانقسمت المملكة بكاملها الي إمارات ومشيخات . حكمها أفراد إتخذ كل واحد لنفسه لقب (الملك) .

إلي الجنوب من مملكة المقرة . ومنذ حوالي عام 580 م . تكونت مملكة النوبة المسيحية الثالثة . وهي مملكة علوة بعاصمتها في مدينة سوبا . ويبدو أن علوة عاشت لفترة طويلة في عزلة عن الشمال . ولبعدها في الجنوب فلم تتعرض للحمولات العدوانية المصرية أو الفارسية أو الإغريقية أو الرومانية . بعد نشوبها بقليل تحولت علوة الي المسيحية وبدأت تستعمل اللغة الإغريقية . وواضح حسب المصادر أن علوة كانت مملكة ثرية وتمتعت بقدر كبير من

الإكتفاء الذاتي ، فقد تمددت بين النيلين الأزرق والأبيض وضمت نهر عطبرة . تملك أراضي زراعية مزروية ومطربة بالإضافة الي المراعي الواسعة. ولذلك لم تتداخل كثيراً مع جاراتها في الشمال ولم تكن مضطرة لخلق علاقات مع مصر . تلك المراعي الواسعة كانت قد جذبت القبائل العربية البدوية التي تدفقت إليها علي مر الزمن ، خاصة في العهود الطولونية والفاطمية والأيوبية . بالإضافة الي أعداد العرب الكبيرة الموجودة في تلك المنطقة ، فقد كانت الصحراء الشرقية وبلاد البجة محتلة تقريباً من عدد من القبائل العربية تسلموا الي هناك عبر التاريخ . هذه الجماعات العربية البدوية المهاجرة أصبحت تشكل تهديداً حقيقياً للمملكة . وبالإضافة الي التهديد العربي البدوي الذي تعرضت له علوة . فقد تعرضت الي تهديد آخر من الجنوب والغرب ، من سلطنة الفونج الزنجية . وفي عام 1504 م تجمع الشتات العربي تحت قيادة الزعيم العبدلابي عبدالله جماع ، ودخلوا في حلف مع سلطان الفونج عمارة دنقس . وانقض الحلف العربي الزنجي الإسلامي علي المملكة النوبية المسيحية . وخرّبوا عاصمتها سوبا (خراب سوبا). واقاموا علي أنقاضها السلطنة الزرقاء . التي إتخذت من سنار عاصمة لها . تمكنت السلطنة الزرقاء من توحيد جزء كبير من السودان الحالي . وحكمت حتي عام 1821م عندما غزا محمد علي باشا السودان ، قاد الحملة العثمانية ابن محمد علي باشا ، إسماعيل باشا . لم يلق إسماعيل باشا مقاومة تذكر حتي وصل ديار الشوايقة والجعليين حيث قاوموا قليلاً ولكنهم هُزموا . أرسل إسماعيل باشا الي السلطان محمد ود عدلان في سنار طالباً منه الإستسلام وإعلان الولاء للخليفة العثماني ، وبدلاً من إعداد قواته للحرب أخذ ود عدلان يطلب العون من الأولياء والصالحين . ثم كتب لإسماعيل باشا رسالته المضحكة المشهورة: ((لا يفرنك انتصارك على الجعليين والشايقية. فنحن هنا الملوك وهم الرعية. أما علمت بأن سنار محروسة محمية. بصوارم قواطع هندية. وجياد جرد أدهمية. ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية)). ثم إختلف مع مستشاره فتم إغتياله. واضطربت الأحوال في العاصمة سنار. وكفي الله إسماعيل باشا وجيشه شر القتال. فدخلوا سنار آمنين. وبدأت مرحلة أخرى من تاريخ السودان.

ويبدو أن خراب سوبا الأول لم يكن كافياً. فجاء خراب سوبا الثاني في عهدنا الحالي . فبعد بقاء المنطقة الأثرية بالمدينة بعيدة عن الأيدي العابثة. تعرضت المنطقة لإعتداء همجي وشرس من تجار الأراضي وأصحاب الجشع من المسؤولين، وقد تم تقديم بلاغات من خفراء. ومفتشين. وباحثين. ومهتمين في مجال الآثار. حتي وزارة البيئة والآثار قامت بمخاطبة المسؤولين في وزارة الزراعة الولائية والجهات المختصة. ولكنها صنت أذنيها بطين الأرض المنهوبة . واكتشف بعض المحققين الصحفيين أن المواطنين الذين أقاموا المزارع والحظائر والمجمعات السكنية لديهم تصادق رسمية بإمتلاك تلك الأراضي . وليس للجشع حد . فمن الواضح أن المسؤولين وراء تلك الحملة . وليس الدافع إلا مادياً.

الآثار يا سادة كنوز لا تقدر بثمن. فهي تاريخ البلد و امرأة حضارتها . ليس من حق كائن العيث بها أو إزالتها . وتباً لدولة تبيع تاريخها وتحوله إلي حظائر. راجع (arkamani.org).



حفريات في سوبا شرق

قبل أن ترتبط أسباب السماء بأسباب الأرض ، وقيل أن يهدي الله الإنسان من ضلاله بالديانات السماوية ، تاه الإنسان في بحث فكري بدائي عن قوة طاغية متملكة ، وقد نشأ هذا البحث نتيجة إحساس الإنسان بضعفه الكبير أمام قوي الطبيعة الخارقة وظواهرها المحيرة ، فالرياح والأمطار والزلازل والفيضانات ، ثم الوحوش البرية الكاسرة والمفترسة ، بالإضافة الي الأمراض الفتاكة ، وما مظه الموت من خوف حقيقي من المجهول ، وتعاقب الليل والنهار ، وإنتفاخ الفضاء أمامه وما فيه من أجرام بعيدة ، وإحساسه الطافي بحوجته الي الي قوة تحميه من شرور الحياة ، كل ذلك أدي الي توهان فكري بدائي للإنسان ، وكان من الطبيعي أن يتعلق هذا التوهان الفكري بالأعلي ، بالسماء ، فأخذ يتخيل أن في السماء قوي جبارة هي التي تسيطر علي الحياة ، ولا بد له من إرضاء تلك القوي ليتقي شرها ولينال رضاها ، هكذا اخترع الإنسان مفهوم الإله ، ولأنه يري ظواهر طبيعية متعددة ، لأنه يري الخير والشر ، لأنه يري ثنائية في كل شئ ، فقد تملكه إحساس بأن في الكون أكثر من إله ، لذلك إخترع مفهوم الآلهة ، ولم تكن غير الأجرام السماوية البعيدة هي التي تستحق تلك الألوهية ، فنسب إليها العناصر الرئيسية في حياته ، فجعل لكل من الحياة والموت والمرض والخير والشر والحب والكراهية ، ثم المطر والفيضان والزرع والحصاد والبرد والدفي ، ثم الخلفة والعقم والجمال والقيح ، ثم النصر والهزيمة في الحروب ، جعل لكل شئ إله مختلف ، وأخذ في نسج الأساطير والملاحم حول هذه الآلهة ، وتحول إلي عبادتها والتقرب منها بتقديم القرابين ، ووجد في التوسل إلي هذه الآلهة بشتي الطرق بعض الراحة والإحساس بالأمن ، لأنه أوكل أمره إلي قوة غيبية خارقة ، ولأنه كان يري أقرباءه الذين ماتوا في أحلامه وهم يتحركون ويمارسون حياتهم العادية فقد أوصله تفكيره إلي أن هناك عالم آخر ينتقل إليه الناس ، وهكذا نشأت فكرة الحياة الأخرى ، ثم مع مر العصور ألحق بها كل التصورات المصاحبة من حساب وعقاب وجنة ونار ، وقد تحولت الآلهة عند الإنسان في فترات متفرقة الي آلهة أرضية ، فعبد الإنسان عدد من الحيوانات مثل البقرة والأسد والثعبان ، ومازال يعيدها حتي يومنا هذا ، وبالذات الشعوب الآسيوية في الهند ، ومن المرجح أن الهنود والفرس وسكان وادي النيل هم أوائل الشعوب التي إخترعت فكرة الآلهة ، بل هناك الكثير من الآراء التي تؤكد أن فكرة الديانات بل الحضارة الإنسانية كلها بدأت في وادي النيل ، وفي وادي النيل جاءت فكرة التوحيد لأول مرة ، وكان أخناتون هو أول من أعلن عنها ، وأخناتون هو الفرعون أمنحتب الرابع ، وقد غير اسمه بعد تأله ، فقد إعتبر أن آمون إله واحد متعال بذاته وبجانبه عدد من الآلهة تقوم بتحقيق رغبة الذات الإلهية ، ثم جعل آمون الإله المطلق في السماء ، وجعل من نفسه إله علي الأرض ، وأعلن أن من يعبده فقد ضمن رضي إله السماء ، وهي نفس السياسة الدينية الإجتماعية الإقطاعية التي مارسها من يُسمون برجال الدين من كهنة وقساوسة وفقهاء في كل العصور وفي كل الديانات ، لا يستثنى إلا من رحم ربي.



ينسب العلماء والباحثون نشأة الفكر الميثافيزيقي الي مدينة (أون) وهي هليوبولس كما سماها اليونانيون ، وهي ضاحية تقع شمال شرق القاهرة . هناك نشأ أقدم مذهب فلسفي ديني لتفسير الوجود ونشأته ، وكانت نظريتهم تقول أنه في البدء كان (نون) موجوداً وحيداً في الوجود ، وكان محيطاً أزلياً مظلماً ، ومن ذلك الظلام خرج إله الشمس آمون رع، واسمه يعني الخفي، الذي لا يمكن إدراكه، خرج بقدرته الذاتية دون معين ، لأنه كان هو كل شيء في الوجود ، ثم اختار هذا الكامل مدينة أون ليجعل منها مركزاً للخليقة كلها ، ويوماً ما عطس آمون رع أتوم فنطق بأسماء أعضاء جسمه ، التي شكلت الآلهة ، فخرج الإله (شو) إله الهواء ، والآلهة (تفنوت) إلهة الندي والرطوبة ، ثم التقى شو وتفنوت بمشيئة آمون، وأثمر اللقاء عن إنجاب الإله الرابع (جب) إله الأرض ، ثم قام الإله شو بفتق الأرض الي قسمين ، وخلق في السماء الآلهة (نوت) ، ثم تزوج نوت وجب وأنجبا أربعة أبناء (آلهة)، ولدان هما أوزيريس وسيت، وبناتان هن (إيزيس) ونبت حت أو(نفتيس) ، ثم قدر لهم أبوهم رع اتوم تعمير الأرض بالبشرية ، فتزوج اوزيريس أخته إيزيس ، وتزوج سيت أخته نبت حت وأنجبوا كل الخلق الذين هم أشباه للإله ، إذ نشؤوا من بدنه . ان الإله اوزيريس الذي هو إله الخصب وإله مملكة الممات أيضاً أعيد إلى الحياة بواسطة زوجته ايزيس التي كانت مسئولة عن إحياء الموتى ، فقد قام سيت (اله الربكة والفوضي) بقتل أخاه اوزيريس وتمزيق جسده وتوزيع أشلائه في كل أنحاء البلاد، ولكن إيزيس زوجة اوزيريس تمكنت من جمع هذه الأشلء وإعادة ايزيريس الي الحياة مرة أخرى، ثم حملت منه دون مضاجعة وأنجبت إبناً حورس (الإله الصقر)الذى أصبح وريثاً لعرش والده، وانتقم لأبيه أوزيريس الذى أصبح ملكاً على أرباب العالم الآخر، ثم أصبحت إيزيس رمزاً للزوجة المخلصة والأم الحنون، وكثيراً ما صورت إيزيس في التماثيل وهي ترضع الطفل حورس، وهناك تشابه بين تماثيل إيزيس التي ترضع وليدها حورس، وما ظهر فيما بعد من الصور المسيحية للسيدة العذراء والطفل يسوع، وفي التمثال يظهر على رأس الإلهة قرناً البقرة حتحور وبينهما قرص الشمس.

في وادي النيل أيضاً ، وقبل المسيحية بمراحل نشأت فكرة (التثليث) ، وقد تمثلت زواياه في (إيزيس وإبنها حورس وزوجها أوزيريس الذي أنجبت منه دون مجاضعة) ، كما عرفوا فكرة الإنسان الكامل ، التي تجسدت عند المتصوفة فيما بعد، ومن نافلة القول أنهم عرفوا الآخرة والخلود، ان التأكيد على وجود الحياة الأخرى هي من معالم حضارة وادي النيل القديمة، حيث تتم محاكمة الإنسان في العالم الآخر ، يكون اوزيريس قاضياً، ويقوم انوبيس إله الموت بوزن قلب الإنسان ، وفي الكفة الأخرى للعدالة توجد الآلهة معات، ويقوم الإله توت (إله القمر والحكمة) بتسجيل النتيجة، وفي نهاية المحكمة على الميت أن يقدم اعترافاً ويقدم تبريراً لما قام به من أفعال في العالم الأرضي، ومن المعلوم أن سكان وادي النيل كانوا من أكثر الشعوب تعبداً ، أذ أخلصوا لآلهتهم ، حتي أن إنسان وادي النيل كان لا يتذوق ثمار محاصيله ولا ينتفع بحيوانه قبل أن يقدم لآلهته أولاً، بل بالغ هذا الإنسان لدرجة أنه كان يضحى

بفلذات أكبادِهِ علي مذابح الآلهة . وكان لا يتواني في إلقاء أجمل الفتيات في جوف النيل . هكذا عاش الإنسان النوبي في ممارسات وطقوس دينية متعلقة بكل شيء في حياته اليومية . ورغم أن الإله آمون/أمان كان معروفاً وعُبد بصورة أساسية في كوش . ورغم أنه كان هو الإله المعبود في مملكة كرمة . إلا أن مركز عبادته ومقره الرئيسي المقدس أصبح في نبتة . وكان يعرف بـ (أمون النبتي) مقابل (أمون الطيب) في مصر . وطبّي منسوب الي مدينة طيبة في جنوب مصر والتي كانت العاصمة الدينية المصرية لفترة طويلة . وكانت نبتة هي العاصمة الدينية لكوش . حتي بعد انتقال المملكة الي مروي . وكان جبل البركل هو الجبل المقدس . إذ شُيّد هناك معبد آمون الكبير ، وعنده دفن الكثير من ملوك مروي ، وعادة ما يستنتج المؤرخون القيم الثقافية للشعوب القديمة من ديانات تلك الشعوب، ولكن في حالة مروي، فاللغة الأساسية التي كتبت بها تفاصيل الثقافة الدينية التي سادت في تلك المرحلة لم تتم قراءتها بصورة كاملة بعد. ولذلك يجد المؤرخون صعوبة بالغة في تحديد المعتقدات الدينية لمملكة مروي بوضوح مؤكد. ولكن النصوص المروية التي تمكن العلماء من فهمها تشير إلي أن المرويين تميزوا بالورع الشديد تجاه الآلهة. والنقوش التي تركها المرويون علي المسلات وموائد القرايين والأغراض التي وجدت في قبورهم بالإضافة الي النقوش الموجودة علي جدران المعابد. كلها تشير الي أن المرويين كانوا شديدي الاهتمام بما بعد الموت، وأنهم أرادوا أن يضمّنوا حياة أبدية ومباركة في العالم الآخر. وبجانب آمون عبد الكوشيون الإلهين إيزيس وأوزيريس . كان أوزيريس هو صانع الحسنات والمرشد العام الي العالم الآخر. كما أنه كان يعتبر (المسيح المنتظر) أو (المهدي المنتظر) . بينما كانت إيزيس مسئولة عن إصدار التصاريح بإحياء الموتى . كما أنها كانت تعتبر (مخترعة) الزراعة ومباركة المحصول . وفي ألواح القرايين نجد أيضاً الآلهة نفتيس والإله أنوبيس . كما أن الكوشيين عرفوا الإله أبادماك الذي كان الإله الرسمي للدولة في عهد الملك أركماني. والحقيقة أن فكرة الموت والخلود والحياة الأخرى، وفكرة التناسخ، وفكرة الثنائية في الكون، ووجود آلهة خير وآلهة شر. كل تلك الأفكار كانت موجودة عند كل شعوب العالم القديم. في حضارة وادي النيل التي تحدثنا عنها. وفي حضارة وادي الرافدين والفارسية و اليونانية والرومانية والهندية. حسب دياناتهم وثقافتهم وبيئتهم. وقد تجلّت تلك الأفكار فيما تركته تلك الشعوب من آثار تتعرض للثقافات الدينية والاجتماعية والفلسفية والطبيعية التي عاشت عليها وما زالت، ففي الديانة الهندوسية مثلاً. هناك عقيدة الكارما والتناسخ وفكرة التوحيد بين اتمان وبراهما. يشكل برهما ماهية العالم وأصل الموجودات. بينما اتمان هي الذات الفردية (النفس) الموجودة في الطبيعة. والتي تتحد بما هو خارج عنها (الروح) فيتكون الإنسان، ثم يرتقي اتمان في طريق الكارما بالزهد والمعرفة والسيطرة علي الذات حتي يذوب في البراهما فيقول أنا هو برهما، وهذه الفكرة ليست بعيدة عن أفكار المتصوفة لدينا. أما في الديانة البوذية فلا يوجد مفهوم الحياة الأخرى وحساب ما بعد الممات، ولكن يوجد مبدأ الترفانا. وهي الحالة الطوباوية في تلك الديانة. وللوصول الي تلك المرحلة يمر الإنسان بسلسلة طويلة من عمليات الموت والولادة المتعددة. والتي يمارس فيها الزهد والتنسك، حتي يصل مرحلة الكمال التي يعي فيها ذاته، وعندها تتوقف رغبات وغرائز الإنسان نهائياً. فيتحوّل الي خير مطلق. أما في الديانة الزرادشتية فالفكرة

الأساسية فيها هي ثنائية الخير والشر. يتمثل الخير في الإله (اخورا مازدا) ويتمثل الشر في الإله (اهريمان). والزرادشتية من الديانات التي تتطور عبر التاريخ، وفيها أن الإنسان يحاسب في الآخرة علي أعماله وأفكاره، ويفوز الغيرون بالخلاص والخلود. وفي مجموعة الديانات التي إعتقد بها سكان وادي الرافدين تظهر فكرة الخلود بصورة واضحة، كما في أسطوري كلكامش وعشتار. أما في الفكر الإغريقي والذي كان أهم فكر فلسفي عقلي في التاريخ فالمدارس الفكرية كثيرة، ولكن أهمها هي فلسفة أفلاطون. وأهم ما عند أفلاطون هو نظريته الشهيرة (المثُل)، والتي نجد فيها تشخيص واضح لفكرة وجود النفس (الروح) التي هي أبدية، والجسد الذي هو زائل. فهناك عالمان. عالم المثُل المستقر الثابت الذي لا يتغير، وعالم الواقع المادي المعرض للتغير والزوال، إن الروح من عالم المثُل، لذلك هي أبدية، أما الجسد فمن عالم الواقع لذلك فهو زائل. والروح في هذا العالم تتصارع مع الجسد لتتحرر منه وتعود الي ابديتها في عالم الخلود. وليس من المستبعد أن تكون هذه الحضارات قد تأثرت ببعضها البعض، وإن يكون وادي النيل من المناطق التي وصلت إليها مفاهيم دينية من مناطق أخرى.

كان الزواج والطلاق من الأمور المدنية التي كان يحكمها العرف والتقاليد في وادي النيل. ولم تتحكم الديانة أو القانون في الزواج أو الطلاق سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وفي العصور المبكرة كان الزواج يتم بدون عقد، ولكن يشهود، ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد كانت عقود الزواج تكتب، إلا أنه لم يكن لها صيغة محددة. وكان هناك قواعد وشروط وشهود لا بد أن يكونوا حاضرين. وكان على الرجال أن يقدموا لزوجاتهم الهدايا والأثاث والمثزل. وبعد الزواج كان الزوج يعطى زوجته ثلثي ممتلكاته، وكان هي من حقها الاحتفاظ بنصيبها التي جلبته معها من بيت أسرتهما. وكان الطلاق مسموح لعدة أسباب مثل الكراهية أو إذا وقع أحد الزوجين في الزنا أولم يكن قادراً على الإنجاب، وفي هذه الظروف كان من حق الزوجة الحصول على تعويض.

مهما كان الأمر، فقد كان الإنسان النوبي متحضراً وواعياً من الناحية الدينية . كان مؤمناً وخاضعاً الي إله في السماء ، ولذلك فعندما جاءت المسيحية ، وتم التبشير بها ، لم تجد صعوبة ، إذ صادفت عقلاً واعياً وروحاً مؤمنة . فلم يحدث تغيير كثير لا في فكر ولا في أعماق هذا الإنسان . تحول المعبد القديم الي كنيسة ، وأصبح الكاهن قسيساً ، وتحول الثالث النوبي (إيزيس . حورس . أوزيريس) الي (الأب . الإبن . الروح القدس) ، وأصبحت الرسومات ترمز إلي المسيح وأمه بدلاً من إيزيس وحورس . ولم يتغير جوهر الإعتقاد في الإلوهية . وهكذا أيضاً عندما جاء الإسلام . تحولت الكنائس الي مساجد . وذابت الممارسات والطقوس القديمة بيسر وسهولة . وتحولت الي تقاليد إسلامية رغم أنها تحمل أصل عبادة آمون أو الشمس أو تقديس النيل . تغيرت الأسماء والتفسيرات لفكرة واحدة ، وكان الإسلام من السماحة بحيث إستوعب كل ذلك ، فهو دين الفطرة ، وظل الإنسان النوبي كما هو ، مسالماً طيباً ، مزارعاً مرتبطاً بنبيله وأرضه . ينتظر الفيضان كل عام ، رغم خوفه منه. كانت المناطق النوبية من أسلم وأمن المناطق علي الكرة الأرضية علي الإطلاق، كانت أبواب البيوت مفتوحة علي مصراعها طوال النهار. كانت ربة البيت عندما تقوم من نومها في الصباح الباكر أول ما تفعله هو فتح الباب، كان من العيب قفل الباب بالنهار. كان الجيران

يدخلون البيوت ويستلفون منها الأشياء حتي في عدم وجود أصحاب البيت، ولم يكن التواصل بحق الجار من منطلق ديني، إنما كان من منطلق أخلاقي فطري، والبيوت كانت متداخلة ببعض. بيت واحد يسع عدة أسر، لكل أسرة صغيرة غرفة او اثنتان. كانت النفوس طيبة، والقلوب نقية، والمعيشة هنية، ومصدر الرزق واحد، هو الساقية التي تدور بالخير العيم على الجميع.



من الآثار التي أذكرها هنا، أثر منقوش علي لوحة المجاعة بجزيرة سهيل بأسوان، يتحدث النص عن المجاعة التي حدثت عندما توقف الفيضان لمدة سبع سنوات في زمن الملك سنفر من عصر الأسرة الرابعة حوالي 2650 ق . م ، وكيف أن الملك جمع الكهنة واستشارهم في الأمر، فأشاروا اليه بأن يقدم القرابين لخنوم إله الماء في أسوان، وأن يزود معبده بالعطايا، ونفذ الملك الوصية، فرحمهم الإله وأمر النيل بالفيضان، والإله خنوم المذكور هنا من كبار الآلهة . بل كان

القدماء يعتقدون أنه هو الذي يصنع البشر من طين الصلصال ثم ينفخ فيه روحه فهم الإله آمون من روحه فهم الحياة . ومما يجدر ذكره أن نهر النيل كان طريق النقل الرئيسي، ولكن الملاحة فيه كان ينطوي علي خطورة كبيرة بسبب التماسيح، ولإبعاد خطر التماسيح شيدوا معابد للإله (سوبك) الإله التمساح في مناطق متفرقة علي نهر النيل، وكانت توجد في كل معبد غرف جوفية (بحيرة صناعية) كانوا يحتفظون فيها بتمساح حي يتلقى القرابين والصلوات. وربما كان من الأنسب أن نختم هذا الجزء بفقرة مختصرة عن الإله آمون ، وهناك كتابات ودراسات كثيرة



عنه ، ولكني أكتفي بكتابين قيمين موثوقين ، ثم ببعض المقطعات من مصادر مختلفة. للراحل البروفسير أسامة عبد الرحمن النور كتاب قيم جداً إسمه دراسات في تاريخ السودان القديم : نحو تأسيس علم الدراسات السودانية، صدر عن مركز عبدالكريم ميرغني، 2006 ، والكتاب مذكور في موقع أركماني ، ولكن لا يوجد من محتوى الكتاب إلا مقدمته ، وقد بذلت كل ما أستطيع من جهد للحصول على الكتاب وباءت محاولاتي بالفشل ، ولكن أسعدني جداً أن وجدت بعض المقطعات من هذا الكتاب في المواقع الأسفيرية المختلفة ، وإشارتي لبعض الفقرات من هذا الكتاب مقتبس من هذه المواقع ، ((ورد في ص347 قال الملك ببا (بعانخي) في وصيته للجند الزاهبون للقتال في طيبة (الأقصر) في حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد قال الملك" لا تنقضوا علي العدو لئلا و كأنكم تلعبون و تلهون، لا تحاربوا إلا و أنتم مبصرون، خوضوا ضده المعركة دون اقتراب منه و إذا قال لكم انتظروا المشاة و سلاح المركبات القادمة من مناطق أخرى،

فترثوا لحين وصول جيشه و لا تبدأوا المعركة الا عندما يطلب ذلك ، و إذا كان حلفاؤه في مدينة أخرى فأصدروا الأوامر بالانتظار حتى يصلوا، حاربوا في المقام الأول القادة العسكريين المرافقين له كحلفاء و حرسه الخاص من الليبيين. وعند استعراض الجيش لا ندري لمن توجه الحديث فنقول " أيا أنت أسرج أفضل ما في اسطبلك من جياذ و هيئ نفسك للمعركة عندئذ سيعرف أننا رسل آمون.))

وأيضاً للبروفسير عمر حاج الزاكي كتاب قيم جداً في تاريخ السودان القديم (بالذات العهد المروي) من اصدارات دار النشر جامعة الخرطوم مطبوعات كلية الدراسات العليا ، وهو أيضاً كتاب لم أتمكن من الحصول عليه ، والفقرات المقتبسة من الكتاب في هذه الصفحات مأخوذة من المواقع الأسفيرية . جاء في الصفحة 16 من كتاب د. عمر في نفس المنحي (بعانخي يخاطب الجيش فيقول ما يلي ((انغمروا في الماء و تطهروا في النهر و ارتدوا الكتان النقي و حطوا الأقواس و القوا السهام جانبا و لا تنباهوا بأنكم أصحاب سلطة في حضرة الذي بدون رضاه ليس للشجاع قدرة (المقصود الإله آمون طيبة) فيجعل الضعيف قويا و الجموع تتراجع أمام القلة و تعود أدراجها و يتغلب الفرد علي ألف و تبللوا بماء هياكله و قبلوا الأرض بين يديه و قولوا له: أرشدنا إلي الطريق فلنحارب في ظل قوتك و لتكن معارك المجندين الذين بعثت بهم مظفرة . وليستولي الرعب علي الجموع عندما تواجههم.))

هو الإله آمون ، الذي عبده سكان وادي النيل لمدة ستة قرون أو أكثر ، الإله الذي بإسمه حارب الملوك ، مستنصرين به ، هو الإله الذي كانت الصلوات تؤدي في معابده ، وحسب الكتاين المذكورين آنفاً بالإضافة إلي مصادر أخرى فإن الإله آمون هو في الأساس معبود سوداني تعود فترة معرفته إلي ما قبل مملكة كرمة ، ثم إنتقلت عبادته إلي الأسر المصرية مع إنتقال الحضارة شمالاً من الجنوب ، ثم عاد الكوشيون إلي عبادته مرة أخرى. وله معبد كبير في منطقة الضانقيل الأثرية شمال مدينة بربر.



الصورة هنا تمثل تعامد الشمس السنوي على تمثال أمون رع في معبد الكرنك في الأقصر والذي يحدث في ديسمبر من كل عام.

من الملاحظات المهمة أنك حينما تقرأ ترجمات النصوص الأثرية القديمة فإنك تجد أن مفهوم (الإله) وعلاقة (الإنسان) به في الحضارات القديمة لا تختلف كثيراً عن مفهوم الإله في الديانات الرئيسية المعروفة ، بل أن بعض التفاصيل تتطابق ، وأن دور العبادة في الديانات الحديثة ما هي إلا صورة مختلفة قليلاً عن تلك الأثرية . فالمعابد الحالية وملحقاتها تشبه إلى حد كبير معابد الآلهة القديمة ، وبعض الطقوس والممارسات التي تتم داخل المعابد الحديثة كانت تتم بطريقة مشابهة في المعابد الأثرية .

تقع الجزيرة تقريبا في الحد الفاصل ما بين مناطق الدناقلة والمحس، وسكان الجزيرة كلهم نوبة. ينتمون من ناحية أصول عائلية إلى أسر كبيرة في المحس أو عند الدناقلة، ويتحدث السكان اللغتين النوبيين، المحسية والدنقلوية (الأشكر)، ومع وجود خلاف كبير بين اللغتين إلا أن هناك كلمات كثيرة مشتركة. وأصل اللغتين واحد. أغلبية السكان محس يتحدثون المحسية، وهي نفس اللغة التي يتحدث بها سكان المنطقة الممتدة من حلفا إلى بدين، بالإضافة إلى منطقة النوبة المصرية، مع بعض الاختلافات في اللهجات وطريقة النطق. واختلاف في معاني بعض الكلمات من منطقة إلى أخرى. والنوبة عموما وبخاصة الحلفاويين قوم إشتهروا بصفات خاصة، كالظرف والسخرية كما يشاع أنهم يتحلون بـ "هشاشة العقيدة"، ويقول عنهم أهل السودان المستعربين أنهم "نص ديانة". ويقال إنه عندما جاء رمضان اعتذر الحلفاوي عن صيام أول يوم قائلا إن أول يوم صعب، ولذلك فقد نوي الصيام اعتبارا من اليوم التالي. وهم أصحاب نكتة، يطبخونها في اللحظة، وكثيرا ما يختلط علي الناس الفرق بين المحسي والسكداوي والحلفاوي، والحقيقة أن كلهم نوبة. قومية واحدة تنقسم من الشمال إلى الجنوب، إلى حلفا ثم السكوت تم المحس' ولكن غلب تسمية المحس علي الجميع. أما الدناقلة في بدين فاقلية، وهم يتحدثون الأشكر، وهي لغة سكان المنطقة الممتدة من بدين شمالا إلى القولد وما جاورها جنوبا، قوم يقولون لله أرتي، وللجدول ملتي، وللغنامية برتي، وللخروف غتي، وللبلح بنتي، وللسيد ترتي، وللندي ارتي، وهم قوم ناجحون علي الصعيد الفردي، يعرفون المال ويحبونه حبا جما، ولا أدري من أين جاء (حديث التيس: دنقلوي حلاب التيس.....)، فهم لا يحلبون التيس ولا أي من ذوات الثدي غير القابل للحلب. بل إن النوبيين عموما لا يستخدمون لبن النعاج، أما ما يحلب فيحلبونه حبيلا، اوووب سوري، اقصد حليبا. معلش، دنقلوي يا جماعة. وهناك من سكان الجزيرة من يجيد اللغتين، وتجد في البيت الواحد من يتحدث المحسية، ومن يتحدث الدنقلوية، وقد تتحدث الأم بالمحسية مع الولد وبالدنقلوية مع البنت، بينما يتحدث الأب بواحدة مع الجميع، وهناك من يخلط اللغتين في الجملة الواحدة فلا هي محسية ولا هي دنقلوية.

تسوقنا هذه المداخلة القصيرة إلى الحديث عن اللغة النوبية، والحديث عن اللغة النوبية ذو شجون، وشجون هنا تعني شجون وشجون، ذو شجون بمعنى أشجان. ما يشجيك وبصبيك بالشجن، وذوشجون بمعنى المنتשב كثير الفروع والفنون والأغراض، ونبدأ الحديث بالتعليق علي الجدل الذي يدور بين اعتبار اللغة النوبية (لغة) أو (رطانة) . والحقيقة أن اللغة النوبية التي نتحدث بها الآن إنما هي (لهجة) . واللهجة هي (المواضعة) اللغوية التي يتحدث بها الناس في المجتمعات المختلفة . واللهجة تنشأ في الأصل من لغة فصحي . كما نرى في اللغة العربية . فهناك اللهجات (العامية العربية) المختلفة . لهجة سعودية . لهجة عراقية . لهجة يمنية . لهجة مصرية . لهجة مغربية ... إلى الآخر . ولكن الأصل هي اللغة العربية الفصحى والتي يلجأ إليها الجميع عندما يكتبون . ونفس الشيء يقال عن كل لغات العالم . بما فيها اللغة الإنجليزية . التي ربما أعتبرها البعض لغة ذات لهجة واحدة . مع أنها متعددة اللهجات . حتي

داخل الدولة الواحدة . واللغة النوبية كانت يوماً من الأيام لغة مكتوبة بحروفها ، ثم كُتبت نفس اللغة بحروف لغات أخرى كاللاتينية والقبطية . ثم بالمرية التي كانت آخرها . ثم . ولعوامل كثيرة . أهمل كتابة اللغة النوبية ، ولما جاءت اللغة العربية وبدلاً من كتابة اللغة النوبية بالحروف العربية . كما فعلت بعض الشعوب بلغاتها (السواحلية والصومالية والهوسا والأردو والفارسية والكردية والبشتو كمثال) ، بدلاً من ذلك ، استعرب النوبيون وتركوا لغتهم واتخذوا اللغة العربية لغة رسمية تحدثاً وكتابة . حدث ذلك لعدة أسباب، الأول هو إضفاء قدسية للغة العربية باعتبارها لغة القرآن من جانب، واعتبار اللغة النوبية لغة وثنية ثم مسيحية من جانب آخر، ثم تقليل العرب من قدر اللغة النوبية وبالذات لأنها لم تكن مكتوبة. وانتشار تعليم القرآن بتعليم الكتابة باللغة العربية، ثم بحث السودانيون عن لغة مكتوبة تجمعهم، وما تبع ذلك من فرض اللغة العربية بالقوة من قبل أفندية السودان في مراحل التعليم، كل ذلك أدى إلى إقتراب اللغة النوبية من الانقراض. وإضفاء قداسة علي اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن خلط لا يستقيم، فالقرآن هو كلام الله المزمّر، ولا تنحصر معاني كلام الله علي اللغة العربية، والقرآن كتاب أنزله الله لكل شعوب وقبائل الأرض، ولا تتحدث كل تلك الشعوب والقبائل باللغة العربية، وليس في القرآن ولا السنة ما يوجب نشر اللغة العربية علي شعوب العالم، ليس هناك أمر بذلك، . واللغة العربية كانت موجودة ومتداولة من قبل القرآن بكثير، فإذاً فالقداسة للقرآن ومن خلاله للدين، أما اللغة فلا قداسة لها، فترك اللغة الأصلية ومعارضتها بذلك الفهم الخاطئ كان خطأً فادحاً ، لم ترتكبه الشعوب الأخرى . وبذلك حافظت علي لغاتها الأصلية ، وأدخلت الحروف العربية في كتابة لغاتها بجانب حروف أخرى . وترجمت معاني القرآن الي لغاتها . ولم يفقد القرآن قدسيته نتيجة تلك الترجمات . ولا إكتسبت تلك اللغات أية قدسية . ولذلك لم تحدث أزمة الهوية التي حدثت عندنا في السودان . أما لفظة (رطانة) فهي لفظة عربية بحتة . وقد أطلق العرب تعريفاً رطانة علي لغات أخرى قبل أن يطلقوها علي اللغة النوبية . إذ أطلقوها علي اللغات الفارسية والرومانية والإغريقية، وقد جاء تعريف (رطن) في لسان العرب، وفي الصحاح، وفي القاموس المحيط ، بنفس المعني، وهو التكلم بالعجمية، أي بلغة لا تفهمها العرب، رطن أو تراطن رطناً : تحدث بلغته، وتراطنوا يعني تكلموا بلغتهم.

قال علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس:

يوحي إليها بإنقاضي وثقنيته كما تراطن في أفدائها الروم

وقال طرفة بن العبد:

فأناز فارطهم غطاطاً جُئماً أصواته كترأطن الفرس

والكلمة في الأصل تعني أصوات الأبل، (وإذا كثرت الإبل، وكانت رفاقاً، ومعها أهلها، فهي الرطانة والرطون). كما جاء في القاموس المحيط ، وبمنطق العرب فاللغة العربية نفسها رطانة لمن لا يفهمونها، وعلي كل حال، ورغم أنها لا تلغي حقيقة أن النوبية لغة فقد أخذت كلمة رطانة معني مغايراً، وأصبحت مرتبطة في أذهان الناس بوصف دوني وتقليل وإزدراء للغة، والحقيقة أن معناها كما نقول في النوبية (نرنري) أو كما يقول المصريون (إنت بتبرطم بتقول أيه).

ووصف أية لغة برطانة هو وصف سخيف، ولذلك ففي رأي الشخصي من الأنسب إعتبار اللغة النوبية لهجة، واللهجة هي اللغة غير المكتوبة. يقابلها بالإنجليزية كلمة (dialect)، ولا توجد مرادفة لها في اللغة النوبية. فماذا نطلق علي اللغة النوبية لو أردنا تعريفها بغير التعريف العربي (لغة نوبية)؟، ورغم أن كلمة لهجة كلمة عربية هي الأخرى، إلا أنها يمكن أن تكون أقرب إلي حال اللغة النوبية، فإذا بدلنا كلمة رطانة بكلمة لهجة تبقى أقل وقعاً وأكثر دلالة، غير أن هناك من لا يتفق مع هذا الطرح من منطلق أن اللهجة تتفرع عن لغة أم وبما أن النوبية لغة أم ولغة أولى للناطقين بها فلا يجوز اعتبارها لهجة لأنها لا تتفرع عن أصل آخر.

يرجح الباحثون أن اللغة النوبية الحالية ظهرت في هذه المنطقة في القرن الثالث قبل الميلاد، ثم إكتملت في صورتها الحالية ما بين القرنين الثالث قبل الميلاد والثاني بعد الميلاد، أما قبل ذلك فكانت اللغة الفرعونية المصرية هي المستخدمة، وفي عهد مروي كانت المروية هي اللغة الرسمية للدولة، بينما كانت النوبية هي اللغة الشعبية، والمروية لغة نوبية، إلا أنها لم تكن اللغة المتداولة، فقد كانت هناك لغتان في الدولة، لغة رسمية هي المروية، والتي تمت بها كتابة الأحداث الرسمية الخاصة بالملوك وحكمهم، ومن المعروف أن اللغة المروية لم يتم فك شفرتها بالكامل حتي الآن، رغم المحاولات المستميتة، ثم كانت هناك لغة شعبية أخذت إسم اللغة النوبية فيما بعد، ولذلك تفرز الدراسات بين اللغتين، دراسات تهتم باللغة المروية، ودراسات مستقلة تهتم باللغة النوبية، ومن المؤكد أن اللغة المروية ليست هي اللغة النوبية التي نتحدث بها الآن، وبعد سقوط مروي إستمرت الكتابات الرسمية بالمروية، أما في الفترة ما قبل المروية مباشرة، فكانت الكتابات تقتصر علي الكتابات الدينية التي إعتمدت إما الحروف الإغريقية أو القبطية ذات الأصل اليوناني، وأستخدم القساوسة المسيحيون اللغة الإغريقية كلغة للتواثيل الدينية في الكنائس، وحتى الأناجيل التي ترجمت إلى النوبية، رغم قلتها، استخدمت الأبجدية الإغريقية لكتابة النصوص، ولم يهتم رجال الكنيسة بالحياة العامة، ولم يتم تدوين أي أثر بالأبجدية النوبية، وهكذا تحولت النوبية إلى لغة شعبية دارجة يتحدث بها الناس ولكهم لا يكتبونها، وذلك هو حالها إلي يومنا هذا.

يمكن تقسيم اللغة النوبية إلى لغتين أساسيتين هما:

1. (نوبين) وهي لغة الفديجا في مصر والحلفاويين والسكداويين والمحس في السودان، وفي كثير من الأحيان تعرف هذه اللغة بـ (المحسية)، وأنا سوف إستعمل (محسية) للتعبير عنها.

2. (نشكرين) وهي (الأشكر) وهي لغة الكنوز والمنكيين في مصر والدناقلة في السودان وتعرف بالدنقلوية أيضاً.

ورغم أن اللغتين من أصل واحد، ورغم وجود كلمات مشتركة، إلا أن هناك فروقات كبيرة بينهما، ولنضرب مثلاً ببعض الكلمات:

1- جميل

بالأشكر تونجل (Tongil)

بالمحسي أشري (Ashri)

2. الشمس

بالأشكر مَسِين (Masil)

بالمحسي مَشَا (Masha)

3. الماء

بالأشكر أَسِي (Assi)

بالمحسي أَمِن (Amen)

4. صغير

بالأشكر كِينَا (Kinna)

بالمحسي كَدُود (Kodoud)

5. الأكل

بالأشكر كَلَن (Kel)

بالمحسي كَبَا (Kaba)

6. حصان

بالأشكر كَج (Keg)

بالمحسي مُرْتِي (Morti)

7. حمار

بالأشكر هَنُو (Hano)

بالمحسي كَج (Keg)

8 . الساقية

بالأشكر	كُلي (Koleh)
بالمحسية	أسكلي (Askaleh)

9 . الحائط

بالأشكر	كُتري (Katre)
بالمحسية	داب (Dab)

10 . المركب

بالأشكر	كُب (Kob)
بالمحسية	سِقِر (Sigir)

هذه أمثلة بسيطة للكلمات المختلفة بين اللغتين ، أما الكلمات التي تتطابق تماماً بين المحسية والدنقلوية فكثيرة .. وهي تعني نفس المعنى وتنطق بنفس النطق ، ومن الملاحظ أن الكلمات التي تتعلق بالزراعة وملحقاتها هي التي تتطابق أو تتشابه في الغالب، كما أن بعض هذه الكلمات تستعمل عند الشوايقة والجعليين وقطاع آخر كبير من

سكان السودان، وعلي سبيل المثال:

- 1 . الثور قُر (Gor)
- 2 . البقرة تي (Ti)
- 3 . قمح إلبه (Elleh)
- 4 . الذرة مري (Mare)
- 5 . فاصل أحواض الزراعة تكند/تكمد (Tokmad)
- 6 . المزارع تُرِبَر (Torber)
- 7 . الزراعة أَوِر (Awrer)
- 8 . القش قيد (Geed)

هناك بعض الكلمات التي تختلف في حرف واحد أو حرفين، وبالذات الكلمات التي تبدأ بحروف ال (ف) وال (ب) .

مثال علي ذلك:

1 . حوض الزراعة

بالأشكر	با (Ba)
بالمحسية	فا (Fa)

2 . المنجل

بالأشكر	تُورب (Torob)
بالمحسية	تِرِب (Trib)

3 . جدول الماء

بالأشكر	ملتي (Malti)
بالمحسية	مرتّي (Marti)

4 . البلج (التمر)

بالأشكر	بنقي (benti)
بالمحسية	فنتي (Fenti)

5 . يعيد

بالأشكر	وَرّي (Warri)
بالمحسية	وِيرا (wira)

6 . تمساح

بالأشكر	أَلِم (Alim)
بالمحسية	أَلُم (Olom)

7 . تحيض

بالأشكر	بُكّي (Bokki)
بالمحسية	فُكّي (Fokki)

8 . ملح

بالأشكر	أومُبد (Ombod)
بالمحسية	إميد (Emeed)

9 . اسود

بالأشكر	أُرُمّي (Oremmeh)
بالمحسية	أُرُم (Orom)

10 . تحت

بالأشكر	تُغو (Togo)
بالمحسية	تَووه (Tawwo)

11. يصل

بالأشكر بلي (Belleh)

بالمحسية فلي (feleh)

12 أخرج

بالأشكر بل (Bell)

بالمحسية فل (Fell)

من المهم أن نورد هنا ميزة أساسية للغة النوبية . وهي أنها لا تعرف صيغة المثنى أو التانيث والتذكير . ومن المعروف أن الإنسان ، أي إنسان . عندما يتحدث بلغة ثانية غير لغته الأم . فإنه لا شعورياً يترجم الكلام من لغته الأصلية . وذلك ما يفسر عدم مقدرة كثير من النوبيين علي الفرز بين المؤنث والمذكر عند الحديث بالعربية . ولا يقلل ذلك من قدر اللغة النوبية . كما أن وجود المؤنث والمذكر في اللغة العربية لا يزيدهما تميزاً . وكما قال العرب أنفسهم فلا التانيث لإسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهِلال . وليس علي النوبي حرج إذا أخطأ في الحديث بالعربية . فهي ليست لغته الأم . وميزة أخرى هي إمكانية جمع العدد (واحد) ليفيد الكثرة . وواحد هو (وي) أو (وير) فيجمع (ويكو) أو (ويري) وهي من التراكيب النوبية التي دخلت في العامية السودانية . فنقول للكثير (واحدين) . ولا يوجد ذلك في أية لهجة عربية أخرى . كما أن الفاعل في اللغة النوبية يقدم علي الفعل . عكس اللغة العربية . فإذا كنا نقول بالعربية (أكل محمد) ففي النوبية نقول (ميمد كُبدن) أو (ميمد كلكن) وعلي كل حال فمن المؤكد أن أصل المحسية والدنقلاوية واحد . ولكن الغرب في الأمر أن (الأشكر) يتحدث بها الكنوز والمتكئين في أقصى الشمال والدنقلا في أقصى الجنوب . بينما المحسية تنتشر في الوسط بينهما . نحن نتحدثنا عن (كتر الدولة) الذي كان أول ملك مسلم في دنقلا العجوز . وكان هو من أم دنقلاوية وأب كرتي . هل إنتقلت اللغة من عند الكنوز الي منطقة دنقلا مع كترالدولة ؟ أم أن الأشكر الدنقلاوي هو الأصل للغة النوبية كلها كما يرجح البعض ؟ . علي كل حال هناك ملحوظة خطيرة وهي أن بعض الكلمات العربية المتداخلة في اللغة النوبية لا تجد مرادف لها في المحسية . بينما نفس الكلمات تجد لها مرادف في الدنقلاوية . وجدير بالذكر ملاحظة أن كبار السن في منطقة دنقلا يتحدثون (اللهجتين) بينما الكبار عند المحس لا يجيدون الدنقلاوية إلا قليلاً .

تقول منظمة اليونسكو أن اللغات المستعملة في العالم تقدر بنحو 6000 آلاف لغة . منها نحو 2500 لغة مهددة بالإنقراض وبعضها قد انقرض فعلاً . وتقول المنظمة أيضاً أن حوالي 97 % من سكان العالم يتحدثون نسبة 4 % من لغات العالم . ويتحدث 3 % من السكان بـ 96 % من اللغات . وتقرر المنظمة أن اللغات الأكثر تعرضاً للإنقراض هي تلك التي يتوقف ناطقوها عن التحدث بها . ويتوقفون عن نقلها من جيل الي آخر . ولا يتم تدريسها في المدارس . واللغة النوبية من اللغات المهددة بالإنقراض . وتتنطبق عليها عوامل الإنقراض الأساسية . هناك كم هائل من الدراسات الخاصة باللغة النوبية في دول الغرب . فهناك معاهد وكليات تقوم بتدريس تاريخ اللغة النوبية . وهناك

علماء آثار كثيرون أمضوا وقتاً طويلاً في دراستها . كما أن الجامعات والمتاحف في كثير من الدول الغربية لديها أقسام خاصة بآثار الحضارة النوبية . وحسب علمي . فإن هناك محاولات كثيرة من جانب النوبيين لإكتشاف الحروف الأصلية للغة . وفي مقدرة بعض الأفراد كتابة اللغة إما بحروفها أو بالحروف اللاتينية أو العربية . رغم تحفظ البعض علي الكتابة بالعربية . فهي لا تستوعب كل حركات وأصوات اللغة النوبية . ولكن كل هذه المحاولات فردية ولا تكتمل ولا تنشر . وما ينشر منها ينشر في المنتديات النوبية المختلفة علي الأنترنت . والمنتديات محدودة القراء . وهذه الطريقة لن تجدي كثيراً . المطلوب هو العمل الجاد علي إدخال تدريس اللغة النوبية كمادة أساسية في مدارس المنطقة كلها إن أردنا لهذه اللغة أن تستمر .

أما تأثير اللغة النوبية علي اللغة العربية السودانية فلا يحتاج إلي تبين . ومن الطبيعي أن يكون هذا التأثير كبيراً . من الطبيعي تماماً أن توجد كلمات نوبية كثيرة في العامية السودانية . فالعربية السودانية حلت محل النوبية . بمعنى أن نفس الناس الذين كانوا يتحدثون بالنوبية بدأوا في التحدث بالعربية . ولم يكن من الممكن للغة العربية أن تمحو النوبية وكأنها لم تكن . وإذا أردنا أن نورد الكلمات نوبية الأصل في العامية السودانية فسوف نضطر إلي إيراد نصف هذه العامية . ولكن . وبما أن الشعر يمثل عمق اللغة فأنظروا إلي هذه الأبيات : قال الشاعر السوداني (العربي) البلولة حاج الأمين :

الناس البتقلب كذا التوريق

دايرة تجيب خدار لاموية لا موريق

جبل الرملة ما بصعب علي الكوريق

وحصالة التقى بتظهر مع النوريق

ماذا قال الشاعر شيخ العرب هنا؟ . الا يذكرك هذا القول بترك المرأة النوبية التي أرادت أن تستأجر ناكسي من الخرطوم إلي الكلاكلة . وعندما تحدثت مع السائق بالعربية رد عليها السائق بالنوبية . فقالت المرأة للسائق كيف عرفت أنني أتحدث النوبية . فقال لها السائق أنك لم تقولي شيئاً بالعربية .

نتحول الآن إلي الحديث عن آثار الحضارة واللغة النوبية في غرب السودان . والحقيقة أن ربط حضارة غرب السودان القديم بالحضارة النوبية يبدو للبعض غير موضوعي . ولكن هناك رابط وثيق . ومن الباحثين الحاليين في هذه القضية . أحد أبناء دارفور . هو الأستاذ إبراهيم محمد إسحاق . وهو رواني وباحث وأستاذ جامعي . ووجدت له مقابلة في جريدة الصحافة . العدد 5297 بتاريخ 16 يونيو 2008 . وأحببت أن أنقل لكم مختصر من ذلك اللقاء . يقول الأستاذ إبراهيم : ((الحضارة النوبية القديمة ليست ببعيدة عن أقاليم دارفور وكردفان . بالذات قبائل الميديوب في دارفور . والنوبا سكان جبال النوبة في كردفان . وكانت دارفور بحدودها القديمة ضمن نطاق ونفوذ الدولة المروية القديمة . وهناك الكثير من الشواهد المادية ومن الآثار ومن العلائق الإثنية والثقافية يمكن الاستناد إليها . ولكن الكتابات التي تمت عن دارفور فكلها إنصبحت علي دراسة تاريخ دارفور وتراثها الثقافي واللغوي في العهد الإسلامي . ولم

يهتم أحد بالحقب ما قبل الإسلامية. وإذا كان من الثابت أن الحضارة المروية إمتدت إلى غرب القارة فمن الطبيعي أنها مرت خلال غرب السودان. والشواهد التي تم اكتشافها والأثار التي وجدت في منطقة «عين فرح» القربة من بلدة كتم بشمال دارفور و«جبل أوري» و«منطقة قرنتق» في أطراف جبل مرة. تؤكد بأنها ترجع لحقبة ما قبل الإسلام وتدل على ارتباط بين مروي والحضارة التي قامت في دارفور. ففي قمة جبل عين فرح «ولاية شمال دارفور» اكتشفت مدينة كاملة وبها قصر ضخيم مبني على الطراز المروي ومسجد مبني على طراز المعابد المروية مبني من الطوب الأحمر يرجع تاريخه لما قبل 1440م. وكذلك تم اكتشاف مدينة في قمة جبل أوري أكبر من الأولى. وكل هذه المنطقة - امتداد طبيعي لما يعرف بمنطقة «فورنتق» ويطلق عليها اسم سلسلة جبال (فونو) وترجمتها «جبل نوح» وهذه السلسلة امتداد لسلسلة جبل مرة تماثل تماما ما خلفته الحضارة المروية. وتقول النتيجة التي نصل إليها من خلال وجود مسجد مبني على الطراز النوبي القديم دليلا على أن حضارة قد سبقت الإسلام في هذه المنطقة وتاريخ بنائه يحدد فترة التحول الذي حدث كنتقلة تاريخية للتحول إلى الحضارة الإسلامية على الرغم من أن مرحلة الانتقال من عقيدة وحضارة قائمة إلى أخرى تحتاج إلى زمن طويل. ولا يمكن أن نتجاهل وجود القصور الشبيهة بالأثار المروية ونخطاها إلى الحقبة الإسلامية.

وقد أورد البروفيسور الراحل محمد ابراهيم أبو سليم ((مؤرخ ومدير سابق لدار الوثائق السودانية» عن عملية التحول في بلاط دارفور إلى الإسلام. من أن ذلك ((كان عملية داخلية حين دخلت النظم الإسلامية الخاصة بالحكم في التركيبة السياسية للسلطنة من دون أن تعرض التركيب القديم للانهيار. وهذا يعني أن المجتمع قد حافظ على تقاليده وعاداته ولغته وأعرافه الضاربة في عمق جذور التاريخ.)) وهذه النقطة والتلاقح الإسلامي والعربي كان عن علم وقناعة ودراية بحقيقة الدين الإسلامي. بعدما عرفت دارفور في وقت ما المسيحية كعقيدة قبل الإسلام. ويؤكد ذلك باذل دافنشن في كتابه «أفريقيا تحت أضواء جديدة» والذي يؤكد بأن دارفور كانت همزة الوصل بين الممالك المسيحية التي قامت على النيل الأوسط. ويستند في قوله إلى أن العلماء الذين درسوا أثار عين فرح. قالوا إن المسجد الذي بني في قمة جبل عين فرح كان في الأصل كنيسة. ويؤيده «أركل» في ذلك بأن دارفور كانت ضمن الممالك النوبية القديمة التي أسهمت المسيحية في ربطها وشعوبها ثقافياً فغلقت «كوش» من جديد.

وبضيف .. «أهم ما نود أن نتناوله هنا هو الاكتشاف المثير الذي تحقق على يد البعثة البريطانية عام 1935م. حينما أعلنت عن اكتشافها لأقدم مدن أفريقيا الضائعة: القصور على قمم جبال قرنتق. ومن ضمن هذه المدن مدينة «أنقري» التي يشبه نطقها كلمة «منقرع» الفرعونية» «الأغرب من ذلك أن القرية التي تحتها تسمى «منقري» ومدينة (جلا) العريقة ومدينة عين فرح ومدينة أوري في قمة جبل أوري.

وقد بني الشاويون الأوائل مدنا من الأحجار والطوب الأحمر على قسم من سلسلة جبال فورنتق ما تزال أثارها باقية. هذه المدن استطاعت إن تعمر لأكثر من أربعة قرون وأن الطوب الذي بنيت به لا يوجد مثله الا في الأثار التي خلفتها مروي. وهو الطوب نفسه الذي بني به النوبة كناسهم. وهذه الأثار ربما تكون ذكرى من مروي التي اختفت وظهرت

من تلال دارفور. ومن بين الشواهد الأخرى أن طريقة الزراعة التي يمارسها الأهالي في قمم الجبال خاصة في سلسلة جبال فورتنقي وجبل مرة. هي نفس الطرق التي كانت متبعة إبان الفترة المروية، والمفردة مروية أو ماروي، تلتقي في معناها في لغة ثلاث قبائل في دارفور منها «الزغاوة - الفور - الميديوب» وتعني حداد أو صانع الحديد بهذا النطق «مير - ميرو - ميري» مثلما هو الحال في جبال النوبة. حيث هنالك قبيلة نوبية يطلق عليها «الميري» وتعني الحدادين في لغة الفور. كما أن مروية اشتهرت بصناعة الحديد واكتشفت مؤخرا مناجم لصهر الحديد في «غرب جبل مرة» جهة وادي صالح.

هنالك تشابه لغوي غريب بين القبائل النوبية الواقعة في الشمال وجبال النوبة والقبائل الرئيسية في دارفور «الزغاوة، والفور، والميديوب، والمسالييت في بعض الاصطلاحات وهناك تشابه غريب في أسماء بعض المدن في الشمال ودارفور. مع ملاحظة أن لكل مدينة في الشمال تفسيراً معنوياً بلغة الفور مثل مدينة المقررة التي تعني عند الفور قراءة نص ديني، في حين تعني كلمة «علوة» عند الفور التأكيد بأن الله فوق كل شيء. ثم أن الرسوم التي يرسمها الأهالي في دارفور على حيواناتهم «الوسم أو الوشم» هي في الأصل لغة هيروغلوفية. وأن الصالة المطلة على القصر الملكي في قمة جبل أوربي كانت منصة يجلس عليها الملوك المرويون لاستقبال رعاياهم قرب القصر الملكي. حيث يعتقد أن العائلة المالكة في مروية هربت أمام الغزو الأكسومي صوب الغرب ووصلت إلى تلال دارفور. وأقامت فيها مملكة تحمل كثيراً من الطابع المروي. وهناك بعض العادات المتشابهة عند بعض القبائل في مصر «الكنوز علي وجه التحديد» والتقاليد التي عرفت في مصر الفرعونية، مع عادات وتقاليد القبائل الموجودة في دارفور. ويمكن تقسيم القبائل التي تلتقي في التشابه اللغوي إلى ثلاث مجموعات كنماذج، ففي شمال النوبة «الدناقلة - المحس - السكداوين. الحلفاويون» وفي كردفان مجموعة الغلفان «التيرا - النمنق - التورا - الميري» وفي دارفور مجموعة «الفور - الزغاوة - الميديوب - المسالييت - البرتي - الداجو». إن التشابه اللغوي في بعض القبائل في الشمال والغرب ووسط الغرب، يقودنا للبحث في أصول العلاقة الثقافية الجامعة لهذه القبائل كقومية أفريقية ذات جذور حضارية في السودان القديم.

وتعد مروية من الحضارات العريقة التي تركز عليها الحضارة القديمة في السودان. ففي نهايات القرن الخامس قبل الميلاد انتقلت عاصمة النوبة من نبتة إلى مروية التي تقع جنوب الشلال الخامس. وتمتاز بخصائص كثيرة أهلتها لأن تكون العاصمة الجديدة للمملكة النوبية. أهمها الموقع الجغرافي المتميز. في مفترق طرق القوافل التي تربط مصر بأثيوبيا وكافة بلاد أفريقيا. وتميزت حضارة مروية بطابعها الأفريقي الذي تفردت به، خلافاً لبقية الثقافات التي ازدهرت في وادي النيل. وتدل الآثار المتبقية من هذا العصر على تأثير مروية بالثقافات المختلفة التي عاصرتها. ويبدو ذلك جلياً في معابدها ذات الطابع الروماني والمصري والإغريقي.))

إلي هنا وانتهى حديث الأستاذ إبراهيم إسحاق، وقد أوردتُ هذا اللقاء الطويل حتي ألفت الإنتباه إلي وجود علاقة وثيقة بين الحضارة النوبية وأقاليم غرب السودان. أما من ناحية اللغة فقبائل البرقد والميديوب في دارفور تحدثت

حتى وقت قريب لغة سيطرت عليها مفردات اللغة النوبية، كما أن لغة النوبا سكان جبال النوبا بها كثير جداً من المفردات التي تتطابق أو تتشابه مع مفردات اللغة النوبية، ويذكر تاريخياً أن هناك هجرة نوبية كبيرة حدثت إلى الغرب عند سقوط مملكة علوة، فانتقلت الحضارة النوبية إلى هناك بلغتها، ثم اندمجت مع الحضارات المحلية. كما تفعل الحضارات المهاجرة دائماً، ولكن الأهم في هذا المجال فهو الرأي الشائع بين علماء النوبيات والذي مفاده أن أصل موطن النوبيين قبيل قدمهم إلى نهر النيل كان بمكان ما بشمال غرب دارفور. وتقدر هذه الفترة بألف عام قبل الميلاد، حيث وصلت أولى المجموعات، وهي المجموعة الناطقة باللغة المحسية، وبعد ذلك بخمسمائة عام وصلت المجموعة التي تتحدث باللغة الدنقلوية، وعلي كل حال، فإذا جاءت اللغة من هناك إلى النيل، أم ذهبت من النيل إلى هناك، فهناك الكثير من المفردات النوبية متداولة حتى الآن عند القبائل الأقريقية المختلفة في دارفور وكردفان، وعلي سبيل المثال:-

الوجه (كُونج). اللبن (أج). أنا (أي). المطر (أري). الرأس (أر). الحصان (كَج). الحمار (خنو). النار (إيقه). الجمل (كَمَلَا). الأحمر (قيلي). الحر الشديد (اسي). حي (أنجي). العشب (كَشِي). البطن (تو). الماء (اشي). الثور (قُر). النمل (قور). أعمى (ذنقر). الفضيحة أو العار (أودي). الزاد في السفر (يسر). هناك (ناندو). الأخضر (دمي). الشدي (أرتي). الحصى (أرودي). الأذن (ألقي). واسع (بُجو). قذح الخشب (كوسي). العجوز (دوري). الماضي (واي). الموت (دير).

هذه بعض الأمثلة التي وجدتها في المنتديات، وهي مدرجة عن طريق أشخاص من قبائل الميذوب والبرقد في دارفور، وبعض أبناء الأجانيق في جبال النوبا، ورغم رغبي في إظهار مدي عراقة الحضارة النوبية، ومدي إنتشار لغتنا في الماضي، ومدي إعترازا بذلك، إلا أنني لا أوافق الكثير من النوبيين علي إتخاذ هذه الحضارة وهذه اللغة مرجعاً لتفسير التاريخ الإنساني أجمع، بإعتساف كبير، وإتخاذ تخريجات وتلفيقات سخيفة لتفسير أسماء كثيرة ومحاولة إرجاعها إلى أصول نوبية، حتي وصل بنا الحال إلى محاولة إثبات أن سيدنا آدم كان يتحدث النوبية، وأنها لغة الأنبياء من نوح إلى موسى، وأن أسماء الملائكة نوبية، فاللغة النوبية التي نعرفها الآن حديثة نسبياً، ولا يمكن لها أن تكون أصلاً لأي لغة أخرى، فلا داعي لإتخاذ أنفسنا مضحكة بتفسير إسم كندا أو الأرجنتين مثلاً تفسيراً نوبياً، فلكل الشعوب حضاراتها ولغاتها التي إستمدت منها وما زالت تستمد ثقافتها الحالية، ولو سلمنا أن كل لغات اليوم أصلها من لغة واحدة بالضرورة، لأن سيدنا آدم وأبنائه كانوا يتحدثون لغة واحدة، فليس من المعقول ولا من الموضوعية أن نقول أن لغة آدم كانت اللغة النوبية التي نتحدث بها الآن، فاللغات من أكثر الحقائق التي تتغير مع مرور الزمن، وهذه قاعدة تنطبق علي كل اللغات دون فرز، فإذا أخذنا اللغة النوبية كمثال فمن المؤكد أن الجيل الرابع من أجدادنا إلى الورا لم يكن يتحدث بالنوبية كما نتحدث بها اليوم، والجيل الرابع من أبنائنا في المستقبل لن يتحدث بمثل لغتنا اليوم، وإذا أخذنا اللغة العربية كمثال آخر لوجدنا أنها في البداية كانت لغة واحدة، ثم تحولت إلى لهجات مختلفة في أماكن مختلفة في أزمان مختلفة، واللغة التي يتحدث بها أهل مكة اليوم ليست هي نفس اللغة

التي كان يتحدث بها أهلها في الجاهلية. واللغة التي يتحدث بها أهل المدينة اليوم ليست هي اللغة التي كان يتحدث بها أهلها قبل الهجرة. وليست لغة بغداد اليوم هي لغتها في العهد الأموي. وليست لغة الشام اليوم هي لغة العهد العباسي. وليس بين فصحاء العرب اليوم من يستطيع أن يجاري ابن المقفع أو الجاحظ. بل أن اللغة النوبية التي يتحدث بها أهل جزيرة بدين اليوم ليست هي التي تحدث بها أهلها قبل مائة عام. فاللغة تتعرض الي تعديلات وتبديلات مستمرة، ويلحق بها مفردات جديدة في كل حين. فتتجدد مع تجدد الحياة. وتتغير مع تداخل الشعوب والقبائل في بعضها البعض كحتمية تاريخية، وتتطور مع تقدم المدنية. واللغة كائن حي يطرأ عليه ما يطرأ على الكائنات الحية من تغيير وكبر وشيخوخة ومرض وموت ، مخلفة بعدها كائن آخر من أبنائها الذين ربما شابهوها قليلاً واختلفوا عنها كثيراً ، وهناك مفردات كثيرة اليوم في النوبية ليست هي من النوبية ولا حتي من العربية. جاءت هذه المفردات مصاحبة للالات والأجهزة التكنولوجية الحديثة . وسوف تصبح بعد عشرين أو ثلاثين عاماً كأنها مفردات محلية. وهكذا فبنية اللغة لا تبقى ثابتة. مفردات تستحدث ومفردات تندثر. حتي قواعد اللغة وأصولها تتبدل. بل حتي الأنماط الصوتية التي تميز أصحاب لغة معينة تتغير. ولذلك فعلينا إتباع الحذر الشديد عندما نأخذ مفردة نوبية حالية لنفسرها إسماً موجوداً من آلاف السنين. وعلماء الفيلولوجيا (وهو علم دراسة اللغات) يبذلون جهداً مضنياً ووقتاً طويلاً في البحث والتدقيق في النصوص والتحقيق فيها والمقارنة بين المصطلحات والعبارات وتاريخ تطورها والتغيرات التي طرأت عليها عبر العصور . فدراسة اللغات من العلوم الصعبة والمضنية جداً. أخيراً أشير إلى أن بعض الكلمات الصغيرة في اللغة النوبية والتي تتكون من ثلاثة أحرف مثلاً يمكن تشكيلها لتؤدى معان كثيرة جداً ، مثلاً كلمة (كري)

كُرى معناها العيد	كُرى.... معناها تعال
كُري معناها العدة أو الأواني	كُري معناها المعوج
كُرى معناها انثى	كُرى معناها بلع عجوة
كُري معناها ضب	كُري معناها شخير
كُري معناها ينسج	كُري معناها مهر الزواج
كُري معناها يربط	كُرى معناها (رشوة)
كُرى معناها الغير ظليل	و كُرى الراكوبة

في نهاية هذا الجزء عن اللغة أود أن أتقدم بشكري الجزيل للأخوين الشيخ أحمد عزالدين محمد أحمد ومحمد لطيف حسن زبير اللذان يعتبران مراجع في اللغة النوبية وقد لجت إليهما في أحيان كثيرة للإستفسار.

12.

ربما كان هذا الجزء من الكتاب غربياً أو طريفاً، أو ربما إستاء البعض منه، ولكنني أتعاطف مع هذا الحيوان المظلوم، الذي فتحنا أعيننا ووجدناه يقوم بخدمات جليلة لأهل الجزيرة، من منا لم يمتطي صهوة الحمار جيئة وذهاباً في طرقات البلدة، هو جزء أصيل من سكان الجزيرة ، وقوة أساسية في تاريخها، وقد إعتد عليه سكان الجزيرة في قطع مشاويرهم الطويلة والقصيرة ، حالهم في ذلك كحال أهل النوبة جميعاً، إعتد عليه المزارع والعمدة والشيخ والمدرس والطالب، إعتد عليه الجميع للذهاب إلى السوق والطاحونة، وقبل ترف العربات كان الحمار هو وسيلة المواصلات الوحيدة إلى أرقو ودنقلا، إلى فريق ودلقو وحلفا، وكان بعض الناس يهتمون بحميرهم وكأنها خيول ثمينة، حتي أن بعض الحمير طبقت سمعتها الأفاق ، وثبت أن الحمار حيوان ذكي ، وأن إتهامه بالغباء محض إفتراء من جانب الإنسان ، والحمار إذا تركته علي بعد عشرات الكيلومترات من مربطه يستطيع العودة بمفرده . كما أن الحمار يألف صاحبه إلفة حميمة . وقد كانت الحمير تابعة لأصحابها إسمياً، ولكنها إدارياً كانت تابعة للمشروع الزراعي، وكان مسئول الماء في المشروع، الذي كان يتفقد الجدول الرئيسي، إذا وجد حماراً مطلوباً في أي من المزارع. كان يسوق الحمار إلى الـ (كارا) قرب الوابور، وكان الكارا سجناً مؤقتاً يحبس فيه الحمار حتي يأتي صاحبه ويدفع الغرامة فيُطلق سراح الحمار . وكان الحمار يشارك الناس إحتفالات الأعياد، فقد كانوا يتسابقون علي ظهور الحمير، يركبون الحمار بالمقلوب، يجلسون علي عكس إتجاه سير الحمار، فينطلق بهم وهو يقبضه من لعب الأطفال الذي كان يمارسه الكبار. ولأن جد الحمار المعروف حالياً هو (الحمار النوبي) حسب كتاب (كلتون

بروك) (التاريخ الطبيعي للحيوانات الأليفة)، فهو يعتبر جزء من التراث، لذلك فلنتوقف عنده قليلاً ، ولنورد هذه الفقرة عن الحمير .

تقدر منظمة الفاو عدد الحمير في العالم اليوم بـ (44) مليون حمار، وأكثر الدول امتلاكاً للحمير هي الصين، ثم الحبشة، ثم المكسيك، أما السودان، وللعجب، فغير مذكور، وكنت اعتقد أننا بلد (حمير)، ولكن والحمد لله، وبشهادة الفاو، فإننا لسنا كذلك. وذكرت المنظمة أن المهام التي انيطت بالحمير تاريخياً، ومنذ 6000 سنة، هي نفسها إلى تاريخ اليوم، نقل الناس والأسفار، جر العربات، توليد البغال، حراسة الماشية، والترفيه عن الأطفال، وإعتماداً علي هذا التقرير، فحميرنا متخلفة، ولا تعرف مهامها الأساسية . فهي لا تلد البغال، ولا تحرس الماشية، ولا ترفقه عن الأطفال، وقد فكرتُ،

بعد قراءة التقرير، أن اذهب إلى الصين أو المكسيك. واشحن من هناك، إلى السودان، عدد كبير من الحمير المدربة



علي الترفيه عن الأطفال . فأطفالنا المساكين في السودان لا يجدون من يرفه عنهم . فالكل مشغول عن الأطفال بما هو أهم . أبناء ومدرسين وحكومات . مشغولون بالتنمية والمستقبل الذي في رأيهم لا يتضمن الأطفال. وكأن الأطفال لا علاقة لهم بالمستقبل. رغم أنهم هم المستقبل كله . ربما قامت حمير الصين أو المكسيك بمهمة الترفيه . وقال التقرير ان عمر الحمار في البلدان الغربية، يتراوح ما بين 35 الي 40 سنة. بينما في الشرق الأوسط لا يتجاوز سبع سنوات، حتي الحمير عندنا لا نستطيع ان نعيش كثيراً، وكما قلت في مكان آخر فقد كنا نشرب لبن الحمارة كعلاج أخير لمرض الـ (كدكود)، وهو الكحة المزمنة (السعال الديكي) التي تصل مراحل صعبة جداً ولا يجدي معها أي دواء، وقد ثبت الآن ان لبن الحمير يحتوي علي مواد غذائية مفيدة جداً، وقد إكتشف بعض الخبراء الصينيين إمكانية الإستفادة من جلود الحمير إقتصادياً ، كما أنهم أثبتوا أنه يمكن استخلاص بعض العقاقير والمنشطات الجنسية منها . ويقال ان الملكة كليلوباترا كانت تحرص علي استعمال لبن الحمير، لتفتيح بشرتها، والحفاظ علي نضارة وجهها. ثم ظهر الآن في بعض أسواق أوروبا (جبنة الحمير) وهي أغلى أنواع الجبن في العالم.

اما في مصر أم الدنيا، وارض العجائب، فهناك حتي من الحمير شعراء ساخرون، انظروا الي هذه القصيدة الحمارية الدارجية الساخرة:-

عجبي يا ابن آدم، قَوِّمَتِ الدنيا لم قالو لك حمار

هو إسمي شتيمة؟، ولأ أنا جنسي ده عار

عايش في حالي متربي ولينا افكار

باكل وبشرب وبنهق وبجامع، ومافيش أسرار

وعندي ابن آدم يخدمني، ليل ونهار

إن جعت يشتري برسيمي بأغلي الأسعار

خادم امين من غير راتب ولا حتي إيجار

الحين عرفت يا ابن آدم مين فينا حمار؟

اما امير الشعراء شوقي فقد كان قاسياً علي الحمير، وانا اعتقد انه لم يكن يقصد الحمار الحيوان، بقدر ما كان

يقصد الأغبياء، الثقلاء من بني آدم، عندما قال:-

سقط الحمار من السفينة في الدجي :: فبكي الرفاق لفقده وترحموا

حتي اذا طلع النهار أتت به :: نحو السفينة موجة تتقدم

قالت خذوه كما اتاني سالماً :: لم أبتلعه لأنه لا يعضم

ويقال أن أول رواية في التاريخ هي (الحمار الذهبي) للروائي لوكيوس أبوليوس في القرن الثاني الميلادي، وكان الحمار

هو الراوي، وهناك كتاب حمار بوريدان، لكاتب ألماني، عن تجربة قام بها جان بوريدان عميد جامعة السوربون،

حول سلامة الإختيار الحر عند الحيوان، أما في كتاب جورج أرويل (مزرعة الحيوانات) فالحمار لا يضحك ابداً، لأنه

ما من سبب في الدنيا يدعو الي الضحك، وهناك اديب اسباني فاز بجائزة نوبل للأدب عام 56 له كتاب اسمه (الحمار ذو اللون الفضي) ، أما عربياً فهناك حمار الشيخ الذي وقف في العقبة، وكثير من الشيوخ تقف حميرهم في عقيات الأسئلة، ثم هناك حمار الحكيم، وحماري قال لي، وحماري وعصاي والآخرين، لتوفيق الحكيم ، والحمار يلعب دور كبير في أدب توفيق الحكيم ، وهو قد كُتب أكثر من ثلاثة كُتب القاسم المشترك بينها هو الحمار، واتخذ من الحمار شريكاً له في النقاش وتوضيح الأمور لمن إحتاج للتوضيح من الأدميين، وهم كثر، ويروي الحكيم أنه سأل حمارة ذات يوم عن الفرق بين معشر الحمير ومعشر الأدميين؟ وأجاب الحمار: وجدت أن الفرق الأساسي بيننا وبينكم هو أنكم تعرفون النفاق، ونحن لا نعرفه، وقد عللت نفسي ومنيتها بحلم جميل هو أن تعلمني النفاق لأنه لو أمكنني تعلم النفاق وإدخاله في فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم. أما إجتماعياً فقد قامت مدينة (بلاكبول الساحلية شمال غربي إنجلترا) بتطبيق قواعد صارمة للحفاظ على الحمير، إحداها ألا تتجاوز أيام عمل الحمارة ستة أيام في الأسبوع، ما بين العاشرة صباحاً وحتى السابعة مساءً ، تتخللها ساعة راحة يومياً لتناول وجبة الغداء، علاوة على إجراء اختبارات صحية إلزامية قبل بدء موسم الصيف ، والحمار هو شعار الحزب الديمقراطي الأمريكي كناية عن الصبر ، وفي التقويم الجمهوري الفرنسي، يعتبر يوم 6 أكتوبر من كل عام هو يوم الحمار. وعلى عكس الصورة الشائعة عنه يثبت العلم والواقع: أن الحمار حيوان ذكي، يتعلم ويفهم، ويتحمل الإنسان بكل ظلمه وحقايقه، والحمار مذكور في مخطوطات كثيرة، منها ما قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى عن الحمار: الحمار جمعه حمير وأحمره وربما قالوا: لأتان حمارة، وتصغيره حُمَيْر، وكنية الحمار أبو صابر وأبو زياد.

قال الشاعر: زياداً لست أدري من أبوه :: ولكن الحمار أبو زياد

وقال: يقال للحمارة أم نافع، وأم تولب، وأم جحش، وأم وهب ، كما يوصف بحدة السمع ، وصوت الحمار هو الـهَيْهَيْ، والذي هو أنكر الأصوات ، فإذا كَرَّرَ هَيْهَيْه واشتدَّ قيل: أخذَه الهَيْهَيْ.

وفي الفكاهة فقد كان لجحا حمار لا يفارقه، وحدث ان جاءه رجلٌ ذات يوم وطلب منه أن يعيره الحمار فقال له جحا: الحمار غير موجود الآن

فنهق الحمار وقال الرجل: وهذا ؟!

فأجابه جحا : أتكذّبي وتصدّق الحمار؟!

أما بشار بن برد، الشاعر المجيد، وصاحب الروح المرحّة، والدعابة الذكية، وهو شاعر أحبه كثيراً، فقد مات له حمار، فلمّا زاره أصدقاؤه للعزاء، أظهر لهم أنه معمود محزون، فآلحوا عليه في السؤال يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمّه، فقال لهم: إنني رأيت حلماً مزعجاً، رأيت حماري في النّوم، فقلت له: ويلك! مالك مت؟. قال: إنك



ركبتني يوم كذا، فمررنا على باب الأصهباني، فرأيت أتاناً (أنثى الحمار) عند بابه، فعشقتها فميت. وزعم بشار أن حماره أنشده المقطوعة التالية:-

سَيَدِي مِلْ بَعْنَانِي نَحْوَ بَابِ الْأَصْهَبَانِي

إِنْ بِالْبَابِ أَتَانَا فَضَلَّتْ كُلُّ أَتَانِي

تَيْمَتْنِي يَوْمَ رُحْنَا بِلُنَايَاهَا الْجَسَانِي

تَيْمَتْنِي بَيْنَانِي وَبَدَلْ قَدْ شَجَانِي

وَبُخْسِنِي وَدَلَالِي مَلَّ جِسْمِي وَبِرَانِي

وَلَهَا خَدَّ أَسِيلٍ مِثْلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِي

فِيهَا مِثْ وَلَوْ عِشْتُ إِذَا طَالَ هَوَانِي

فَقَالَ لَهُ أَحَدُ جَلْسَانِهِ: مَا الشَّيْفَرَانِ؟!

قال: ما يُدْرِي؟! هذا من غريب الحمر. فإذا لقيتم حماراً فسالوه.

كان هناك حلاق الحمير الذي يأتي إلى الجزيرة فيبادر بعض الناس إلى حلاقة حميرهم وتزيينها.



في هذا الجزء سوف أحاول إيراد سيرة بعض الشخصيات في بدين ممن لم أذكرهم في ثنايا الكتاب ، وكما قلت في المقدمة، فلا يمكن ذكر كل الشخصيات مستحقة الذكر، إلا أن بعضهم كانوا أكثر شهرة وتأثيراً في تاريخ الجزيرة، ومنهم من كان له تأثير كبير علي تاريخ السودان، والسيرة الأولى سيرة رجل معروف علي نطاق السودان ، هو أحد أبناء السودان الذين أثروا علي مجريات الأمور فيه ، تقلد مناصب أساسية في الدولة ، إتخذ قرارات مصيرية ، سن قوانين تمس حياة المواطنين في كل بيت ، إقترب وابتعد من الأنظمة بدهاء كبير ، كان من أوائل رجال الأعمال الذين أسسوا شركات خاصة ما زالت تعمل في

الساحة الإقتصادية ، حيث أسس الشركة السودانية للتأمين وإعادة التأمين المحدودة ، هو السيد عز الدين السيد محمد، وقد وجدت تعريف ضاف لسيرته الذاتية في موقع المجلس الوطني (parliament.gov.sd) ، وحسب ما جاء في الموقع فقد درس في جامعة بيروت وجامعة لندن ، نال عضوية الجمعية التأسيسية الأولى عام 1965 ، كان أول وزير للصناعة والتعدين عام 1966 ، ثم وزيراً للتجارة والتموين ، عضو مجلس الشعب الأول عام 1973 م ، ثم تقلد عدة مناصب مهمة في مجلس الشعب والإتحاد الإشتراكي السوداني ، ترأس عدة مجالس في مواقع مختلفة ، شارك في عدة مؤتمرات خارجية ، نال أكثر من دكتوراة فخرية من مؤسسات تعليمية ، نال عدة أوسمة في السودان وخارج السودان.

الشريف محمد صالح عيمر



ولد في جزيرة بدين عام 1932م، تخرج في كلية الحقوق (القانون) قسم الشريعة بجامعة الخرطوم في الأول من ابريل 1959 م حيث تم استيعابه معيداً بكلية الحقوق. تم إبتعاثه لجامعة لندن (School of Oriental & African Studies) حيث حصل علي درجة الماجستير في القانون في 24 أكتوبر 1961م.

إنضم لجماعة الإخوان المسلمين اثناء دراسته بالمرحلة الثانوية. تم اختياره في وزارة سر الختم الخليفة وزيراً للثروة الحيوانية في حكومة ثورة أكتوبر 1964م ، التي خلفت حكومة الفريق إبراهيم عبود، حيث كان ممثلاً لجهة الميثاق الإسلامي، استقال لاحقاً من وظيفته كمحاضر بجامعة الخرطوم والتحق بالمقاومة الفلسطينية

الجناح العسكري لحركة فتح، رجع الي السودان في عام 1969 ، بعد وصول جعفر نميري الي السلطة بإنقلاب عسكري.

هو من رموز الحركة الإسلامية في السودان، من جيل الطاهرين المتطهرين، حاول الكثيرون من الإسلاميين محو سيرته من الذاكرة التنظيمية، لأنه يرمز الى بيوريتانية/ تطهيرة تجعلهم يحسون بالذنب، كما قال الأستاذ جعفر عباس، والأستاذ جعفر هو ابن خال الشهيد، وهو خير من يكتب عنه، وأنا سوف أكتفي بإيراد حديث الأستاذ عنه: ((اسمه بالكامل محمد صالح عمر محمد الأمين احمد تاقى.. ولد في قرية خميس إني بجزيرة بدين و((كي كلمة نوبية تعني «دار» وتطلق هي و(مار) على الأحياء السكنية، ولكنه كان يُنادى على الدوام «شيخ صالح» وعاش ومات مؤكدا انه كان شيخا صالحا.. أبوه أيضا كان يحمل اسم «شيخ عمر» وكان من بين نحو ثمانية أشخاص من أبناء جيله في بدين يحسنون القراءة والكتابة.. عمل شيخ عمر لسنوات طويلة في مصر لتوفير القوت لعياله: شيخ صالح وحسن وعبد الرحيم وصالح وأمنة.. أم شيخ صالح هي فرحين سيد أحمد شقيقة والذي .. كان أخوه صلاح في نفس عمري تقريبا.. كان يلعب معنا في بيتنا ونحن صغار، ولما غربت الشمس عاد الى بيت العائلة في خميس إني، وبعد نحو نصف ساعة سمعنا العويل: صلاح مات بلدغة عقرب.. وهكذا وإلى يومنا هذا لازمني الخوف المرضي (فوبيا) من العقارب.. وطوال سنوات إقامتي في بدين لم أتعرض لللدغة عقرب بينما كان متوسط دخل الفرد من اللدغات نحو ثلاث في السنة، وكنت أحرص على نحو خاص على تفادي لدغة مقرين سفد (عقرب المغارب) داكن اللون الذي لا يمهلك طويلا.

انتقل شيخ صالح من بدين الأولية الى القوئل الوسطى وكان أول دفعته في امتحان الانتقال الى المرحلة الثانوية على مستوى القطر، ونال جائزة الملك فاروق، ومنها الى وادي سيدنا الثانوية حيث زامل فاروق حمدنا الله ومأمون عوض أبوزيد (وكانا المهندسين الحقيقيين لانقلاب مايو 1969).. ومن هناك إلى جامعة الخرطوم.. كان بإمكان شيخ/ محمد صالح دخول الطب او الهندسة او العلوم، ولكنه قرر دراسة الشريعة لأنه كان قد قرر تكريس عمره كله للنضال لإقامة نظام إسلامي في السودان.. وكان وزيرا في حكومة ثورة أكتوبر الأولى.. وكان شوكة حوت في حلق الدكتور الترابي وبعض قيادات جبهة الميثاق الإسلامي.. ورغم أنني عشت في كنفه حينما من الدهر وعاش هو في بيتنا لفترات متقطعة خلال الإجازات المدرسية، ورغم أنه كان شديد البر بأهله ويعرص على زياراتهم على نحو منتظم، وبالتالي تعهدني بالرعاية والحب، إلا أنني أتحدى من يقول إن محمد صالح جاهر بخصوماته التنظيمية خارج التنظيم.. وترك الجامعة وانضم الى الفدائيين الفلسطينيين وحارب معهم في الأردن والضفة الغربية، وعندما قام إنقلاب مايو تسلل إلى الجزيرة أبا ومعه بعض الإسلاميين وتحالف مع السيد الهادي المهدي للشرع في عمل مسلح ضد حكومة نميري، ولكن الحكومة أخذت علما بالمخطط، وهاجمت أبا بطائرات الميج والدبابات واستشهد محمد صالح بالقرب من محلج ربك.

لم يكن محمد صالح من النوع الذي يسعى لـ (تجنيد) كل من هو قريب منه، بل كان في حياته الخاصة يحب الونسه وصاحب نكتة.. تجده جالسا في مغيز محمد عبد العزيز في سوق بحري ومعه ابراهيم محمد افندي ومحمد الحسن كمبال وغيرهما فلا تسمع منهم كلمة واحدة باللغة العربية، بل يكاد كل كلامهم يكون ققهقات متصلة.. لم يخاطبني

قط في أمر سياسي، وكان والدنا يزجنا كلما وجدنا نمارس اللعب بالورق/ الكشتينة: شيخ صالح كان يقوم ويرقد طول اليوم وفي يده كتاب.. وهكذا صرنا أنا وإخوتي عابدين ومحجوب مولعين بالكتب حتى نحظى بالمكانة التي حظي به شيخ صالح في قلب والدي.

وبعد أحداث أبا ظلت السيدة الفاضلة إحسان أرملته تلهث من مسؤول الى آخر لاسترداد شهادات ميلاد عيالها حتى لا تفوت السنة الدراسية على «سلمى»، وساعدني صلاح محمود مدير مكتب وزير الداخلية فاروق حمدنا الله على مقابلته وشرحت له الأمر فأمر على الفور برد الشهادات الى إحسان وقال لي - والله على ما أقول شهيد: قابلت محمد صالح في بيروت وأعطيته الأمان ليعود أستاذا في الجامعة بشرط عدم ممارسة السياسة فقال لي: ما عندي شغلة غير أسقط حكومتكم.. وأضاف حمدنا الله: لو كان عندنا خمسة اشتراكيين من نوع محمد صالح لبقينا في الحكم الى يوم القيامة!! والفضل ما شهدت به الأعداء.

والده عمر محمد الأمين (وكانوا ينادونه شيخ عمر) كان حسن التعليم ومتدينا و"دوغري" وكان من قلة في بدين تقضي وقت فراغها في القراءة، من أخوته عبد الرحيم عمر الذي توفي في حادث سيارة اليم في الرياض في مطلع الثمانينات، كان عبد الرحيم قاضيا شرعيا على خلق رفيع، كنا زملاء منذ ما قبل المدرسة حتى جامعة الخرطوم ولم اسمعه يوما ما ينطق بكلمة نابية او لفظ جارح وحتى عندما كنا صغارا لم يكن يمارس الشيطنة المعتادة مثل سرقة البطيخ وعيش الريف، وحسن عمر يقيم الآن بالعاصمة بعد اغتراب طويل في السعودية ولديهم اخت واحدة هي (أمنة) إنتهي كلام الأستاذ جعفر، وعندما توفي مولانا القاضي عبد الرحيم عمر كنت أنا في الرياض في ذلك الوقت، وما زلت أذكر موقع الحادث، كان الحادث الأليم في ثاني أيام العيد. وكان الراحل صائما، وكان في طريقه الى الجمعية لملاقاة إخوته أبناء بدين، ولكنه لاقى خيرا منهم، إذ لاقى ربه، له الرحمة والمغفرة.

عبد القادر أحمد همت



(يبدو الحاج عبد القادر في الصورة مع عمدة مدينة فلدفيا في ولاية بنسلفانيا الأمريكية ، وهي المدينة الأثيرة للكثيرين من أبناء بدين المقيمين بأمريكا ، وهي مدينة في غالبا شعبية لا يحس فيها المرء بكبير فارق بينها وبين الخرطوم ، وأبناء بدين في (فلي) كما يدلعونها ، أصبحوا وكانهم من السكان الأصليين ، يتحدثون مثل أهلها ويمشون في أسواقها ويتجولون في شوارعها وكأنها ضاحية من ضواحي ملتقى النيلين ، تجدهم في أماكن العمل يتحدثون مع بعضهم بالنوبية ،

يمتلكون البيوت ويمارسون أعمالهم الخاصة ، لهم في المدينة صولات وجولات في شتى مناحي الحياة ، تذهب إليهم فيحتفلون بك في كرم حاتمي حميم. هناك

يعيش الحاج مع أحفاده أبناء ابنه هشام ، وهشام يشغل وظيفة هندسية مرموقة في بلدية فلدفيا.)

ولد الحاج عبدالقادر بجزيرة بدين في العام 1940 ، تلقى تعليمه الأولي في مدرسة بدين الأولية التي التحق بها في العام 1948 ، وكان منتظماً في خلوة الشيخ حاج فرحان، وكان الناس في ذلك الوقت لا يحذون إرسال ابنائهم الى المدارس، كانوا يرسلونهم الى الخلاوي، منها خلوة الشيخ حاج فرحان، وبعد إنشاء المدرسة جاء المفتش الإنجليزي، ودرّس الوضع، وبدهاء المستعمر، عين الشيخ حاج فرحان مدرساً للدين في المدرسة ، حتي يرسل الناس أبناءهم الى المدرسة، وقد كان، فذهب الكثيرون الى المدرسة ، وتوقف التعليم في الخلوة علي أيام الجمعة، إكتسب عبدالقادر من روحانيات الشيخ الكبير ما صبغت نفسه وقلبه بإيمان نبيل، ونزاهة في القول والفعل، والحديث عن الشيخ حاج فرحان محبب الي نفسه، ومما حكاه أن الشيخ كان يشرب الشاي ببراد أصغر صغير، وكان هذا البراد الصغير يكفي كل الحيران، وكانت له حاسة غريبة بوجود ما يضر بالقرب من الخلوة، فكان مرات يقف فجأة ويطلب الأبريق، ثم يخرج ويصب الماء علي حجر معين فتخرج عقربة فيقتلها ويعود، وكان في المدرسة في حصة الدين عندما يأتي المفتش الإنجليزي يطلب من التلاميذ قراءة سورة (الكافرون) قل يا أيها الكافرون، الي آخر السورة، وإذا حدث أن صافحه المفتش كان يخرج سريعا من الفصل ويمسح يديه بالتراب ويغسلها بالماء، والمفتش ينظر ويبتسم.

في العام 1952 إنتقل عبدالقادر إلي وادي حلفا للإلتحاق بمدرسة حلفا الأميرية الوسطي، وكان معه 11 طالبا من بدين، منهم أرصد أحمد، عوض إبراهيم، عثمان قرشوم، خيرى ملجاب، كمال محمد أفندي وسعيد محمد سيد احمد وآخرون. وكان في حلفا مدرستان، الأميرية والأهلية، يذهب الطلبة من المناطق المختلفة للإمتحان والمنافسة في المدرستين، وفي تلك السنة كان عدد الطلبة المتنافسين 360 طالباً، يقبل منهم أولاً 42 طالب في الأميرية وهي مجانية، ثم 42 في الأهلية وفيها رسوم، وعلي بقية الطلبة العودة أو الذهاب للمنافسة في مدارس أخرى، وكان ترتيب عبدالقادر هو 28 من الـ 360، وكان المفروض أن يقبل في الأميرية، ولكن حدثت مؤامرة من تجار حلفا وبالإتفاق مع المفتش الإنجليزي أكملوا العدد المطلوب في الأميرية من ابنائهم، وقيل هو في الأهلية، وكان مبلغ الرسوم 150 قرشاً، وما أن إنتظمت الدراسة في المدرسة حتي جاءه عرض(مغري) من مصر للسفر إليها والدراسة هناك، فمرة، وهو في الفصل ناداه الناظر وقال له أن إخوانك في مصر يريدون منك السفر لمواصلة الدراسة هناك، فإحتار في الأمر وشاور زملاءه، هو يريد المواصلة في حلفا ولكن مصر بدت مغربة، وفهم الناظر أنه سوف يسافر فقبل طالبا آخر في الداخلية بدلاً منه ، ولما عاد الي الناظر وقال له أنه ربما يواصل قال له الناظر أن فرصته في الداخلية ضاعت وأنه يمكن أن يواصل خارجي، وقد عرض عليه الإخوان إدريس يدوي وعوض بدوي السكن معهم في البيت، وهم من أبناء المحس الذين تربوا مع عبدالقادر في بدين، ولكن في النهاية قرر السفر الي مصر، وكان الطلبة في الفصل، ومن الشباك ودعهم وقال لهم أنه مسافر، وفي الميناء وجد العم سعيد هاشم الذي إشتري له تذكرة بـ (7 قروش) الي الشلال ثم من هناك الي القاهرة، ولم تكن جوازات السفر مطلوبة، بل كان السودانيون يذهبون الي مصر بدون اي أوراق ثبوتية، وثاني يوم وصوله الي القاهرة قامت الثورة، أنقلب جمال عبدالناصر، كان إخوانه وأبناء عمومته في

الأسكندرية، فسافر الي هناك. ونافس في مدرسة ثانوية مع 800 طالب، وكان ترتيبه الأول في الـ 800 ، ولكن ما أن إنتظمت الدراسة حتي تم قفل المدرسة من قبل الثورة بإعتبارها مدرسة برجوازية، فعاد عبدالقادر الي القاهرة للإلتحاق بالآزهر. وكان بالآزهر في ذلك الوقت عدد كبير من أبناء بدين، حوالي 42 طالباً. منهم: محمد عثمان موسي، الذي عمل في وزارة التربية والتعليم في السودان، قسم المناهج المدرسية، وكان له كتاب شرح لمعلقة عنتره التي درسناها في الثانوية العامة، ومحمد علي موسي، ومحمد الحسن موسي، ومحمد حسنين، والطاهر سيد ترجمان، وعبدالرازق عبدالودود، وعبدالمجيد عبدالرحمن، الذي عمل مديراً زراعياً في عسلاية، وعمسيب محمد فضل، وفضل عكاشة، وعبدالماجد خليل ، وإبراهيم حسن وآخرون.

وبينما كان عبدالقادر يدرس في الأزهر إلتحق بمدرسة عابدين الإعدادية الليلية، ثم في العام 1955 إلتحق بثانوية (مسائية) وفي 1957 سمح للطلبة السودانيين بالتحول الي المدارس الأكاديمية، فإلتحق بالثانوية التجارية ومعه الطاهر سيدأحمد، وإلتحق عمسيب بقسم الكهرباء، وعبدالمجيد بالقسم الزراعي، وكانت المنحة الحكومية للطلاب السوداني في ذلك الوقت 8 جنيهات من الحكومة المصرية، وفي العام 1960 تحصل علي دبلوم التجارة الثانوية، وكان مع الدراسة يمارس الرياضة، وبين عامي 57 و 1960 تحصل علي بطولة جمهورية مصر للملاكمة للمدارس الثانوية (وزن الريشة) وأيضاً علي بطولة الجمهورية في ألعاب القوى في الجري مسافات طويلة ومتوسطة، ثم إنضم الي الفريق القومي المصري مع أعضاء النادي الأهلي، وفي 1960 تقرر أن يسافر الفريق القومي الي روما للأولمبياد ، فاستخرجوا له بطاقة بإعتباره من مواليد أسوان، وكان خط سير الرحلة الي سوريا ثم الي ألمانيا ثم من هناك الي روما، ويوم السفر وبعد الصعود إلي الطائرة وبعد أن شحنت شنتطه الي روما ، أنزلوه وقالوا له لا بد من إستخراج جواز سفر، ولا بد له من الجنسية المصرية، وكلفوا ضابطاً ليأخذه في اليوم التالي الي المجمع لإستخراج الجنسية والجواز ثم اللحاق بالفريق في سوريا مع الضابط ، فتردد، ثم شاور إخوانه في الجمعية والنادي السوداني، فقالوا له (إذا اتجنست مصري ثاني ما تعتب الجمعية والنادي) فقد كان التجنس بجنسية أخرى في ذلك الوقت عيباً ومرفوضاً، بالذات الجنسية المصرية، وفي صباح اليوم الثاني وهم في القهوة رأي الضابط المكلف قادماً، فأخْتبأ في الحمام، وجاء الضابط يبحث عنه، ويسال السودانييين (يا قماعة ما شفتوش عبدالآدر، بتاع الملاكمة، حيكون راح فين يعني ، يخرب بيته، ده حيطلعي من السفر، لأزم تجيبو من تحت طأطيق الأرض)، وفي اليوم التالي والضابط يبحث عنه سافر عبدالقادر وهرب الي السودان، وصل الخرطوم في اغسطس 1960 ، وذهب الي طلعت فريد وزير الإعلام في حكومة عبود، وكان بينهم معرفة، فطلب منه طلعت السفر إلي مدني مسئولاً عن الإعلام الرياضي هناك، وفي اليوم التالي وبينما هو وجمعة خليلي ذاهبان الي وزارة الإعلام، توقف في البنك العربي لتقديم إستمارة طلب وظيفة، وكان المدير أردنياً، وبعد مقابلة قصيرة أرسله لموظف حلقاوي إسمه حافظ البارودي، فأجلسوه الي طاولة وسلموه الشغل فوراً، قبدأ العمل، وبعد أكثر من ساعة تذكر أن جمعة خليلي ينتظره في الخارج، فذهب وقال له (إنت ممكن تمشي، أنا إشتغلت)، ثم ذهب الي طلعت فريد وأعتذر عن السفر الي مدني بحجة الوظيفة في البنك،

فطلبوا منه تدريب الملاكمة وألعاب القوى في الفريق القومي. ثم تقرر أن يسافر الفريق القومي إلى الرباط في الدورة العربية. فرفض البنك ، فقامت (شركة) بين البنك والوزارة. وتعاملت الوزارة بأسلوب العساكر فرفض البنك وسمح له بالسفر، وفي الرباط ، ونتيجة الفساد والإستئثار الذي يصاحب المسؤولين السودانيين فقد تم إختلاس الميزانية المخصصة للاعبين ولم يتم تجهيزهم كما يجب، فقد زودوا فريق الجري للمسافات المتوسطة والطويلة بأحذية (باتا) الرخيصة والتي لا تناسب تلك الرياضة، فلم يتمكن اللاعبون من احراز أي نتيجة، وقد وصل بعض اللاعبين إلى نهاية الخط وهم حفايا بعد أن تمزقت تلك الأحذية الرخيصة، وعندما عاد الفريق قدم عبدالقادر إستقالته إحتجاجاً على ما حدث.

بينما هو يعمل في البنك العربي إلتحق بالقسم الليلي في المعهد الفني (جامعة السودان حالياً) . وفي 1967 تحصل علي الدبلوم العالي من معهد المصارف (الدفعة الثانية في المعهد). وفي 1971 كان مقرراً أن يسافر إلى لندن من قسم المحاسبين القانونيين ولكن صدر قرار جمهوري بمنع السفر. في 1973 إنتقل إلى بنك النيلين فرع الأمم المتحدة، وبعد التدرج في وظائف إدارة البنك. وفي 1981 أنتدب لمدة 4 سنوات لتأسيس بنك التنمية الشعبية، حيث تم تأسيس 4 فروع.

في 1988 أنتدب مرة أخرى لتأسيس بنك العمال. ولا تسمح القوانين بإنتداب الموظف الحكومي مرتين. ولكن تدخل د. بشير عمر وزير المالية في ذلك الوقت واستعمل حق الوزير في إنتداب عبدالقادر مرتين. فأسس البنك وعمل مديراً حتي 1993 . وبعد مجابهة بينه وبين بعض الإسلاميين أحيل إلى المعاش.

في نفس العام 1993 سمع من الإذاعة وبصوت رنلس الجمهورية عمر البشير تعيينه مديراً عاماً للإتحاد التعاوني لولاية الخرطوم، وفي صباح اليوم الثاني سافر إلى بدين تهرباً من الوظيفة، فأرسل إليه يوسف عبدالفتاح نائب الوالي ومسئول الحركة التعاونية في الولاية مذكرة صغيرة تقول(ممكن تقعد هناك سنة لكن حتي نستلم التعاون). فعاد وذهب إلى اللواء الزبير نائب رئيس الجمهورية، فأفهمه الزبير أن هذا القرار تكليف ولا بد له من التنفيذ، فاستفسر عبدالقادر عن المدة، فقال له الزبير بالأشكر (سنة دج بتيقي) يعني حثقتد خمسة سنين، فذهب إلى يوسف عبدالفتاح. وكان يوسف يعرف رأي عبدالقادر في إدارة التعاون التي كان يهاجم فيها الفساد، فقال له يوسف أنه تم تعيينه حتي يعارب الفساد، فأشترط هو تطبيق شروط البنوك التجارية في التعاون، فلم يمانع يوسف، وفور إستلامه العمل إجتمع ببعض الموظفين وطلب منهم الذهاب إلى 3 بنوك وإحضار شروط العمل فيها. وخلال 48 ساعة تم تعديل شروط العمل فتمتع الموظفون بكل إمتيازات موظفي البنوك، وكان كل ذلك حافزاً لهم للإلتزام الكامل بمواعيد العمل وترك التسبب، وأخذ الإتحاد التعاوني في تطور لا مثيل له، وتم استيراد عدد من المطاحن من الصين، ثم مصانع زيوت ومصانع صابون وجراكن وأفران آلية من تركيا، وكان ذلك بداية التبادل التجاري الكبير بين تركيا والسودان، فقد مهد له هو بصفقة المصانع، وأصبح الإتحاد التعاوني أحد أنجح المؤسسات في الدولة. ولكن (السوس) الذي يصيب كل نجاح زحف علي التعاون، فقد تأمر اصحاب العمل وإتحاد الصناعات

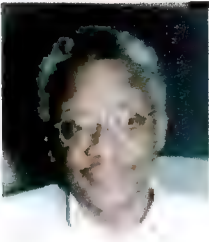
علي هذا النجاح، فجاء توجيهه من أمانة التنظيم الي عبدالقادر بقل هذه المصانع وشراء المواد من مصانع التجار وتوزيعها علي التعاونيات، بحجة أن التجار شريحة لا يمكن الإستغناء عنها وعن دعمها، وهكذا أجهض ذلك النجاح الإقتصادي الكبير، وقد تطورت المواجهة بينه وبين الجهات الفاعلة في الدولة وتم قفل المطاحن والمصانع التي تحولت الي خرابات ينعق فيها اليوم ، وتقف شاهدة علي الفساد الجائر، وهكذا قدم عبدالقادر إستقالته من التعاون، حتي معاشه الرسمي من البنك (ومعه آخرون) توقف عندما باعوا البنوك، وقد رفعوا دعوي أمام المحاكم وكسبوها، ولكن رأي محافظ بنك السودان أنه أكبر من القضاء فرفض تنفيذ قرار المحكمة، وهكذا ترك كل شئ وتفرغ لرعاية أبناءه وأحفاده، ألا أبقاه الله لهم وأبقاهم له.

محمد شريف فضل حاكم

وهذه سيرة شخصية أخرى من بدين، هو السيد / محمد شريف فضل حاكم، وهو من مواليد 1940 ميلادية، تلقي تعليمه الأولي في مدرسة بدين الأولية، ثم أرقو الوسطي والتي عمل فيها السيد عزالدين السيد معلماً، وربما درس السيد محمد شريف، ثم إنتقل السيد محمد شريف الي مدرسة وادي سيدنا الثانوية، حيث بدأ نشاطه السياسي في تلك المرحلة منضمّاً الي حزب الأمة، إلتحق بكلية الآداب جامعة الخرطوم، وكان من الطلاب النشطين تحت راية حزب الأمة في إتحاد الطلبة، وكان من الذين شاركوا في القيادة الطلابية التي ساهمت في إسقاط نظام عبود العسكري، تخرج من الجامعة في العام 1968، بدأ حياته العملية ضابطاً إدارياً، وبعد المصالحة في 1977 مثل الضباط الإداريين في مجلس الشعب لدورتين من موقعه سكرتيراً للضباط الإداريين، بعد إنتفاضة أبريل 1985 ترشح في الدائرة 57 دنقلا الشمالية (ريفي أرقو والحفير)، ضد مرشح الجبهة الإسلامية د. عبدالوهاب عثمان وأستاذ علي محمود حستين مرشح الحزب الوطني الإتحادي، ولكن لم يحالفه الحظ حيث فاز مرشح الجبهة.

في العام 1987 نال ثقة رئيس حزب الإمة ورئيس الوزراء الصادق المهدي وعين نائباً لحاكم الإقليم الشمالي وإستمر في ذلك المنصب حتي تاريخ تشكيل حكومة الوفاق الوطني التي بموجبها دخلت الجبهة الإسلامية القومية السلطة. عرف عنه الوطنية الصادقة والإخلاص الشديد لحزبه ومبادئه ، وقد كان رحمه الله عفيفاً متواضعاً لم يفسده إغراءات السياسة والمناصب .

الأستاذ جعفر عباس (أبو الجعافر)



جعفر عباس سيد أحمد حاج شيخ موسى حاج ، وُلد في الخرطوم بحرى، في يوم ما في سنة ما من القرن الماضي ، وقد ضاع تاريخ الميلاد بين الخرطوم بحرى التي وُلد بها وجزيرة بدين التي إنتقل إليها في طفولته الباكرة مروراً بكوستى ، حتى إسمه تبدل من جعفر عباس إلى جعفر ايباس ، ثم تبدل مرة أخرى إلى إبي الجعافر في ظروف غامضة ، وأبو الجعافر يقول أنه يتذكر أن مولده الميمون كان في شهر سبتمبر، أما السنة ففيها

خلاف كبير بين المؤرخين ، إذ تعذر على الجميع تحديد العقد ، منهم من يقول أن ذلك كان قبل الثورة ، وليس من

الواضح إذا كانت الثورة المعنية هي الثورة المهدية أو ثورة اللواء الأبيض، وهناك من يقول أن مولده كان قبل الحرب . ولكن أيّ الحروب، يؤكد البعض أنها الحرب العالمية، ولكن الأولى أم الثانية . إن كانت الأولى ففي أي سنواتها . يقول البعض أن ذلك كان بعد دخول فرنسا الحرب وقبل دخول تركيا العثمانية . والبعض الآخر يؤكد أن أبا الجعافر ولد بعد انتهاء الحرب . غالباً أثناء أو بعد توقيع إتفاقية فرساي . وإذا كنا نعلم أن ذلك التوقيع كان في يونيو وأن مولد أبو الجعافر كان في سبتمبر، فذلك يعنى أنه ولد بعد الإتفاقية . يبقى علينا أن نبحث عن السنة التي تمت فيها الإتفاقية . وبذلك يتم إستبعاد أنه ولد بعد الحرب العالمية الثانية.

والده عباس سيداحمد ، من قرية فيدي في شياخة تُشى في جزيرة بدين ، تمرد على العمل الزراعى وقرر أن يلحق بشقيقه الأكبر الطيب في (بر مصر) كما كانوا يسمونها . وبعد عناء وعناء تمكن عباس من الوصول إلى الأسكندرية حيث أخيه . ولكن عباساً لم يهنأ بالمدينة البحرية المتوسطية المغربية . إذ قرر الطيب إرجاع عباس إلى بدين ليقوم بحراسة (العقاب) . وبدلاً من العودة إلى بدين وصل عباس عن طريق الخطأ المتعمد إلى الخرطوم بحرى . حيث أخذه القطار إلى هناك . كما أخذ مصطفى سعيد إلى محطة فكتوريا . ونجح عباس في الحصول على وظيفة بحار في بواخر مصلحة النقل النهري التي كانت تعرف باسم "الوابورات" .

بعد أن إستقر عباس سيداحمد في الخرطوم بحرى إستقدم زوجته أمنة فقير من بدين . وبعد ولادة إبنهم جعفر عادت الأم مع أطفالها إلى بدين بعد قضاء فترة وجيزة في كوستى التي كانوا قد إنتقلوا إليها بعد ولادة جعفر . وفي بدين إتحق جعفر بمدرسة بدين الأولية . وبدلاً من أن يواصل تعلم العربية فقد نسيا وتعلم النوبية . ثم إنتقل إلى المرحلة المتوسطة في البرقيق . حيث دخل في عشق غارم أو غرام معشوق مع اللغة الإنجليزية . التي أصبحت مادته المفضلة . وقد برز في الإنجليزية بقدر خيبته في الرياضيات . وبجانب الإنجليزية يقول أبو الجعافر أنه بدأ في حفظ الكثير من الشعر العربى . ومع احتفاء الناظر محمد بشير الأحمدى بتفوق أبو الجعافر في الإنجليزية إلا أنه أيضاً شجعه على إجادة اللغة العربية وخاصة الشعر العربى . ثم أهداه ديوانى الخمائل والجداول لإيليا أبو ماضي فقام أبو الجعافر بحفظ قصائد الديوانين . ثم حفظ بعض شعر المتنبى . (فطلع) هذا الشعر الكثير في رأسه . وسبب له حمى شعرية . فأعتقد جعفر أنه أصبح شاعراً . وهكذا إستدعى شيطان الشعر الذى نزل عليه في حصة اللغة العربية . فأخذ القلم وكتب في ورقة أمامه هذا البيت من الشعر (من نارك يا جاني == أنا طالب المطافي)

وفعلاً جاءت المطافي ولكن في شكل علقه لاطمة من مدرس اللغة العربية . فأجهض موهبة أبى الجعافر الشعرية في مهدها . وتحولت تلك الموهبة من الشعر إلى الكتابة الساخرة . فبلغ فيها أبو الجعافر شأواً عظيماً . ولبت مدرس اللغة العربية عاش ورأى تلميذه أين وصل.

والدته هي أمنة حامد شوكت (فقير بحرية) . من أسرة دينية عريقة . وهي أسرة معروفة في بدين . وما يزال مسجدهم العريق قائماً بجوار قرية الشيخ (فقير بحرية) .

من البرقيق الوسطى إنتقل جعفر إلى وادى سيدنا الثانوية ، ثم جامعة الخرطوم ، ثم بدأ حياته العملية أستاذاً للغة الإنجليزية في مدارس السودان ، ثم بدأ سنوات الغربة الطويلة ، وما زال يكافح (ليكون) نفسه كما يقول ، عمل في تلفزيون بي بي سي ، وبعد سلسلة وظائف أخرى انتقل الى قناة الجزيرة الفضائية حيث يعمل الآن في وظيفة مرموقة يسيل له لعباب الكثيرين ، ما زال ينشر مقالات يومية في عدد من الصحف الخليجية والسودانية ، سعى عموده الصحفي (زاوية منفرجة) ولكنها قليلاً إحتدت مع إحتداد الأحداث في العالم ، فأصبحت (زاوية حادة) وما لا يعرفه الكثيرون هو أنه الكاتب الساخر العربي الوحيد (رغم انه نوبي تعلم العربية في المدرسة كلغة أجنبية) الذي أدرج في قائمة الكُتّاب الساخرين من مختلف القارات منذ مطلع القرن التاسع عشر.

الزعيم عكاشة إدريس صالح



أما والدنا الزعيم عكاشة فرجل ولد بنزعة زعامية أصيلة، وطموح سياسي كبير، ولكن غلبته الأمية. كان ذو بنية برلمانية، ولو وجد فرصة تعليم لكان له شأن آخر. ترشح لعضوية البرلمان في أحد الإنتخابات ، ولكنه انسحب لصالح مرشح آخر ، وكانت داره منزلاً لكبار زوار الجزيرة، وفي بيته رأينا الدكتور محي الدين صابر بكدوسه الإنجليزي ونحن صغار. توفي الزعيم رحمه الله ولسان حاله يقول (أضاعوني وأي فتي أضاعوا)، رحل وترك كوكبة من أبناء بررة ذوي أيد حاتمية بيضاء، أفاض الله عليهم من فضله فتفضلوا به علي من احتاج من ذوي القربي والغرباء، وهو سعى نفسه

زعيماً بقولته الشهيرة {أنا زعيم شبة كما أن موسولي زعيم تشي } ، وله الكثير من الطرائف الخفيفة التي يرويها الشباب، ولأخي عبدالله فقير كثير من المواقف مع الزعيم. وقد جاءني هذا الحوار من حفيده محسن عبداللطيف، وهذا الحوار يمثل شخصية الزعيم في كثير من النواحي، وقد تحدث محسن مع جده في العالم الآخر، قال محسن: ((جدي الزعيم عكاشة حينما إتصلت به في عالم البرزخ وعرفته أن ود الشيخ فقير علي كتب عن جزيرتك بدين في المدونات العنكبوتية العالمية، قال: مين فهم؟ قلت محمد، قال: لا إن كان محمد معلش ... قال: ماذا كتب عن بدين ... قلت سرد تاريخي بأسلوب سلس ورائع، عن تاريخها وقصصها وأحجيتها... قال: قصصها عرفناه، أون أحجيتها ده شنو، أنت ياولد وماهتبطل فلهمك دا، ملعيش ياجدولة لسان .. قال: بعدين تعال أنت يا إبني أنت محمد فقير ده مش الكان عايز يهدم الكعبة الجنب الجامع حقنا .. قصدك القبه ياجدو ... قال: سبحانك يا دايم، آهن أنتو غيرتو أسمو ولا شنو ... قلت لا ياجدو دالك شيخ طويل. ياجدو محمد بيكتب كلام جميل عن بدين وشعر من عندو، وكلام من هنا وهناك، زي ناس الطيب صالح والفيتوري .. قال: الطيب صالح كان صحي ، وهو جانا هنا في الآخرة ، وجا سلم علي ، لكن الفيتوري ده ما عرفته، كان فوقه فايده كنت عرفته .. بعدين وين أخوهم الوستاني عبدالله؟ لسع بيحاكييني؟. قلت برضو هو في أمريكا ... قال: أمريكا أمريكا، إنتو هسح عارفين أمريكا يعني شنو؟ قول ليه يا أبني

يامحمد. بدين لومازرتها قريب... زرها ياولدي ، كلکم زورا بدين، إنتو الأقباب، نحن عملنا العلينا ولاقينا رب العزة والجللة. أنتو علیکم الباقي.))

الأستاذ سيد إدريس صالح شبر

ومرة أخرى أنک علي أحاديث الأستاذ جعفر عباس. لم یکن بمقدوري الكتابة عن سيد إدريس. لعدم معرفتي به. ولعدم وجود مصادر وثيقة توفر عنه أية معلومة، وهذا مقال كتبه أستاذنا جعفر في أحد أعداد جريدة الرأي العام، أورده هنا كما هو:

((کان مقالی الأخير عن صالح شبر، الذي يعتبر بحق أول داعية إسلامي في جزيرة بدين.. قد يغضب هذا الكلام بعض أفراد عائلتي التي تحمل لقب «فقير نسي» أي أحفاد الفقهاء (الذين اضطلعوا بتعليم القرآن وتعمير المساجد لعدة قرون)، فمنذ ان نال الدرجات العلمية الرفيعة في العلوم الدينية جعل صالح شغلته الشاغل نوعية الناس بأمور دينهم مع الانخراط في أمور دنياهم بالعمل معهم في الحقول وغيرها.لصالح هذا أخ يعيش الآن في الحاج يوسف، ويعاني من ويلات تعقيدات السكري واسمه سيد إدريس صالح شبر.. کان يسبقني في المدرسة الابتدائية بعام او اثنين. ولكننا كنا نتعامل معه ك «مدرس» فقد کان فارغ القوام وفصيحا يقول كلاما «كبيراً» بالعربية والرواثة.. کان ذكيا فطنا و«لايقو» وينشف ريق المدرسين بأسئلة صعبة لأنه لم یکن ببغاء مثلنا تردد كلام كتب الحكومة بلا نقاش.. ثم اختفى من شاشة راداري بعد ان التحق بمعهد التربية وصار مدرسا في المرحلة الابتدائية، والتفت به مجددا وأنا طالب بجامعة الخرطوم.. وما أدراك ما جامعة الخرطوم في ذلك الزمان.. کان من يتخرج منها يجد القبول للدراسات العليا في كيمبرج واوكسفورد وهارفارد بالميزكة وبلا حاجة الى انترفو او معادلة شهادة. وكنا نمارس الاستعلاء على الدارسين في الجامعات الأخرى أجنبية كانت ام محلية .. شخصا كنت اعتبر نفسي قارنا نهما لكل صنوف الكتب، ثم اكتشفت اني «ولا حاجة» مقارنة بسيد إدريس.. قرأ كل شيء من مقدمة ابن خلدون الى روايات هندي عوض الكريم (کان رجلا شاطرا يصدر كتابا يحمل كلمات الأغنيات الرائجة و.. بالمرّة يكتب قصة طويلة مسلسلّة بالاشتراك مع صديق له يدعى مصطفى الكضي)وبعد نحو 15 سنة في التدريس قرر الحصول على درجة جامعية وجلس لامتحان الشهادة ونجح بثقوى.. تذكر أنه خريج معهد تربية ينتج مدرسي المرحلة الابتدائية وبالتالي فحصلته من الانجليزية مثلا تحت الصفر بقليل. ولم یکن بمقدوره لاعتبارات مالية التفرغ للدراسة الجامعية. وهكذا التحق بكلية القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم حيث الدراسة مسانئة.. وطبعاً وزارة التربية تعجبك في النكد والتنقلات العشوائية للمعلمين.. بعد التسجيل في الجامعة وجد سيد شبر نفسه منقولاً الى مدرسة في دارفور. فاقترحنا عليه ان يستقيل من التدريس والتفرغ للدراسة مع البحث عن عمل آخر (وكانت الوظائف وقتها بالهبل لكل ذي جدارة)، ولكنه توجه الى دارفور وظل يأتي الى الخرطوم مع موعد الامتحانات الجامعية واكمل دراسته في اربع سنوات بتقدير ممتاز... ثم «عملها» مرة أخرى.. جلس لامتحان المعادلة ونجح على الفور.. هناك من تخرج في الجامعة قبل 30 سنة ولم ينجحوا في ذلك الامتحان الى يومنا هذا.. خذ في الاعتبار ان الامتحان كان بالانجليزية وسيد شبر كان شبه ماحي في تلك اللغة.

ولكن وبقوة الإرادة ولأنه ذكي بالفطرة فإن سيد صار «بلبل» في اللغة الانجليزية.. وكان جميع معارفه موقنين أنه لو دخل مجال المحاماة فسيصير ذا شنة ورنه وملايين خلال سنوات معدودة، ولكنه ركب رأسه الناشف وأعلن أنه لن يرضى بغير التدريس مهنة. كنت في أبو ظبي عندما تلقيت اتصالا هاتفيا من سيد إدريس من سلطنة عمان، وقال لي كلاما جعلني أحس بأنه متسلطن أي محشش، وبعدها بأيام وصلتني منه ملزمة ضخمة من الأوراق تتكلم عن «المنظور الاحتياطي».. قرأت الأوراق نحو ست مرات وأحسست بخلل في قواي العقلية.. سيد توصل الى شفرة لفك رموز الأحلام تمثل مفتاح علاج العديد من الاضطرابات النفسية مثل الفصام والهلوسة والبرانويا.. قابلت وأعرف عديدين تعافوا على يد ابو السيد.. المسألة ليست تخاريف، بل تقوم على معطيات متفق على معظمها في علم النفس الاكلينيكي، وقد اطلع سيد على كل ما كتبه فرويد والتجاني الماحي وغيرهما من عمالقة الطب النفسي... وبالمناسبة، لو أراد الله لك الهدلة فحاول ان تكافى سيد نقدا او عينا لأنه عالج قريبا لك.. وهناك أطباء نفسانيون مقتنعون تماما بجذوى المنظور الاحتياطي، ولكن مشكلة سيد أنه يخشى ان يطرح مفاتيح رموز الأحلام التي توصل اليها في منبر علي، فيسرقها منه بعضهم وينسبونها الى أنفسهم خاصة وأن سيد لا يحمل مؤهلا تقليديا معترفا به.. والأطباء يقولون: لا نستطيع ان ندلي برأي حاسم حول النظرية حتى يطرحها أمامنا بالكامل.. ويا عزيزي سيد اطل الله عمرك اطرح كل ما عندك عبر أي منبر تختار واعتبره هديتك لوطن تحبه وتحملت في سبيله شتى صنوف الهدلة.. احتسبها يا أخي فقد عشت طوال عمرك «مفلسا» لأنك كنت تمثيل هموم الآخرين ولن تزداد فقرا او غنى برفع القيد عن رموزك ومفاتيحها..))

محمد مجي الدين أحمد

تاريخ الميلاد: 1940 م . الولاية الشمالية . دنقلا . جزيرة بدين

المراحل الدراسية:

المرحلة الأولية: مدرسة بدين الشمالية بئين

الوسطي والثانوي: الأزهر الشريف

المرحلة الجامعية: كلية الإعلام . جامعة الأزهر الشريف

درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة اوليا نوفسك 1995

المراحل العملية:

مدير المطبعة الحكومية

مدير إدارة الطباعة والنشر بوزارة الثقافة والإعلام

عضو مجلس الشعب 1981 م

عضو المجلس الوطني دورة 1996 عن الدائرة 30 شرق النيل

مؤسس الجمعيات الخيرية بشرق النيل

مؤسس داخلية الطالبات بالخرطوم بحري

مؤسس نقاط بسط الأمن الشامل شرق النيل

مؤسس دور اللجان الشعبية شرق النيل

مؤسس مركز الأمومة والطفولة وتنظيم الأسرة

المدارس الإبتدائية التي اسمها:

1. مدرسة الفاروق بنين 2. مدرسة تاجوج بنات 3. مدرسة الزهراء بنات 4. مدرسة الإمتداد جنوب بنات

المدارس الثانوية التي أسسها:

1. مدرسة ود السانح الثانوية النموذجية بنات 2. مدرسة ودالسانح الثانوية بنين شمبات

3. مدرسة محمد محي الدين الثانوية النموذجية بنين (ود السانح الثانوية سابقاً)

من مؤسسي مستشفى البان جديد بشرق النيل

من مؤسسي مركز صحي الكمبوني بالحاج يوسف

من مؤسسي الأندية الرياضية والثقافية شرق النيل

من مؤسسي الأسواق المحلية شرق النيل

من مؤسسي نادي جمعية سلنارتي الخيرية بالخرطوم بحري

من مؤسسي نادي جمعية جزيرة بدين الخيرية بالخرطوم بحري

رئيس تحرير جريدة رايات العز

رئيس نادي الحاج يوسف

رئيس جمعية جزيرة بدين الخيرية

رئيس جمعية سلنارتي الخيرية

رئيس لجنة توزيع الأراضي السكنية لإمتداد الحاج يوسف

رئيس لجنة توزيع المشاريع الزراعية بمشرع ارقين بالولاية الشمالية 2006 م

رئيس الإتحاد العام لمعاشي الخدمة المدنية بالسودان

مؤسس دار اتحاد معاشي الخدمة المدنية شرق النيل

توفي في 18 / 6 / 2007 .

الخليفة محمد عثمان الخليفة يعتبر اول شخص من جزيرة بدين تخرج من الأزهر الشريف، حسب ما جاء في منتديات بدين، فقد تخرج العلامة محمد عثمان خليفة من الأزهر في 1914 وساعده في ذلك تقلد والده عثمان الخليفة الأب منصب كبير خلفاء السادة الأدارسة الذين كان لهم علاقة وثيقة بمشيخة الأزهر وتقلد بعد ذلك كبير خلفاء الأدارسة، وللعلم هو والد المرحوم عثمان الخليفة امام مسجد شبة الشرقية (مسجد الخليفة) رحمهم الله

جميعا. أما أول من توظف في الدوائر الحكومية من أبناء بدين كان محمد أفندي . ومن هنا أخذ لقب أفندي الذي عرف به، ويقال أنه والشيخ عبدالعزيز زمراوى كانا يدرسان في خلوة الشيخ فقير محمد احمد الكبير في فيدي. وهى خلوة عريقة جدا، وفي زيارة للمأمور الانجليزى للخلوة تم إختيارهما لحسن خطهما في الكتابة. وربما كان توظيفهم في اوئل القرن العشرين، لأن الشيخ عبدالعزيز زمراوى كان يعمل في مصلحة السكة الحديد وإحيل للمعاش في عام 1938 . وجدير بالذكر أن أول من تخصص في علم الإحصاء في السودان هو (صالح تور) وإسمه الكامل هو صالح أحمد طه صالح تور . من شبة.

وفي الجزيرة شخصيات عرفت بالمبالغات. والتعليقات الساخرة. والمواقف الطريفة. ودعنا نبدأ بعنما آدم ، وقد كان آدم رجلا أميا ،لم يفتح الله عليه بحرف، إلا أنه كان يملك خيالا واسعا، وذهنا مبدعا، لو وجد فرصة تعليم لكان روائيا شهيرا. كان يتعمد الكذب ويتعراه بصدق وإصرار. يبدأ قصصه القصيرة، والتي كانت في منتهي الجودة من حيث الحبك والسبك وترتيب الأحداث، بإبتسامة (ظاهرة)، تقول لك أنه يعرف أنك تعرف أنه كذاب، ولكنه يلح لك أن تستمع له متغاضيا . فالمهم ان يحكي هو وان تستمع انت، والقضية كلها بالنسبة له ترفيحية. وكنت كلما وجدته اتعمد الجلوس بجانبه لأن له بعض التعليقات الساخرة والجريئة جدا والتي كان يطلقها بصوت خافت، وكان يحتفي بي ويعتبرني مستمعا جيدا ومثاليا. ومرة ونحن جلوس بجانبه، اخذ الناس يتحدثون عن قطع الأراضي وأسعارها، فجاء أحدهم من المسجد بعد الصلاة، ولما وجد الناس يتحدثون عن الأراضي طلب منهم السكوت، قائلا ان الإمام قال ان كل الناس سوف يعملون أراضهم علي رؤوسهم اثناء الحساب يوم القيامة، فما كان منه إلا ان سخر من هذا القول وعلق بصوت خافت (طيب الناس حيشيلو الأراضي فوق رؤوسهم وحقيفو وين؟ ، يا غشيم إنت وإمامك) ، وحكي انه مرة غضب من شخص عاكسه امام جمع من الناس، فرفع المسكين وقذف به الي اعلى، فانطلق كالصاروخ حتى إختفى في الفضاء، فانتطره الناس وهم في دهشة حائرون، فلم يظهر، وبعد ان يأس الجميع وقرروا الذهاب، إذا بعذاء المسكين يرتطم بالأرض، ويتحول الي قطع صغيرة، وإذا به يظهر نازلا من السماء، وما ان إقرب من الأرض ووقعت عيناه عليه، حتي طار عائداً الي السماء، ولم يتزل المسكين حتي الآن . رحم الله عمنا آدم.

أما عمنا (مختار شركاية) فكان لا يقل سخرية عن أي كوميدي معروف، يذكرك بفلاسفة التشاؤم والإلحاد، او الشعراء الصعاليك. شخصية متميزة، نادر علي طريقته، لو وجد فرصة تعليم، وصادق الطيب صالح، لقام بدور منسي تماما، كان يعمل مزارعا في جزيرة زراعية تابعة لجزيرة بدين، اسمها موقه، وكان الموسم موسم حصاد الفول، فجاء مختار الي المركب وهو يحمل علي حمارة شوال قول واحد. هو كل الذي خرج به من الموسم، ثم وضع الشوال في المركب. واستلقي علي جنبه متكئا علي الشوال، وانحنى برأسه مغمضاً عينيه، فسأله احدهم. اما يا خال. الفول السنة دي طلع كم؟؟، فما كان منه ، ودون ان يرفع راسه او يفتح عينيه الا أن قال، وهو يتبنت علي الشوال:(والله ياخي أرقن حسابمو . يعني لسع ما حسبته) . كان ساخراً، حاضر البديهة بصورة مذهلة، وكان يتحدث

مع نفسه في الطريق، معلقاً علي كل الذي يراه، وكان يأتي الي بدين يوم الجمعة للصلاة، كان الدين كله يتلخص عنده في ركعتي الجمعة، يأتي بنفس ملايبسه التي يعمل بها(عراقي وسروال وطاقيه)، ويطبق الجلابية ويضعها علي كتفه مع العمة، ويؤدي الصلاة ويعود الي مزرعته دون ان يهلبش الجلابية والعمة، وكما قلت كان يعمل مزارعاً في جزيرة موقه، وله زرع وبقر وهائم، تحتاج الي رعاية يومية، وذهب اليه واحد من اصحاب الدعوة، الذين يخرجون في سبيل الله، ويسافرون بالاسبابيع والشهور، الي باكستان وافغانستان والشيستان، (وكان السودانستان استقام امره)، زاره شيخنا الداعية، وطلب منه الخروج في سبيل الله معهم، فأعذر العم مختار بموضوعية شديدة، موضحاً ظروفه العملية التي لا تسمح له بالغياب، الزرع والهائم، لمن يتركهم ويسافر، فقال له صاحبنا الداعية (اتركهم لله وسافر) فقال له مختار (إنّ أماً بوم خالصا) وهي جملة تقريرية تفيد بعدم موضوعية الطلب . رحم الله العم مختار واجزل له العطاء.

اما صاحبنا الثالث، فمن أكثر الناس إستهبالاً علي سطح الأرض ، يذكرك بالممثل المصري أحمد بدير، ويومك سعيد اذا لاقيته، يبدأ معك الحديث متفضلاً عليك برتبة ملازم ثاني، وبعد دقيقتين من الكلام المتواصل، والذي لا تفهم منه شيئاً، يعطي لنفسه الحق في ترقيتك الي ملازم، ثم يخاطبك قائلاً، شفت يا سيادة الرائد، وقبل ان تستمتع بهذه الترقيات السريعة، يقنعك بانك عقيد، ثم يواصل حديثه مذكرا اياك بذلك اليوم الذي اصبحت فيه عميداً، وكيف انك من كرمك الحاتمي ذبحت توراً أكله الناس، ودون إكتراث لدهشتك يواصل حديثه المتسارع قائلاً: تعرف يا سعادة اللواء، وهكذا في خمس دقائق تكون أنت قد دخلت الكلية الحربية وتخرجت منها ووصلت رتبة لواء، ويكون صاحبنا السعيد قد تحصل منك علي (حركة) وذهب لإستهبال ضحية أخرى. أما إذا عملت نائم، ولم يجد منك شيئاً ، فأنت في رأي صاحبنا السعيد. (أمة متقلبة أرض الله ساكت). ويسافر (صاحب السعادة) بطرق عجيبة، فيقول لك أنا ماشي بورتسودان لكن يمكن أخش الكويت ههناك، أو يقول أنا ماشي كسلا لكن يمكن أخش ليبيا ههناك، فبالنسبة له كل الطرق تؤدي إلي الإستهبال.



أما أشهر الكوميديين على نطاق النوبة فهو (سيد تلول) ، هو حكيم النوبة وجهاهم ، من أبناء جزيرة صاى ، من مواليد بداية العشرينات من القرن الماضى ، سافر إلى مصر في 1937 م ، عمل هناك لمدة 10 سنوات ، بعدها عاد إلى صاى وتزوج ، ثم عاد إلى مصر وعمل بالسكة حديد ، ثم إلى صاى ، ثم (شرد) إلى الخرطوم ، عمل بمطار الخرطوم ، وانتقل منه إلى العمل بمطار حلفا حتى عام 1964 م ، حين غرقت مدينة حلفا عاد إلى صاى ، وكما ينسب معظم الفكاهات في العربية إلى جحا فكذلك ينسب معظمها إلى سيد تلول في النوبة ، وقد لاقيته شخصياً في عبرى عندما كنا ندرس بها ، والحديث عنه وعن نكاته يحتاج إلى مجلد كامل ، والنكات تفقد (روحها) عندما تترجم ، وقد حاولت ترجمة بعض نكاته ، ولكنني صرفت النظر عن كتابتها هنا ، لأن الترجمة لا تعبر عن روح النكتة.

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال .
فهل فيك من ماء المعرة قطرة . تغيث بها ولها أن ليس بسال .
تمثلت قول الحكيم الفيلسوف وأنا وإبني علي . أو إبني علي وأنا ، نعاقر الـ Snow لتخليص عربي من الثلج الذي ارتفع
لعدة سنتيمترات عن الأرض . قال Snow shovel قال . مالي أنا وما للإسنو . مالي أنا وما للشفل . مالي وما لهذا
الصقيع أصلاً . مالي وما لهذه الشقاوة . كنت هناك مرتاحاً . هناك في بدين . جزيرة في شمال السودان . هناك ولدتُ
ونشأتُ . طفولتي وصباي وبداية شبابي . هناك في ذلك الطقطس الدافئ الحميم . جزيرة في منتصف النيل . يحيط بها
الماء من كل جانب . Swimming pool طبيعي يا إبني . تنزل وتسيح مع الأسماك والتماصيح والسلاحف . تشرب من
نفس الماء ولا يصيبك ضرر . لا برد هناك ولا ثلج ولا جليد . جزيرة (مهمشة) إذا قسناها بالمعطيات العصرية . ولكنها
جزيرة منعشة جداً في (العصرية) . تخرج من البيت فيتلقاك الهواء رقيقاً نظيفاً منعشاً . هواء نقي . مشبع برائحة
الجروف . لم يتلوث بسموم العربات ولا الموترات . ولا المصانع ولا الـ Green House . فلا قرين هاوس هناك ولا وايت
هاوس . هناك طين هاوس . بيت من الطين . مسقوف (بالأمبو) ومروق السيسبان وجريد النخل . دافئ حميم شتاءً .
بارد لطيف صيفاً . هناك يا إبني تسير الحياة بهدوء . علي فطرتها . دون عجلة . تخرج من البيت فتجد الناس هاشين
باشين . ضاحكين مبتسمين . :

وعم عبدالرحيم ما ببخير زعل
كل الناس هناك ما تخبر زعل
يزعلوا لشنو . يزعلوا من منو
كل الناس هناك . كل الناس صحاب
كل الناس أهل .

نعم . كل الناس صحاب . كل الناس أهل . ولكنك لن تعرف عم عبدالرحيم . ولن تعرف الحاج ود عجينا . ولا حميد
ولا الفرجوني ولا مصطفي سيداحمد :

الحاج ود عجينا في الفريق يا هو الركيزة
هو البشيل حمل الرضاعة . وعندو كلمة علي الجماعة
في الطريق باقيلنا .. تاية . وكل طيب ليه غاية
للضعيف تلقاه ساند . ويقهر الكعب المعاند
وللضيق ديوانو فاتح . ديل يلو . وديل يقومو
عمنا الحاج ودعجينا . من سنين ايام جهلتو
يسأل المولي السلامة . وسترة الحال والكرامة

نعم يا بُنيّ. عندنا عم عبدالرحيم. وعندنا الحاج ود عجينا، في كل بيت. في كل حي وكل حلة. كبار المقام. محترمون مبدلون. اصحاب كلمة علي الصغير والكبير. بسطاء انقياء. عفيفو القلب واليد واللسان. ما كانوا ليهانوا. ولكن جاءهم زمان تعيش اهيئوا فيه. ولن يرحم الله ولا التاريخ من اهانوهم. وتلك قضية اخري. وما أكثر القضايا الأخري. هناك يا ابني يعيش الناس في امان. يقضون أغراضهم بتأني وهدوء. والوقت هناك غير محسوب. واليوم طويل طويل. وليست كأيام هذا البلد المستعجلة. Shovel. يا ابني Shovel. فأنت مستمتع بهذا البرد وهذا الإسنو. أما أنا فقد تجمدت أطرافي. واصطلكت أضراسي. وتوقف الدم في عروقي. وليست لي في هذه متعة. أنا لا أنتمي الي هنا. لا أنتمي إلي هذا الطقس. إنما أنتمي الي هناك. الي بدين. حيث لم تكن فيها عربات. فلم تكن نحتاج إليها. ماذا نفعل بها؟ المشاوير تُقضي علي الأرجل. مشياً علي الأقدام. او علي ظهور الدواب. هناك الحمامار يعتبر The man's best friend وليست الكلاب كما هنا. لم يكن في الجزيرة بوليس. فالناس لا يخالفون القانون أصلاً. لم يكن في الجزيرة مستشفى ولا Family Doctor. ولا اسعاف ولا مطافي ولا 911. لم تكن نعرف الحكومة. ولا الحكومة نعرفنا. تركتنا الحكومة في حالنا. وتركناها في حالها. رغم كل هذا التهميش. كانت الحياة سهلة وبسيرة. لا عناء فيها ولا شقاء. فيا برق ليس الكرخ داري وإنما أقرأ أبيات المعري علي ابني. ذو الثلاثة عشر عاماً (حين كتبت هذه الفقرة وقد أكمل عامه العشرين الآن). وهو يقول لي؟ Dad, what are you talking about. فاقول له never mind, never mind. فأنت لن تفهم. وأنا ماذا فعلت؟. ماذا صنعت بك؟. أتيت بك الي هنا ولما تكمل عامك الأول. ويبدو اني سوف أتركك هنا وارحل عن الدنيا. ولا ادري انفعتك ام أصبتك بضرر. هل أذنبت في حقك؟. هل كان يجدر بي ان اريك هناك؟. ام ان هذا افضل. لست ادري. ولكني ادري انني سعبت للأفضل. للحياة الكريمة. من هناك. من بدين سافرت الي الخرطوم. بحثا عن حياة أخرى. تخيلناها افضل. ولما (غرّب حامد وشرقي بلة). تركنا الوطن باكمله واغترينا. وطالب لنا المقام في الخليج سنوات طوال. صعدت بنا الحياة ونزلت. واستوت وتعرجت. أفرحت وأحزنت. ثم رمتنا الأقدار في ضواحي الإسكيمو. وها انا الآن. اقف معك هنا. ألبس الكوت والبوت والبهات والقلفز والإسكارف. وأعافر معك الإسنو. هناك يا ابني. هناك في بلدي يا حبوب. نلبس الجلابية والتوب. ولكن أين هناك من هنا. وأنت. ماذا تعرف عني. ماذا تعرف عن ماضي. ماذا تعرف عن ابي وامي. ماذا تعرف عن أهلي وعشيرتي. ماذا تعرف عن وطني. أنت لن تعرف شيئاً عن حلفا. ولا عن نمولي. ولا عن الجنيينة. ولا عن الكرمك. وتلك أركان الوطن الأربعة. أنت لن تعرف وردي. ولا مسونكيل. ولا ففن ونجي. ولا صواردن شو. وكما أنك لن تعرف وردي فإنك لن تعرف أبوأمنة. أبوأمنة حامد. ولن تعرف أنهم غنوا. وما أحلي ما غنوا. حينما إلتقوا في حلفا بأَم الضفائر. النافرة الأليفة. وفي كريمي شايقية بشلوخا. وفي شندي بنات جعل. نابرات خدودن زي فجرا اطل. وفي سنكات سمرا أبية. حلوة همدنوية. وفي قلب الجزيرة الحلوة النضيرة. وفي الغرب اغيد. تراقص المشاعر مع دقة النقارة. وفي الجنوب ساحرات يمشين في السهل والغابة. أنت لن تعرف عبدالقادر سالم. ولن تغني معه لكردفان. أنت لن تعرف محجوب شريف. ولن تجلس معه في حضرة الوطن حيث يطيب الجلوس. وأنت لن تعرف ود المكي. محمد ابراهيم المكي. ولن

تشعل معه الحقول قمحاً ووعداً وتمني، أنت لن تعرف ودالأمين، ولن تشدو معه لأكتوبر، ولن تتعلم معه من الأيام، أنت لن تعرف عثمان حسين، ولن تعشق معه الجمال، أنت لن تستمتع بذلك اللحن الشجي الذي ينبعث من زمان الناس، وضنين الوعد، وتفشي الخير، لن يطربك صوت الطنبور في (بت البلد عرفت تحب) او(حتي الطيف رحل خلّاني)، لن يملك ذلك الصوت الأسطورة، صوت أبو داود، في زهرة الروض الظليل او أنّ المجروح او هات لينا صباح، لن تعرف ابراهيم عوض، ولن (تجنن) الناس معه طرباً، أنت لن تعرف الصوفي المعذب، ولن تستمع له وهو يحدثك عن النيل، سليل الفراديس، لن تعرف جماع، إدريس جماع، لن تمشي معه في مواكب الليل، حاسر الرأس، تستشف معه من كل شيء جمالا، أنت لن تعرف عنّا شيئاً، لن تعرف الفرقة والقرمصيص، لن تعرف قطع الرحط، لن تعرف الخُمرة والدلّة، والطلح والدخان، انت لن تعرف المجذوب، محمد المهدي المجذوب، ولن تقرأ غمانم الطلح، ولكيّي اروي لك منه:

وحفرة بدخان . الطلح . فاعمة :: تندي الزوايف تلويناً وتعطيراً
مدت بناناً به الجناء يانعة :: ترد ثوباً الي التهدين مخموراً
قد لفها العطر لف الغيم منتشراً :: بدر الدجى وروي عن نورها نورا
يزيد صُفرتها لمعاً وجدتها :: صقلاً ونامدها المشدود تدويراً
أرخي الدخان لها سِتراً فبعدها :: كدرة في ضمير البحر منسجوراً
أنت لن ترافق عمنا صالح جبريل الي كسلا، ولن تزور معه حديقة العشاق، بين صب في حبه متلاشي وحبيب مستغرق في عناق، أنت لن تعرف الهادي آدم، ولن تكتب معه الشعر علي ضوء ثقاب.
انت لن تعرف كوش ولا كرمة ولا مروي . لا نوباتيا ولا المقررة ولا علوة، لن تعرف بعانخي وتهارقا، لن تعرف السلطنة الزرقاء ولا سلطنة دارفور، لن تعرف ثقلي ولا المسبعات، لن تعرف معركة القلايات ولا كرزي ولا ام ديبكرات، لن تعرف علي عبداللطيف، لن تعرف حريق المك في قلب الدخيل، لن تعرف الجسارة، حينما استشهد في مدفعه عبدالفضيل، لن تعرف مهيّرة، ملهمة الفرسان جيلاً بعد جيل، لن تعرف الإمام المهدي، لن تعرف القرشي ولا التاية .
انت لن تعرف عبدالخالق محبوب، كل هؤلاء رايات فوق هامة الوطن، فوق رؤوس الجبال، وجريد النخل، كلهم في صوت العاصفة، وصرير الريح، كلهم في رمل الصحراء، وثمار الغابة، كلهم في كل عين وفؤاد، وأنت لن تعرف العباسي، محمد سعيد العباسي، ذاك شاعرياً بتي مجيد، وما أكثر الشعراء المجيدين في بلادي، لا احصهم، ولكني اقتطف لك من عهد جيرون :-

ارقتُ من طول هم بات يعرفوني :: يثير من لاعج الذكرى ويشجوني
منيت نفسي آمالاً يماطلني :: بها زماني من حين الي حين
ألقي بصبري جسام الحادثات ولي :: عزم أصد به ما قد يلاقيني
ولست أرضي من الدنيا وإن عظمت :: الا الذي يجميل الذكر يرضيني

إِن تَرَبِّي أَدِمْتُ بَعْدَ نِيَاضٍ :::: فَحَمِيدٌ مِنَ الْفَنَاءِ الدُّبُولُ
 صَجَبْتَنِي عَلَى الْفَلَاةِ فَنَاءً :::: عَادَةُ اللَّوْنِ عِنْدَهَا التَّغْدِيلُ
 سَتَرْتُكَ الْجِبَالَ عَنْهَا وَلَكِنَّ :::: بِكَ مِنْهَا مِنَ اللَّمَى تَقْبِيلُ
 مِثْلُهَا أَنْتَ لَوْحَتِي وَأَسَقَمَ :::: بَ وَزَادَتْ أَهْهَامُهَا الْغُطْبُولُ
 نَحْنُ أَدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ :::: أَقْصَبُ طَرِيقُنَا أَمْ يَطُولُ
 وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ إِشْتِيَاقٌ :::: وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ
 لَا أَقْمَنَا عَلَى مَكَانٍ وَإِنْ طَابَ :::: وَلَا يُمَكِّنُ الْمَكَانَ الرَّحِيلُ
 كُلَّمَا رَحَّبْتَ بِنَا الرِّزْوُضَ قُلْنَا :::: حَلَبٌ قَصْدُنَا وَأَنْتَ السَّبِيلُ
 فِيكَ مَرَعَى جِبَادِنَا وَالْمَطَايَا :::: وَإِلَيْهَا وَجِيفُنَا وَالذَّمِيلُ

ذلك هو المتنبي، مائي الدنيا وشاغل الناس، لم يكن الدهر بالنسبة له الا راوية من رواة قصائده، اذا قال شعرا
 أصبح الدهر منشدا، ذلك الذي نظر الأعمى الي أذهبه، وأسمع كلماته من به صمم، ذلك الذي عرفته الغيل والليل
 والبيداء، والسيف والرمح والقرطاس والقلم، ذلك هو المتنبي، قال ما قال ونام قرير العين هانئها، وسهر الخلق
 جراحها واختصموا، أنت لن تعرف عبدالرحمن منيف ولا ابراهيم الكوني، لن تعرف حسين مروة ولا نصر حامد
 أبوزيد، لن تعرف فرانسيس دينق ولن تقرأ طائر الشوم، لن تعرف محمد ابوالقاسم حاج حمد ولن تفهم جدلية
 التركيب، والمأزق التاريخي في السودان، لن تعرف الشهيد جون قرنق، نجم سيامي آخر، رفع لواء المساواة في الوطن
 الواحد، ولكنه مات، ليلا فوق الجبال، من يدري كيف مات، لن تعرف أبييل ألير، حكيم عملاق، لو تركوا له ولأمثاله
 الحكم في السودان لكنا الآن في وضع آخر، أنت لن تعرف عبدالله الطيب ولا علي الملك . لا شنوا امشيبي ولا وول
 سوينكا ولا سنغفور ليوبولد، لن تعرف منابع النيل ولا مصبه، لن تعرف الهلال ولا المريخ، لن تعرف الزين ولا ضو
 البيت ولا الطاهرود الرواسي ولا سعيد عشا البايتات، لن تعرف حسنة بت محمود ولا ودالرس ولا بت مجنوب،
 واذا لم تقل لك بت مجنوب كل شئ، فلن يقل لك احد شيئا، ربما اخذك القطاريوماً الي محطة فكتوريا، وعالم
 جين موريس وايزابلا سيمور وأن همند، ربما زرت قاعة البرت، ومسرح البرنس اوف ويلز، ولكنك لن تذهب الي هناك
 برفقة مصطفى سعيد، لأنك لن تقرأ موسم الهجرة الي الشمال، رواية العصر ، تحفة نادرة، ولوحة بديعة، معين لا
 ينضب، عمل عبقرى، عمل كتبه ذلك الساحر، وحقق به عروق الثقافة والأدب، واجراه في شرايين الإبداع،
 إستودعه رفوف المكتبات فلم تقعد، قطبُ ثم طبع، وترجم وترجم، إنه عمل خالد، والخواند قليل.

انت لن تعرف الدوبيت ولا المسدار، لن تعرف الحردلو، ابوسن، ولكنه قال:-

الشَّمْ خَوَّخَتْ بَرْدَن لِيَالِي الْحَرَّةِ

والْبَرْاقُ بَرَقَ مِنْ مِثْنَا جَابِ الْقَبْرِ

شَوْفَ عَيْنِي الصَّبِيرُ بِي جَنَاحُو كَفَّتْ الْفِرَّةِ

تلقاها أم خدود الليلة مرقت برة

البارخ أنا وقصبة مدالقي أنسيل

في ونسة وضحك لمن قسمنا الليل

وكتين النعام إتسقلبوا الخيل

لا يخلت ولا جادت على بلحيل.

وانت لن تعرف المديح، ولن تعرف البرعي، ولا حاج الماحي، ذلك المتبتل في محراب الحب النبوي، ذاب وجداً حين

إهتدي، انت لن تعرفه ولكنه قال..

عيب شبابي ال سرح ::: والله لأب شوقاً جرح

قام العبيد من نومه صبح ::: لقي جنبه لبناً في قدح

سمي وشرب زين إتلتخ ::: حمد الإله حاله انصلخ

جد في السؤال لربه لبح ::: قال يا كريم بابه إنفتح

اعطوه تفاحات بلخ ::: حين ذاقها قال دماغه تخ

راد الجليل قلبه إنشرح ::: طاب عقله مسرور بالفرخ

جانب لي شفيع الناس مدخ ::: شتمه الهيبس دق ونبح

السمعه في جوفه إنجرح ::: من شوق حبيبته يسوي أخ.

ذكرت لك وردي ، محمد عثمان وردي ، ولكني لم أحدثك عنه ، أنه يا بني من أهرامات الوطن ، جاء إلي الخرطوم

مهاجراً من الشمال .. مع عصافير الخريف في موسم الشوق الحلو

...

من ضواحي النوبة جاء .. وعليه رحاله ... جاء يحمل علي كتفيه

سبعة آلاف عام من الحضارة ... جاء وفي يده معول صغير .. ريشة

مصقولة علي أنغام الطنبور بفن نوبي عتيق ... جاء شبلاً من ذاك

الأسد .. قيثاره الوطن .. خليل عزة .. جاء ليغني للوطن .. كما غني

الخليل .. مثلما غنت مهيرة.

غزا حاضرة بلاده بعبقرية فذة، وذكاء مدوزن ، وإمكانيات متغمة .

وصوت فخيم ، وطاقة متفجرة ، وموهبة أكيدة .. تبناه الوادي نهراً ثالثاً منساباً من عرس الشمال جنوبياً هواه

جاء ولسان حاله يقول . يا صبية ، الريح ورايا ، خلي من حضنك ضرايا .. فاحتضنته العاصمة الصبية مع ريحة

جروف النيل .. مع الموجة الصباحية .. عند ملتقي النيلين .. علي ضفاف المقرن الجميل.



جاء ووجد في ساحة الفن جبل عطاء من العمالقة .. الذين موسقوا ليالي العاصمة ونهاراتها بموسيقى رائعة وجادة ومعبرة .. كان أثر العاصمة يتمواج لحناً مع الكاشف وعثمان حسين وأحمد المصطفي ... وكانت المجالس تستغفها الطرب مع حسن عطية وإبراهيم عوض .. فإسترق فناننا السمع .. وسرعان ما التقط السر .. وخطف الأضواء .. وسار نحو القمة في شموخ وكبرياء .. وتحت شكوك أهل البندر في هذا الرطاني القادم من أقاليم الشمال .. لحنٌ وغني .. فأدهشهم بالمتعة ومتعهم بالدهشة .. بيد سحرية وضع رياضاً وزهوراً على خديّ الأغنية السودانية .. فأصبحت ما أحلاها .. طروية وحلوة بين يديّ فنه البديع .. ومنذ أن غني أول غرام دخل الجمهور معه في غرام .. كان لهم منه أجمل هدية .. وكان له منهم أنبل مودة .. ثم انفجر النبع وتدفق الشلال.

تمحرب في صومعة إتخذها سكناً في جنوب العاصمة .. هناك إختلي بالأنغام .. والعود في يده .. يهمس للأوتار .. فتخرج الألحان كفراشات مجنحة .. تطير عبر السما الممدود .. سما الوطن اللي مالو حدود .. حمامة جناحا لا خائف ولا مفقود .. هناك حرك ريشته السحرية الصغيرة .. فرسم لوحات من الفن .. تخرج منها ألحان تسمعها وكأنك تراها .. ألحان تذوب فيها وتذوب فيك .. كأنها منك إليك .. وكأنها فيك من الأزل .. ألحان ملأت سماء الوطن كمحابة صيف .. لم تجافي بلاد وتسقي بلاد .. بل كانت كالطرفة في عز الخريف بكاي .. هطلت علي أرض المليون ميل .. فسقت كل البلاد .. حارة حارة .. وروت كل العذاري والحيارى .

يات يشكو حرقة الوجد علي لسان كل عاشق أخضر القلب .. في رنعان الشباب .. يعيش في دنيا الصبابة .. ويفتح الباب للسعادة .. أرسل المراسيل نيابة عن كل ملهوف فقد صبره وشرذ نومه وتحل جسمه وشحب لونه.

سار في طرقات البلد الحبيب .. هنا وهناك .. وهو يخلد الألحان لزمان ماشي وزمان جايي وزمان لسع ... نصب خيامه تحت شمس الوطن .. ونادى على الناس .. وعزم كل (زول) ليرتاح تحت ظلال فنه الوريث.

جابه مستحيلات الألحان وطوعها فغدت المستحيلة جميلة . هوم الليل وساهر وحده كشمعة في مهب الريح ..

تاه من مرفأ قصيدة الي مرفأ قصيدة أخرى ليعود اليها بفرح كفرح البعيد العاد .. وتاه مرة أخرى في بحور الشوق وأمواج الحنان .. وجاء الي بر الأمان في رفقة أمير الحسن .. رب المحاسن والبراءة والوداعة.

سافر في العتامير ليلاً .. وشق التيه .. وشدّ سرجه فوق الريح و(صنّفن) فوق سحب الري .. وعد نجوم الليل التي جوهرت سطح النيل من غير نظام .. ثم مَدّ يده للرهاب .. وأمسك به .. وأسأله حوضاً من النغم الزلال .. فارتادته البرلة .. ومسونكيل .. وذات الشامة .. وملاك.

في صومته تلك كان يحدوه الأمل .. فيغي ويتودد ويهدي لحنه الغالي لأعر الناس .. والحنينة السكرية .. وشبه القمر .. وكُجنن ونَجَقو .. هناك صارع غضبة الهبياي فارداها لحناً .. وأخرج منها مقطعين دوياني نزلوا علي الدنيا أشواق وحنية. من ليله ونهاره نسج أغان بديعة .. أرسلها مع الطير المهاجر تحت المطر وسط الرياح إلي كل حوش مرشوش وديوان مفروش. سنين وأيام قضى عمره وهو يفتش تراب البلد .. في الغابات وفي الوديان .. في التاريخ وفي اللوحات وفي أحزان عيون الناس .. وفي الضيل الوقف ما زاد .

ذوّب شبابه في اللون الأسمر وأسمر اللون وفقن ونجى وسليم الذوق ونور العين وأمير الحسن. ومن غير ميعاد إلتقي في حلقا بام الضفائر النافرة الأليفة ..وفي كرسي شايقة بشلوخا ..وفي شندي بنات جعل نايرات خدودن زي فجراً أطل ..وفي سنكات سمرا أبيّة ، حلوة همدنوبية .. وفي قلب الجزيرة السمحة النظيرة .. وفي الغرب أغيد تراقص المشاعر مع دقة النقارة .. وفي الجنوب ساحرات سارحات في السهل والغابة. قضي أحلي فصول عمره وهو يرطن بإسم الوطن ويغني له .. رفع صوته هيبّة وجيرة .. وكان نشيده عالي النبرة.

جلس في حضرة الوطن حيث يطيب الجلوس .. وأخذ عنه عميق الدروس .. وتعلم منه المشي بمهابة في الضحي والظلام. ثم نادي وتنادي وغني في عرس الفداء .. لأرض البطولات .. وميراث الحضارات . كان هناك .. حينما ابتسم النهر القديم لبعانخي ولتهرافا وللمهدي .. لعلي عبداللطيف .. ولعبدالقادر الجبوبة .. وللقريشي .

صباح وصباح معه شعبٌ يتسامي .. يفج الدنيا ياما .. ويطلع من زحاما .. زي بدر التمام . منذ فجر الإستقلال رفع راية الوطن .. وغني له غناءً عاطراً تغدوه الريح فتختال الهوينا .. غني لأكتوبر الأخضر .. فغنت الأرض معه .. وأشتعلت الحقول قمحاً ووعداً وتمني.

عزف أغنياته للكمال فملأ الكأس وقاض بالجمال . سجّل حضوره بقلب الإبداع .. واشرب إلى سماء الشعر لينتقي درر القصائد .. متخيراً كل لحن عبقرى سهل ممتنع.

وفي زمن الغربة والإرتحال ، وقف في شرفات المدن رافعاً راية منسوجة من شموخ النساء وكبرياء الرجال . كان قد نذر عمره قرباناً لفنه .. وأوفي بالنذر .. وبني جبلاً شامخاً من الإبداع وجلس عليه كنسور الجبال.

أنه محمد عثمان وردى ، أقول هذا مع التحية لكل شاعر إقتبست من شعره قيساً أضاء هذه الصبغة المتواضعة في حضرة فنه الرفيع. (الصورة في أعلى الصفحات من سودايز أون لاين وهي من تصميم الأخ مدحت عثمان من أبناء فريق وهو شاب نوبي هميم ونشط).

وقبل هذا وذاك، فانت لن تعرف الخليل. خليل فرح، فيثارة الوطن، ذلك الشرف الباذخ، والصباح الفائق، والنجم الألق، خليل. قامه الوطن السامقة، عندما يُذكر الوطن يُذكر الخليل، وعندما يُذكر الخليل، يُذكر الوطن، انت لن تذهب معه إلى الضواحي، وطرف المدائن، لن تنظر معه شفق الصباح، ولكنني أحدثك عنه، ففي شخصه يتمثل حب الوطن والكفاح ضد المستعمر. في شخصه يتمثل الأدب، والشعر، واللحن. والغناء السوداني:

ولد خليل فرح بقرية دبروسة مركز حلقا في عام 1894م نال جزءاً من تعليمه في خلوة الشيخ أحمد هاشم في جزيرة صاي، فموطن أسرته في صايساب قرية (هيباب)، كما اختلف إلى الكتاب في منطقة دنقلا، كان والده الشيخ فرح بدري يعمل بالتجارة، وكان كثير التنقل بين حلقا ودنقلا وأمدردمان . وكان خليل كثيراً ما يصاحب والده في هذه الرحلات، وكان جده بدري كاشف قد إستقر في جزيرة مقاصر، هناك درس خليل (الكتاب)، وكانت هذه الرحلات تتم في الغالب عن طريق المراكب في النيل، أو قوافل الجمال . في صحبة فريق من العرب البدو . وكانت هذه القوافل

تسافر فجراً وعصراً وتستريح نهراً. وكان أولئك العرب البدو يتغنون بـ (الحدهاء) الذي يحثون به الجمال على السير . ويتطارحون الشعر والإنشاد . في المدح والهجاء والتغزل . ومن هنا نستطيع أن نفهم رمزية أو قل (وجودية) مفردات (بدوية) كثيرة ترد في شعر الخليل. مثل الليل والنجوم والكواكب والركاب والزحال . (راجع الفصل الخامس من كتاب الدكتور محمد جلال هاشم جزيرة صاي .. قصّة الحضارة: صراع الثقافات وقضايا التنمية والتمهيش في بلاد النوبة) المنشور في جريدة حريات . النسخة الإلكترونية . بتاريخ 4 يناير 2011 . وقد ارتبط شعر الخليل فيما بعد بالنيل والطبيعة. توفي والده في 1910 وأمّه في 1927، تزوج من السيدة سلامة أغا إبراهيم في جزيرة صاي في 1923 . له من الأبناء إثنان، فرح وعائشة.

هاجر خليل فرح إلى الخرطوم. وسكن في أمدرمان. والتحق بكلية غردون التذكارية قسم البرادة الميكانيكية ونال فيها إجازة الهندسة الميكانيكية. ثم عمل بمصلحة البوستة والتلغراف. شارك الخليل في العمل الوطني آنذاك ، صار عضواً بجمعية الاتحاد السوداني التي تكونت في 1921. وكان خليل داعية للتحرر من الإنجليز والاتحاد مع مصر. شارك بكلماته القوية في مقاومة المستعمر حتي قامت ثورة (24)، له شعر قومي وطني رصين. الهب به الجماهير التي كانت تقاوم المستعمر آنذاك.

عندما هاجر الخليل إلى الخرطوم. كان (أعجيباً) نوبياً لا يجيد العربية. وكان عليه أن يواجه فصحاء المدينة. وأن يجارهم في اللغة التي يجيدونها. وواضح أنه إستعد لذلك. فأطلع علي الشعر العربي كله. ذلك واضح فيما كتبه من الشعر بعد ذلك. ما لبث خليل أن دخل في الوسط الفني. ونال شعراء الساحة. وأنتزع منهم قصب السبق. كانت ساحة الشعر في ذلك الوقت يسيطر عليها اساطين الشعر الثلاثة. لهم فيها صولات وجولات. ولا تحرر شهادة ميلاد شاعر جديد ما لم يزكّه أولئك الثلاثة وهم: يوسف حسب الله الذي كان يلقب بـ (سلطان العاشقين). ومحمد علي عثمان بدري. وابوعثمان جقود. وجاء الثلاثة لإمتحان خليل فرح. فاجتاز الإمتحان بجدارة. ومحمد علي عثمان بدري هو ابن عم خليل فرح بدري. كان قد سبقه بوقت طويل إلى أمدرمان. ومحمد علي من شعراء الحقيقة الكبار. وكان دائماً ما يكون حَكماً بين الشعراء عند المجازاة. فقد كان إلى جانب شاعريته أديباً مثقفاً ملماً بقواعد اللغة وأصولها. من قصائده المشهورة :

مرضان باكي فاقد :: فيكي علاج طبيبي

قالو ترك سكونك :: يا داروين حبيبي

والتي لختها عمر البنا وغناها كرومة والأمين برهان وأولاد المأمون وبادي محمد الطيب وبعده كثير جداً من المغنين. بعد إجازة شاعريته إنطلق الخليل فكتب بسليقة البادية. وقريحة الدوبيت والمسدار. كأنه من أرض البطانة. أو مرايع الشكرية. ثم كتب بالفصحى. فجاري فطاحلة الشعر. ثم كتب أغنياته التي جاءت بما لم تألفه عين قارئ. وجاءت بالحنان لم تألفها أذن مستمع. ذاع صيته سريعاً. وتوسعت علاقته بالشعراء والأدباء والملحنين. وتمكن من ارتياد المنتديات . كمنتدى أبوروف ومنتدى الهاشماب ومنتدى الموردة . كان خليل وصحبه يرتادون شواطئ النيل في

بري وغابة الخرطوم والمقرن، ومن الأماكن المشهورة التي كانوا يرتادونها (دار فوز). وما دار فوز إلا صالون أدبي ، من تلك الصالونات التي كانت تنتشر في امدرمان في ذلك الوقت ، في شعره كثير من وصف الجلسات وما دار فيها من صفة الخمر والساقى والندمان:

دَنَكْ دمه سَايل أَظَنَّهُ مات مَفْلُوق :: عَبَقَ طَيْبُهُ فاح عَسَفَ ملانا خَلُوق
دِرِيا ساقِي دون نُدْمَاك عَلَيَّ مَطْبُوق :: وَصَهْلُ يا نديم وأسمعي مما يَرُوق
زيم يا شادي زيم شَتَفَ مسامع السوق :: وَأُنْشُدُ في معاني البابية وَسُوق
دع ما قال مالك فيها وابن دُسُوق :: كُروم بابل قبيل ساقيتنا لَهَا تسوق
كاسك من سَلَاة خَدَكِ المَعشُوق :: ونغمك من لَدانة قدك الممشُوق
صافية ورايقة طاب مزجك صَبُوح وَغَبُوق :: وَلَهُ غَبِيت أنا ونظرة نديم وعشُوق

كان الخليل يخرج العمل الغنائي كاملاً، كلمات ولحن وأداء، وتقريباً كل أغانيه كانت مسجلة بصوته في الأسطوانات، كان الخليل، ثالث ثلاثة قاموا بهذيب الأغاني، بل قاموا بثورة تجديدية، (إبراهيم العبادي، صلاح عبدالسيد{أبوصلاح} و خليل فرح). ومن الأغنيات الكبيرة التي سجلها في مصر أغنيته الشهيرة (عزة في هواك) وربما كان الخليل أول من لحن وغني من الشعر الجاهلي، فقد سجل في مصر أيضاً قصيدة عمر بن أبي ربيعة (أعبدة ما ينسي مودتك القلب)، والحقيقة أن خليل من الشعراء المظلومين، فالفاس لا يعرفون من شعره غير قصائده الدارجية المغناة، رغم أن له من الشعر الفصيح درر تعتبر من عيون الشعر. ويقال أنه غني باللغة النوبية، ولكن أغانيه النوبية لم تسجل ولم ينقلها من جاءوا بعده، ففقدت وما أعظمه من فقد.



في عام 1929 اصيب بداء عضال، ألزمه سرير المستشفى لمدة طويلة، وأصبح حديث المدينة، فقال فيه:

تلك ستون ليلة ، هي كالسجن أو أشد
عليّ وهي عليّ ، قصة الناس في البلد

عاش خليل فرح فترة وجيزة لا تزيد عن التسع عشرة سنة منذ تخرجه عام 1913 م من كلية غردون إلى وفاته في 30/يونيو 1932 م. ولكنه في هذه الفترة الوجيزة ملأ الساحة بإنتاج رائع كمأ وكيفاً.

كتب الكثير عن الخليل ، ولعل أشهر ما كتب عنه كتاب إبنة عمه، حاجة كاشف، [الخليل الشاعر، 1945]، ثم كتب عنه حسن نجيلة [ملامح من المجتمع السوداني، 1965]، فعبد الهادي الصديق، فعلي الملك محققاً لديوانه، ثم دكتور محمد جلال هاشم في كتابه سابق الذكر، ثم آخرون.

فلنأخذ مع الخليل جولة قصيرة، نتجول في روضه الزاهي، وحديقته الغناء، تعال وشتف سمعك بهذه النماذج

ابدع الخليل حين مدح الرسول في المولد النبوي الشريف:-
صرخة في الشرق من فرد أغز :: ملأ العالم ديناً فاستقر
وتمشي العدل في أرجائه :: يظأ الظلم ويمحو كل شر
فإنجلت عنا غيوم جمّة :: ولبسنا كلنا نسج القمر
نمساوي نحن والأتباع لا :: فرق بين العبد والحر الأغز
يا لها من دعوة لم تُنْهأ :: دولة السيف وتأليب البشر
بل ولم يكثر الداعي لها :: مركب الصعب ولا الدرب الوعر
ثابت المبدل والجأش رأي السد :: يزْمرونأ بنُجج , فاستمر
كزمت أخلاقه طراً لذا :: كملت أفعاله فيما أمر
وفي الوطن قال:

وقفاً عليك وإن نأيت فؤادي :: سيان قربي في الهوي وبعاذي
يا دار عاتكي ومهد صبايتي :: ومناز أهواني واصل رشادي
كم في سمالك للنبوغ وفي ثري :: واديك كم للعبقريّة واد
لك في الطبيعة في الخمانل روعة :: وعليك من سحُب الجلال هواد
فإذا وصفتك فالبلاغة لا تفي :: وصفي ولا تُدني عظيم مُراي
إيه فديتك يا بلادي ألفي :: من حاضرين القلوب وباد
فعلي كلا الحالين نحن ودائع :: كودائع لك في السحاب غواذي
ومن عيون شعره الفصيح:-

ما بال طرقي عنه النوم قد أبقا :: واسترسل الدماغ حتى أخجل الورقا
في يوم عرمي أرانا كل فاتكة :: باللاحظ بالقدر بالخصر الذي نطقا
ونفمة من رخيم الصوت كاد لها :: عقولنا ان ترينا الطيش والزقا
قابلتنا بعيون زانها حور :: والسحر معني علي اطرافها نطقا
واصطف جمعهم المأنوس وانفردت :: منهن جؤزة تحكي المها الحدقا
وخلفها سائق يحدو اذا خشيت :: منه اللحاق تمد الردف والعنقا
ان رامت البعد عنه قام يجذبها :: من الروادف حقف أو كتيب نقا
بقامة مثل غصن البان يعطفها :: فرغ أثيث كزي الليل إذ غسقا
ووجهها القمر الوضاح مبسمه :: قد زانه لعس السفلي وما نطقا
وشلخها في انتصاب لا اعوجاج له :: كالف فارس بالخدين ملتصقا

والجيد لو لا حلي فيه تُكْنَفُه :::: رأيت فيه حباب الماء مندققا
كانما هي بلورٌ تعبدُه :::: وصائف الروم لم تنظر به رنقا
يزهو بها الوشي ادلالا برونقها :::: وإن تجرد كان الحسن متفقا
تلك الفتاة التي هام الفؤاد بها :::: والطرفُ من عائدات الشوق قد أرقا
تهافتت نحوها أبصارنا عجبا :::: بخلقها فأرتنا أحسن الخلقا
وأيضاً هذه:

قرباً عودي ونائي . للطرب :: وادز كأسك عني يا رب
واصطبغ في الروض وانظر يا ثري :: أين نُدماي الألي صاغوا الأدب
اتراهم بين مصروع قضى :: نعبه سُكراً ومغمور . رسب
يا نديمي قل لساقينا إذا :: مال كالغصن علينا وانتصب
وطبّ الجوّ علينا واسقنا :: كلنا تحت جني الكرم رطب
هذه الدنيا علي علائها :: مقلّة إنسانها بنتُ العنب
فاسقنيها في الضعي ممزوجة :: ومع الليل بريقاً من لهب
دع عزولي وحسودي جانباً :: لستُ بالعاذل والحاسد صب
إن تغف ودي فمازج من تري :: أو تغف عني فعائب من عتب
ما علي الهجر بقاءً للهوي :: لا ولا في الصمت معني للأدب
أما شعره العامي فكثير:

شوف صباح الوادي وجماله
شوف خدارو وصيده ورماله
شوف يمينو وعابن شماله
شوف نسيم الليل صاحي ماله
شوف فرع الشاو مين أماله
القمر خجلان من كماله
والصباح لاح بهل الوشاح

وقت الليل برد طلع البدر بكواكبو
ولحقت الإبل وادي الأراك برواكبو
جادت وأسبلت عين المحب بسواكبو

وإحتل الفؤاد ملك الغرام بمواكبو

نجومك يا ليل وللا جيش معي وغاير

ومشتاق مثلي يا ليل ولأ ساكت غاير

طويل مسيخ ومعتم لأك مريح لا غاير

أضابير في همومك ويمشي جرحك غاير

او ان شلت فأسمع هذه :-

يا ليل صباحك مالو

اصحابك جفوني ومالو

شوف صبحك فقد راس مالو

لا يعرف يمين لا شمالو

يا ليل بدري شاغللك مالو

نايم وصاحي مالك ومالو

لا تقول لي هواه امالو

ايه ضيعني غير إهمالو

وأنظر إليه كيف يفخر بقومه بأحسن مما فعل الحردلو او ودشوراني او ودضحوبة:-

أبواتك ملوك من أرقولي سكوت

وكان دم الرجال ليهم شراب ومقوت

غريب صابساب جيهوشم ذلت أب جبروت

كتلوا الجردة تسعة وفيها سووا الفوت

أنحنا المحسن يحسن وليدنا حتوفو

متحمل جبال الواقعة سائدة كتوفو

ناره بتوقد الغيرة وتناجي ضيوفو

قرة سنو في داره تحاكي سيوفو

حدث أن إجتمع ذات مرة أربعة من كبار الشعراء في بيت اقدمهم، وكان بالبيت صورة معلقة لفتاة، وطلبوا من

هؤلاء الشعراء إسترجال أبيات شعر في وصف الصورة، فقالوا:-

1 . محمد علي عثمان بدري

أحسن من ظلي في حُسْنِهَا وفي نوره
أبي من البدر و صفاء كالبنورة
في جيلنا يُتفوق أم سُرِّي وتنوره
نجلاء العيون أَلْقَتْنَا في تنوره
2 . يوسف حسب الله:-

سيمات الجمال في صورته محصورة
رقته في النظر وأنامله وخصوره
أبي من الحواري الفي الخيام مقصورة
عجبا شوف جماله في هذه التصويره
3 . ابراهيم العبادي:-

شوف رمة الأراك كيف جالسة في تصويره
معيها كالبدر في نوره والتدويره
انظر لعيونه ودعجته وتحويره
من كثر الدلال تلتشف عويره عويره
4 . خليل فرح:-

يا ريم الفلا الفي الدنيا ما في مثالك
من عدم الأنيس والوخشة قلبي رثالك
حيالك الفؤاذ لِكُنْه ما بئالك
عجبا شوف عيشق كل الأنام بئالك
ثم هذا اللحن الخالد، الذي تسمعه كل يوم. فيتجدد في سمعك:-

عازة في هواك عازة نحن الجبال
وللبخوض صفاك عازة نحن النبال

.....

عازة ما سليت وطن الجمال
ولا ابتغيت بديل غير الكمال
وقلي لسواك ما شفتو مال
خذي باليمين وانا راقد شمال

.....

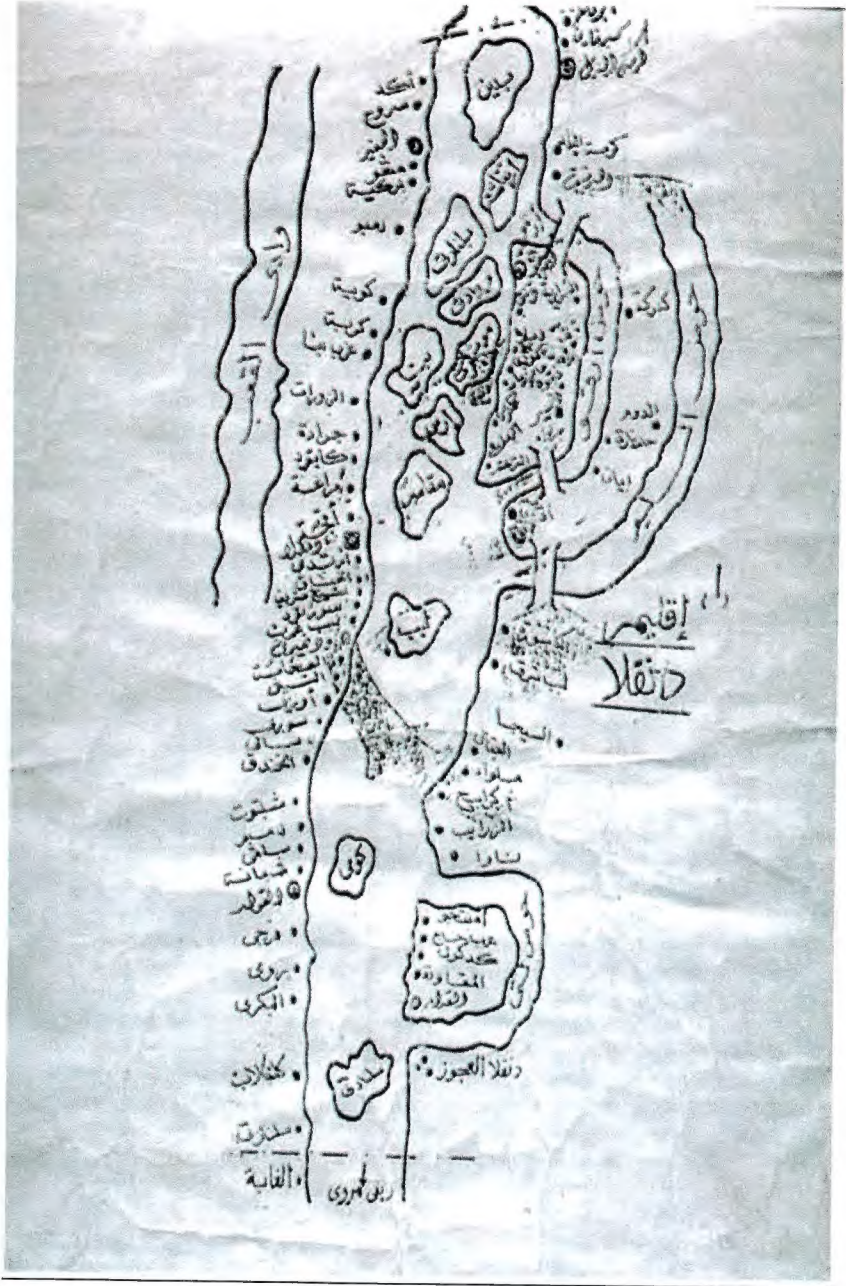
عازة ما نسبت جنات بلال
وملعب الشباب تحت الظلال
ونحن كالزهور فوق التلال
نتشابي للنجوم وأنا ضافر الهلال

.....

عازة في الفؤاد دوا يشفي الوبال
عازة في الفؤاد سحرك حلال
ونار هواك شفي وتهك دلال
ودمعي في هواك حلو كالزلال
تزيدي كل يوم عظمة وازداد جلال

.....

ودعنا في الختام نأمل بقاء الوطن ونغني هذا المقطع: .
ما يلسنا الخير عوده سايق
الحي يعود إن أتى دونه عايق
إلي يوم اللقا وإننت رايق
السلام يا وطني السلام



خريطة المناطق النوبية وجدها عند الشيخ أحمد عز الدين ، وقد جاء بها من أحد أصدقائه في القاهرة ، ولم أتمكن من معرفة المصدر الأصلي، ولكن وحسب معرفتي للمنطقة فهي تبدو دقيقة.

خاتمة

قصائد في الخاطر

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الوضئ

وجهك الذي يُؤنسُ ليلَ غُربتي

يا طفلي

يا زينة القبيلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الدُّق

وجهك الساحر والبديع

كوردة الربيع

كزهرة الخميعة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك النّهي

وجهك الذي إستحي الزمانُ من بهاءه

فلم يَطأ سماءه

بخطوه الثقيلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الشّهي

وجهك الذي أحلمُ أن أراه

بالشوقي مُنتباه

في ليلة كَحيلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الوريث

كشتلة يانعة قامت علي شط المني

كبسمة حاملة تختال بالسنا

كقيمة ظليلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الغفيف

وجهك الذي إستداز وانتدي

وجهك الذي إنتحي

بجانِبِ الفضيلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الرقيق

وجهك النضير

وجهك الأسر والأتير

كلوحة جميلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الأنيق

وجهك الذي يَخْرُجُ في الرِّحَامِ

كحُطلة الأحلام

في القرية النخيلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك البليل

وجهك الذي زرعَتْ في ساحاته

ودَعَتْ في باحاته

أماي النيلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك الخليل

وجهك الذي أكتبُ في الصُّبحِ له

أعزفُ في الليل له

الحاني الجليلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك السعيد

كفرحةٍ عنيدةٍ عنيدة

كنجمةٍ بعيدةٍ بعيدة

وخطوتي كليلة

.....

في خاطري قصيدةً لوجهك ال.....

وجهك الذي

غفواً جميلتي ..

فأخزني عليلة .